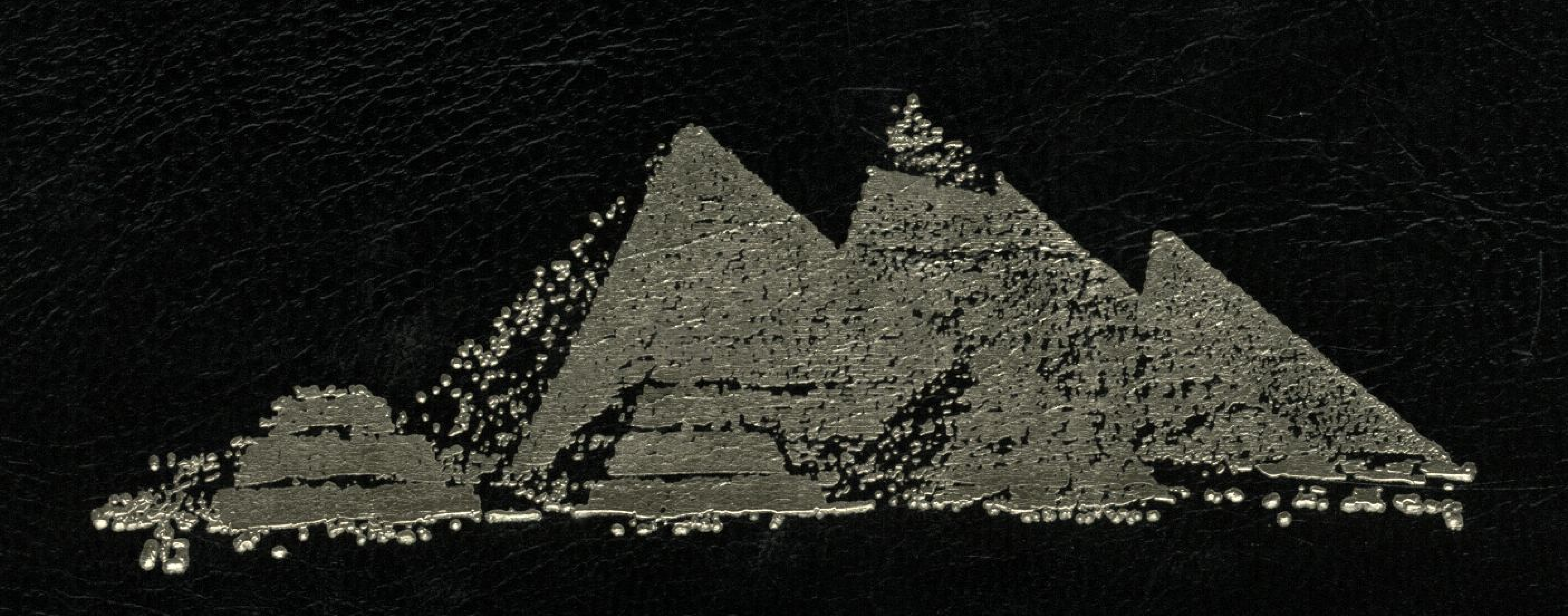
موسوعة

عظماء في تاريخ مصر





عظماء

في تاريخ مصر

(٥)

إلياس الأيوبي

موسوعة

عظماء في تاريخ مصر

المجلّد الخامس

تـاريــخ مصــر
في عهد الخديوي إسماعيل باشا
١٨٦٣ ـ ١٨٧٩

الجزء الثاني

ـ ١ ـ

دار نوبليس

اسم الموسوعة: عظماء في تاريخ مصر

اسم الكتاب: تاريخ مصر في عهد الخديوي إسماعيل باشا - الجزء الثاني - ١ -

المؤلف: إلياس الأيوبي

قياس الكتاب: ١٧ × ٢٤

عدد الصفحات: ٢٤٨

عدد صفحات الموسوعة: ٤٢٣٦

مكان النشر: بيروت

دار النشر والتوزيع: دار نوبِليس

تلفاكس: ٧٥ ٣٤ ٥٨ (١) ٩٦١

هاتف: ٢١ ١١ ٥٨ (١) ٩٦١ - ٢١ ١١ ٥٨ (٣) ٩٦١

صندوق بريد: ٧٠ ٦٩ ١٦ بيروت لبنان

بريد إلكتروني: info@nobilis-int.com

الطبعة الأولى: ٢٠١٢

EAN 9786144031346

ISBN 978-614-403-134-6

فهرست

المجلد الثانى

صفحة



الباب الثالث

من الجزء الثالث "رابعة النهار"

تحقيق الشطر الثالث من الخطة المرسومة

(أى العمل على النهوض بمصر الى مصاف الدول العظمى)

إجمال

إن لعظمة الدول ثلاثة مظاهر كبرى أجمعت على حقيقتها أفكار البشر :

المظهر الأول : القوة المادية ، واتساع السلطان بالفتوح والاستعمار .

المظهر الثانى : أبهة الملك وجلاله ، لا سيما فى المواسم والأعياد .

المظهر الثالث : العناية بالعلوم ورفع شأنها وشأن القائمين برفع منارها وتوسيع دائرتها .

(فاسماعيل)، لكى يدرك غرضه الثالث ، وأعنى به إقامة مصر فى مصاف الدول العظمى ، لم يفتر لحظة ، منذ أن جلس على العرش الى أن أحاطت به المصاعب المالية ، عن بذل أقصى جهوده فى سبيل جعل بلاده تتجلى فى ثياب تلك المظاهر الثلاثة ، وتتحلى بحقيقتها . وهو ما سنبينه مفصلا فى الفصول التالية .

الفصـــل الأول[1]

القوة المادّية واتساع السلطان بالفتح والاستعمار

أيقنت أنى ذو حفاظ ماجد * من نسل أملاك ذوى أتواج

« جحدر بن ربيعة »

ميدانا التوسع أمام السلطان المصرى

أمامَ مصر، اذا ابتغت فخار الفتوح ومجد السلاح، ميدانان : الميدان الشرقى، من شماليه الى جنوبيه؛ والميدان الجنوبى، من شرقيه الى غربيه . فيمكنها تسيير أعلامها نحو بلاد فلسـطين واليهودية وفينقية والجليل وسوريا؛ وتجاوزها زحفا : إما الى ما وراء جبال طورس من جهة؛ وإما الى ما وراء الصحراء السورية من جهة أخرى؛ أو يمكنها أن تصعد بتلك الأعلام مجرى النيل من جهة؛ وتسير بها منصورة فى بلاد النوبة تدوّخها من غربيها الى شرقيها؛ أو تجتاز بها القلزم من جهة أخرى، وتقيمها خافقة فى سماء العز فوق ربى اليمن وغيرها من البلاد العربيــة الجديرة بالاستعمار .

وتاريخ أيامها المـاضية العسكرية، كلما اتقدت روح الفتح فى صدور فراعنتها أو أمرائها أو خلفائها أو ملوكها وسلاطينها، إنمـا هو عبارة عن وثبها بجحافلها وكتائبها وكراديسها الى أحد ذينك الميدانين أو الى كليهما معا .

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "تاريخ السودان" لنعوم بك شقير، و"رسائل جوردن باشا لأخته"، و"مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لو يليم ماك إى داى، و"حملة المصريين ضد الحبشة" لستزكرا، و"تقرير عن استيلاء الحبشان على الكشافة الجيولوجية والميزالوجيــة المرسلة من أركان حرب الجيش المصرى" لمتشل . (ل . ك) .

عمل الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة

فبينما الأسرة الثانيـة عشرة الفرعونية — وهى بلا مكابرة خير أسرة جلست على العرش المصرى القديم — وجهت وجهها على الأخص شطر الميدان الشرقى، وأقامت مظال سلطانها على فيافى شبه جزيرة سيناء وربوع فلسطين، قد تناولت مطامع الأسرة الثامنة عشرة المجيدة الميدانين معا، وسار فراعنتها، لا سيما (حاتاسو) — سميراميس وادى النيل — وطوطمس الثالث — اسكندر الأيام المصرية القديمة ونابوليونها — بجحافلهم المنصورة، تارة الى ضفاف نهرى الفرات والسدنس شمالا، والى اليمن السعيدة وبلاد حضرموت جنوبا؛ وطورا الى أعماق النوبة، وما وراء الشلال الرابع. بل ان طوطمس الثالث لم يهب الفيافى الليبية، وولج بجنوده البواسل الميدان الغربى المخيف، وأخضع لسلطان أحكامه الحكيمة الأمم الوحشية القاطنة ما وراء تلك البيد بقدر ما كان يمكن فى تلك الأيام، اخضاع قبائل تنتقل بخيامها ومظالها فى شاسع أرجاء الصحارى الافريقية لسلطة منظمة.

عمل الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين بعدهما

واقتفى فراعنة الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين خطوات أسلافهم الأماجد: فحارب امزيس الثانى على ضفاف نهر العاصى (الأورنتيس) وفى ضواحى حلب؛ وقاتل رامزيس الثالث تحت قلاع رفح تارة، وأخرى عند خليج السلوم.

على أن عواهل مصر القدماء كانوا الى التوسع فى الميدان الشرقى أميل منهم الى التوسع فى الميدان الجنوبى: إما لأن البلاد الشرقية كانت معروفة لديهم أكثر من البلاد الجنوبية، وكانوا يعتقدونها أكثر من هذه ثروة وخيرات؛ وإما لأنهم — لتوقعهم منها شرا، لا سيما بعد غزوات شعوبها المختلفة التى قلبت السلطنة المصرية القديمة رأسا على عقب، وعادت فأغارت على الوادى الخصيب، وقوضت معالم الامبراطورية المصرية الوسطى، وأقامت على عرش فراعنتها الأماجد الأسرتين الهكسوسيتين

الخامسة عشرة والسادسة عشرة — كانوا يرون الحرب الهجومية خير أنواع الحرب الدفاعية وأجداها فائدة؛ وإما لأن بلاد الجنوب، بعد تزوج أحمس «المخلص» من من الأميرة نفرتارى النوبية الجميلة، وريثة عرش نبــاته، وانضمام بلادها الى بلاد التاج المصرى، وتلقب ابنها وولى عهدها "بأمير كوس" — وهو اللقب الذى أصبح ولى عهد الفرعونية المصرية يختص دائمــا به منــذ ذلك الحين، كما اختص بلقب "أمير ويلز" ولى عهد المملكة الانجليزية منذ أن ضم إدورد الأول البريطانى إمارة ويلز الى أملاك عرشه — باتت معتــبرة عضوا فى الامبراطورية المصرية، وجزءا متمما لكيانها؛ ولو أنها أنجبت فيما بعد ملوكا أصلهم مصرى أغاروا على قطر أجدادهم وجلسوا على عرش عواهلهم .

عمل الأسرة السادسة والعشرين

لذلك، حينما استتبت أقدام الأسرة السادســة والعشرين على عرش القطرين، واتقدت روح الفتح فى صدور أكابر فراعنتها، هب نيخاؤ الى الاكتساح فى الميدان الشرقى، بالرغم من أن رحلة عمــارته المصرية الفينيقية حول القارة الافريقيــة، واشتطاطها سواحلها كافة، من القلزم الى رأس العشم بالخير، فإلى بوغاز جبل طارق أو "عمد هرقل" — كما كان يدعى ذلك البوغاز فى تلك الأيام — فإلى ثغر پلوزا (الفرما) كان من شأنها أن تفتح أمام مطامعه ميدانا يشبع اتساعه الشاسع كل جوع الى الفتح ومجده، والاستعمار وفخره .

عمل البطالسة

ولمــا آل العرش المصرى الى البطالسة، فانما كان الميدان الشرقى مطمح أنظارهم ومجال جهودهم؛ وانما كانت كتائبهم تسير الى بطاحه لتبارز كتائب ملوك سوريا وغيرها .

والطولونيين والاخشيديين والفاطميين

كذلك كان ذلك الميدان عينه، بالرغم من وعورته، محط رحال فروسية الطولونيين المجيدين أحمد وخمارويه؛ والاخشيد؛ والفاطميين، الساطعى الشهرة، المعز والعزيز

والأيوبيين والسلاطين المماليك

ومن حذا حذوهما من خلفائهما؛ وصلاح الدين الأيوبى، البطل الأجل والسلطان الأكمل؛ وكبار أبطال السلاطين المماليك المصريين، من قطز وبيبرس البندقدارى وقلاوون والناصر، الى برقوق وبرسباى وقايتباى والغورى المنكود الحظ .

على أن الظلام الدامس الذى انسدلت سدوله على أقطار الميدان الجنوبى، منذ أن أضاعت مصرنا الأسيفة استقلالها على يد ذلك الظالم المجنون، قمبيز الفارسى، كان يبرر الى حدّ ما انصراف همم الجالسين على عرشها عن انتشارها فيه؛ لا سيما بعد أن ذاعت عنه الأنباء الخرافية التى روّجها كتّاب العرب وغيرهم، والتى جعلت المخيلات تتصوّره أسود من الناس القاطنين فيه ومفعما أهوالا تتضاءل أمامها أهوال "بحر الظلمات" الشهير .

عمل (محمد على)

ولما أرادت العناية الإلهية أن يؤول زمام القطر المصرى الى يد (محمد على) القديرة، وفتحت همة هذا النابغة المتفوّق وعزيمته آفاق آمال جديدة أمام البلاد، فان الجهود المصرية وجهت شطر الميدان الشرقى أوّلا؛ وسارت فيالق الفاتح الجديد تحت إمرة ولده طوسن فإمرة ولده (ابراهيم) الهمام الى البلاد العربيــة ترغم أنوف الوهابيين، وتحنى جباههم أمام الجالس على عرش الأستانة . ولولا أنه تواترت الاشاعات عن وجود مناجم ذهب فى مجاهل السودان لما فكر (محمد على) فى فتح أصقاعه، ولما شغل نفسه فى تجهيز الحملات اليها، بالرغم من نزوح بقايا الأمراء المماليك الذين قضى عليهم الى اقليم دنقلا، ورغبته فى اجتثاث جرثومتهم، ومحق أثرهم .

ومع ذلك، فانه هو أيضا حينما اتضح له أن حكاية مناجم الذهب "حديث خرافة يا أمّ عمرو"، حوّل مطامعه عن الميدان الجنوبى بالمرة وأخذ يشرئب بها الى ظروف تمكنه من تسيير ألويته الى الميدان الشرقى المعتاد .

ولا غرو : فرجل مثله ، مغرم بالمجد والشهرة ، رغاب فى أن تتحدّث بسـيرته الركبان والألسنة ، متحمس للاسكندر القائل وهو على ضفاف الهندس : «ألا ، كم أقاسى ، لكى تمدحونى أيها الأثينيون ! » ، وللبطالسة ، المذكرته بمجدهم جزيرة فارو المتقدّمة فى البحر ، شرقى سرايه براس التين ، رجل مثله ، كثير الكلام عنهم ، كأن مواطنته لهم توجب شيئا من القرابة والنسب بينهم و بينه ، حتى لقد يروى عنه أنه سمع مرة بعضهم يحكى قصـة عن المكدونى العظيم تأخذ بمجامع الانتباه والالتفات ، فهتف بخيلاء قائلا : « وأنا أيضا من فيلّى[1] ! » أى من بلد الاسكندر ، رجل مثله ، يفتخر بأنه ولد فى ذات السنة التى ولد نابوليون فيها ، و يتلذذ جدّا لدى سماعه الغربيين يشبهونه به و يلقبونه "نابوليون الشرق" ، رجل مثله ، نرانا — إذا سلمنا بمبدأ القائلين بتعدّد الأعمار ، وعود الانسان بعد موته مرارا عديدة الى الوجود الأرضى حتى يبلغ درجة الكمال ، فينتقل حينئذ ، بدون رجعة أرضية ، الى عالم أرقى من عالمنا هذا : وهو مبدأ البوذيين — نميل الى التسليم فعلا بأنه قد يكون (بطليمس صوطر) أو (بطليمس فيلاذلفس) المجيدين ، لأن مَلكه كملكهما : أعاد الحياة الى مصر ، واختط لها سبيل وجود جديد ، ولأنه تحلى ، مثل كل منهما ، بمزايا رجولية باهرة ، لا بد لهـا من جعل اسمه ممجدا كاسميهما على ممرّ الدهور ، رجل مثله ، لم يكن ليرضيه إلا أن يسير أعلامه حيث سير أولئك الأماجد أعلامهم ، وأن يجعل بلاد السود دون غيرها موطنا لشهرته ، ومجالا لأعماله ، فيهمل الميدان الشرقى الذى كان لا بد لفعاله فيه من الدوىّ فى آذان عموم العالم المتمدين ، وحمل أقوامه ، مانحى الشهرة ، وضافرى

(١) أنظر : "مصر الحديثة" فى كتاب مرسيل المعنون "مصر" ضمن مجموعة المؤلفات التاريخية المنسوبة للأونيفير .

أكاليل المجد الأبدية ، وحدهم ، على التحدث بها ، وتعطير صفحات التاريخ المستقبل بشذا تكبيرهم إياها ، وتعظيمهم البطل الذى تمت على يديه .

فمع استمراره على الرغبة فى الجنوب ، ليتخذ على الأخص من سوده جنودا للجيش الذى شرع ينشئه على النظام الأوروبى ، لم يعر ميدانه أهمية كثيرة ؛ وانما أبقاه فى قبضة يده لأنه كان من طبيعته ضنينا بملك آل اليها ، أن ينفلت منها . ولم يكن اهتمام خليفتيه (عباس) و(سعيد) بذلك الميدان أكثر من اهتمامه ؛ بل إن (سعيدا)، على ما رأينا ، فكر وقتا ما بالتخلى عنه بالكلية .

(اسماعيل) يختار التوسع فى الميدان الجنوبى

فلما آل الأمر الى (اسماعيل) — وكان قد عرف شيئا عن السودان أيام أن أحمد ، وهو ولى العهد ، وسردار الجيش المصرى ، الثورة التى أهاجتها بعض قبائل عربية على حدوده — نظر الى الميدان الجنوبى بغير العين التى كان جميع أسلافه ينظرون اليه بها ؛ وأدرك فى الحال مالم يدركه جده العظيم والفراعنة الكبار، قبله ، أنه الميدان الحقيقى الذى يحسن بمصر أن تنشر فيه جهودها الفاتحة الممدنة ؛ لأنه الميدان الوحيد الذى لا يزاحمها أحد عليه ؛ بل الميدان الوحيد المحتاج الى عمل من الخارج يزيح عنه سدول الجهل والوحشية ، وينشر فوقه أعلام العرفان والعمران .

فأجال نظره فى أطرافه الشاسعة المترامية ، وشخص مليا الى بقاعه المتعددة المختلفة ، الكثيرة الخيرات بالرغم من الفوضى السائدة عليها ، المنتظرة الاستعمار ، والطالبة النظام ، لتزيد تلك الخيرات مائة ضعف ؛ وتأمل فيما قد تؤول اليه مصر من عز وسؤدد لو أتيح لها أن تتوغل ، بحدودها الجنوبية ، الى الجنوب تباعا ، وتمد ظل سلطانها بالتدريج من غربى ذلك الميدان الى شرقيه ؛ متقدمة ومصباح المدنية والعمران فى يديها ؛ فتقيم سلطنة عظيمة ، تمتد من البحر الأبيض الى خط الاستواء ، ومن

بحر القلزم الى أقصى متاخمات الصحراء؛ سلطنة تتضاءل أمام اتساعها الذى لاحدّ له نفس الممـالك العثمانية الشاهانية ، ولا تضارعها فيـه إلا دول معدودة على سطح البسيطة[1] !

فوقع فى خلده فى الحال وجوب العمل على تحقيق هذه الأمنية الجلّى، للفوز بمجد فذ لا يشاركه أحد فيه، ولرفع منار مصره، بصفتها ممدّنة الجنوب أجمع ، فوق منار كل دولة شرقية سواها ؛ ومتى تحققت تلك الأمنية تمـاما ، وأصبحت الخديوية المصرية ثابتة الأركان، من شمالى القارّة الافريقية الى أواسطها، يمتدّ سـلطانها على واحد وثلاثين درجة من خطوط العرض، وعشر درجات من خطوط الطول، من يدرى ماذا يمكن لها حينئذ أن تعمل من الأعمال فى مسرح العظمة البشرية؛ وماذا يمكن لها أن تنال من التحقيقات فى ميدان آمالها القومية؛ وماذا يكون مآل علاقاتها بتركيا، الزاعمة حق السيادة عليها ! ؟

وكان حكمدار عموم السودان، حينما ارتقى (اسماعيل) عرش جدّه ، موسى باشا حمدى — وهو رجل مشهور؛ قمع عدّة ثورات محلية فى كردوفان وتقلى؛ وسنّ قوانين جديدة لجمع الضرائب، فأعطى كل فلاح "سركيا" بيـده ، ليدفع ماجعل عليه من الأموال، على ثلاثة أقساط معينه فى السنة، فكلما دفع قسطا قيد له فى "سركيه" ، قيده فى يومية الصراف؛ وجعل من الأهالى نظار أقسام ومعاونين ، وأمرهم فلبسوا الملابس العثمانيـة، فحسنت بذلك الحال؛ وسهل تحصـيل الأموال . فأصبح اسمه

(١) أنظر ما قاله فى هذا الصدد إدون دى ليون فى كتاب "مصر الخديوى" ص٣٤٢؛ واقرأ ما كتبه "ماريت باشا" موردا فى الكتاب عينه ص ٣٦٠ و ٣٦١ ؛ واقرأ على الأخص ما ختم به إدون دى ليون هذا فصله فى السودان من الكلام الأنيق الحق !

معروفا فى البلاد، وشخصه محبوبا من العباد؛ فأنعم (اسماعيل) عليه برتبة فريق؛ واستدعاه اليه ليوقفه على حال تلك الديار . فذهب موسى باشا الى مصر فى ١٠ يوليه سنة ١٨٦٣ وأدّى واجب الشكر لمولاه على النعمة التى أسبغها عليه؛ ثم أوقفه على حقيقة حال الجنوب؛ وعاد مزوّدا منه بتعليمات الى الخرطوم . فأخذ يزيد عدد جنده هناك حتى بلغ الثلاثين ألفا من نظامية وباشبوزق؛ وسار بالبلاد على أحسن نظام، ممهدا السبيل لتحقيق مرامى مولاه؛ جامعا القلوب على حب أحكامه .

الملك ناصر والصائغ

وكان على جبال تقلى، فى أيام موسى باشا، ملك يقال له "ناصر"، اشتهر بالقسوة والوحشية : فكان اذا غضب على شخص وضعه عاريا مكتوفا على حجر محمى حتى يموت . ويحكى أن صائغا من صاغة الأبيض سمع بقسوته — وهو يذيب فضة على النار — فلما سالت قال : «حق هذا السائل أن يصب فى أنف الملك ناصر، جزاء قسوته وظلمه» . فبلغ الخبر الملك ناصرا، فعزم على الإيقاع به، وأركن الى الحيلة . فأرسل اليه أربع جوار، هدية؛ وسأله أن يحضر مع الرسول الى الجبل ليصوغ بعض الحلى لنسائه؛ ووعده بمكافأة جليلة . فذهب الصائغ؛ فأعطاه بعض الفضة والذهب؛ فصاغها له . ثم أعطاه فضة وسأله أن يذيبها على النار؛ ولما سالت قال له : «أتذكر أنك اشتهيت مرة فى الأبيض أن يصب مثل هذا السائل فى أنفى؟» فسكت الصائغ وأُلجم لسانه؛ فأمر ناصر بعض العبيد فقيدوه؛ ثم أخذ الفضة وصبها فى أنفه وهى محماة؛ فتورّم دماغه ومات لساعته . ولكنه مالبث أن وقع خلاف بين ناصر وبين ابن عم له اسمه آدم دبال؛ ولما كان أهل ناصر قد سئموه لكثرة ظلمه وقسوته، نصروا ابن عمه عليه؛ ففرّ بعائلته الى موسى باشا فى الخرطوم؛ فأرسله الى (اسماعيل) بمصر .

حرب بين عربان حمر وعربان الكبابيش

ووقع فى تلك الأثناء ، فى بادية كردوفان ، حرب شديدة بين عربان حمر وقائدهم الشيخ مكى ود المنعم ، وبين عربان الكبابيش ، وقائدهم الشيخ فضل الله ود سالم ، إشتهرت بحرب "العقال" ؛ لأن كلا الفريقين جمع رجاله وأولاده الى ساحة الحرب ، وعقل الإبل ، وعوّل على النصر أو الموت ؛ وتقاتلا طويلا ، مستقتلتين ؛ فانتصر الحمر ، وغنموا نحاس الكبابيش وأموالهم .

ثورة السود فى كسلا

وفى أواخر أيام موسى باشا ثار الجهادية السود فى كسلا ثورة أدت الى سفك دماء كثيرة ، واستغرقت عدّة أشهر ؛ وكان السبب فيها سوء ادارة القوّاد وتأخرهم عن دفع مرتبات الجند . وتفصيل ذلك أنّه كان فى استحكام كسلا آلاى فيه نحو أربعة آلاف من الجهادية السود ، ومعهم نحو ألف نفر من الباشبوزق الأتراك والشايقية ؛ وكان المدير على البلد ابراهيم أدهم بك . فخطر له فى مارس سنة ١٨٦٥ أن يرسل غزوة على جبال البارية والبازة ؛ فأصدر أمره لأورطة من الجهادية وبعض الباشبوزق بالتأهب لها ؛ فرفضوا الأمر وقالوا : « لا نسافر حتى نقبض المتأخر من رواتبنا » . فلما بلغ قولهم قومندان الأورطة ، واسمه خطاب افندى ، غضب وقال : «أأصبح للعبيد شأن يعصون به الأمر؟ فوالله لأسوقنهم للغزوة بالسياط » . فازداد السود تصلبا وعنادا ؛ ولما جاء الميعاد المضروب خرجوا من الاستحكام ووقفوا عند الباب المسمى باب سبدرات « طابورا » ، وجمعوا أسلحتهم أمامهم كوما ، وأرسلوا يخبرون قومندانهم أنهم لا ينتقلون من مكانهم حتى يقبضوا رواتبهم بتمامها ؛ وإن كان لم يزل ينوى تنفيذ أمره بالسياط ، كما قال ، فليفعل . فجاءهم خطاب افندى على جواده ، ونادى بهم "سلاح آل" ؛ فهجموا عليه ، وأوسعوه شتما وضربا بالعصى ؛ ونساؤهم من ورائهم يشجعنهم ويزغردن لهم . فلجأ خطاب افندى الى الفرار ، وأخبر

المدير بما كان . فاهتم للأمر، وخشى امتداد الثورة الى الآلاى كله؛ وكانت الذخيرة بيد ملازم منهم؛ فأخرجها من يده، وسلمها الى ضابط من ضباط الباشبوزق الأتراك، وجمع التجار المغاربة وأهل البلد، فسلحهم وضمهم الى الباشبوزق، وفرقهم على أبراج السور .

أما العصاة فانهم حملوا سلاحهم وساروا فى وجوههم نحو سبدرات؛ وكان قومندانهم قد وجه اليها بعض العسكر الباشبوزق بمدفعين وستين صندوقا ذخيرة محملة على ثلاثين جملا ليتقدموا الغزوة؛ فأدركهم العصاة فى الطريق، واستولوا على الذخيرة والمدفعين، بعد أن فتكوا بالعساكر، وضربوا قائدهم، السرسوارى سعيدا أغا أبا فلقة، فأثخنوه وتركوه بين حى وميت؛ ونزلوا فى سبدرات .

فعقد المدير ناديا من الضباط والتجار والأعيان للنظر فى أمر الأورطة؛ فأقروا على أن يرسلوا اليهم رواتبهم المتأخرة، ويتداركوا أمرهم بالتى هى أحسن، حتى تطمئن نفوسهم؛ ثم ينفذون فيهم رأيهم؛ ففعلوا . وكان فى كسلا اذ ذاك الأستاذ السيد الحسن. ابن الأستاذ السيد محمد المرغنى؛ مؤسس الطريقة المرغنية فى السودان؛ فتكفل بالأمر فحملت النقود له؛ فذهب بها الى سبدرات ووزعها على العصاة بالتساوى؛ فأصاب كلا منهم أربعة ريالات؛ ثم عنفهم على مسلكهم، وطلب اليهم أن يرجعوا الى كسلا فرضوا، على أن يكون غير خطاب افندى قومندانا عليهم؛ فعاد الأستاذ الى كسلا وأخبر المدير بما كان؛ فأرسل اليهم عثمان بك قائمقام العساكر ليقودهم، ويغزو بهم الجبال؛ فقابلوه بالطاعة، وساروا معه فى الغزوة؛ فأقاموا فيها ثلاثة أشهر وعاد بهم الى كسلا .

وكان المدير قد كتب فى أثناء ذلك الى اللواء حسن باشا فى الخرطوم يخبره بما حدث؛ فأرسل حسن باشا الميرالاى عليا أبا ودان بك لاستلام قيادة الآلاى؛

ثم حضر بنفسه على الأثر للنظر فى الأمر . فوصل كسلا قبل رجوع الأورطة بشهر . فلما حضرت عقد مجلسا سريا للنظر فى أمرها؛ فاتفق الرأى على أن يوزعوا العساكر على عربان الهدندوة، بحجة جمع الضرائب، ثم يأمروا العربان بالقبض عليهم . فصدر الأمر للأورطة، فخرجت الى الميت كاب بقيادة الميرالاى على أبو ودان بك؛ وأمر على بك ضباطها — وكان أكثرهم من المصريين — بالتفرق بين القبائل لجمع الضرائب . فأدرك العساكر أن فى الأمر دسيسة، ورفضوا السفر . ولما أغلظ لهم الضباط فى الكلام هجموا عليهم، وقتلوا أكثرهم، وانتشروا فى البلدة، فنهبوها؛ وانقلبوا راجعين الى كسلا .

أما على أبو ودان بك؛ فانه نجا منهم بكل مشقة، وخف الى كسلا، فوصلها قبلهم، وأخبر اللواء والمدير بما كان . فبعد أن فارقا منزليهما، داخل التكنة، ودخلا ديوان المديرية بعائلتيهما، أخذا يستعدّان لملاقاة العصاة . وكان السرسوارى سعيد أغا قد شفيت جراحه، فأمراه بالمحافظة على الذخيرة مع عساكره؛ وجمعا الأسلحة من الأورط الثلاث الباقية فى كسلا ووضعاها فى التكنة، بدلا من وضعها فى خزينة السلاح؛ وأدخلا الشايقية الباشبوزق داخل السور، وضماهم الى المغاربة وغيرهم من سكان المدينة، وفرقاهم على الأبراج، وأمراهم بضرب عساكر الأورطة عند وصولها .

وفى صباح ٥ يوليه سنة ١٨٦٥ حضرت الأورطة، سائرة بانتظام عسكرى؛ فأمر اللواء والمدير بعدم التعرّض لها؛ ودخلا ديوان المديرية، فتحصنا فيه . فلما اقترب العصاة من باب الجنائن أطلق عليهم البلوكباشى محمد أغا المردلى عيارا ناريا على خلاف الأمر، فقتل منهم شاويشا وقال : «هذا ثأر ابن عمى الذى قتل يوم الثورة عند سلب الذخيرة» ثم أطلق عيارا ناريا آخر، فقتل أومباشيا؛ فهاج عساكر الأورطة

إذ ذاك ، ودخلوا القشلاق ؛ وكان فيه الضباط المصريون وعدتهم ستة وعشرون ، فقتلوهم عن آخرهم . أما خطاب افندى فبعد أن قتلوه وضعوا عليه يبيسا وأحرقوه بالنار .

ثم اجتمعت عليهم الأورط الثلاث الباقية ؛ وتعصبت للجنسية ضدّ الأتراك والعرب ؛ وكسر رجالها أبواب الغرف التى وضع فيها سلاحهم ؛ فأخذوه ، وتحصنوا فى الثكنة ؛ وفتحوا فيها المزاغل وقطعوا السابلة ؛ وانتشر أكثرهم فى البيوت ، ينهبون ويسلبون .

وكان السيد حسن المرغنى قد ذهب الى «سبدرات» ؛ فأرسل اليه المدير يدعوه ؛ فحضر فى اليوم التالى (٦ يوليه) الى «حلة الخلانقة» غربى «الاستحكام» ؛ وكتب الى العصاة يسألهم الكف عن الحرب ؛ وسلم الكتاب الى أحد خلفائه ؛ فرفعه على قصبة ، ودخل به الاستحكام ، وهو ينادى : «جاءكم كتاب السيد الحسن !» فتلقاه العصاة بالقبول ، وكفوا عن الحرب . ثم دخل الأستاذ ؛ فهرعوا اليه يقبلون يديه — ياالقوة المؤثرات الأدبية ! — وشكوا اليه أمرهم ؛ فوعدهم بالراحة .

ثم ذهب الى اللواء والمدير وعقد مجلسا للنظر فى تسكين الفتنة . فقرّ الرأى ، المرة الثانية ، على استخدام العربان للقبض على السود ! — وكان رأيا سخيفا ! — فجمعوا جموعا كثيرة من خيالة وقرابة من « الهدندوة » و « الخلانقة » وعرب سبدرات والجادين وبنى عامر ، ووضعوهم فى الختمية ! ثم ذهب السيد الحسن الى العصاة ، وقال لهم : « قد اتفق الرأى على أن تخرجوا من الاستحكام بجميع أمتعتكم ، وتذهبوا الى حيث تشاؤون ! » .

فشعر السود أن فى الأمر مكيدة كالتى كيدت لهم فى الميت كتاب ؛ فأبوا أن يخرجوا إلا اذا أعطى كل منهم ١٢ طلقة من الذخيرة (الجبخانة) ، ليحموا بها أنفسهم اذا غدر

بهـم . فاتفق رأى الجميع على اجابة طلبهم — وربمـا رأوا أن فى ذلك نجاة لهم من آفتين : آفة السود ، وآفة العربان ؛ ولكنّ سعيدا أغا أبا فلقة ، المولج فى حفظ الذخيرة ، وصاحب الثار على العصاة ، رفض الرأى بتاتا ، وقال : « انى لا أعترف بسـلطة أحد منكم على ، وأحسب نفسى مسؤولا عن الجبخانة عند أفندينا رأسا ! » فأجابه المدير واللواء : « اذا نحن لم نعطهم القدر القليل الذى طلبوه من الجبخانة ، فلا حيلة لنا فى القبض عليهم ، بل نخشى أن يهاجموك فيقتلوك أنت ورجالك ، و يستولوا على الذخيرة كلها ، فبقى أن نختار أهون الشرين ، ونعطيهم ماسألوه ؛ ثم ننظر رأينا فيهم ! » .

قال سعيد أغا : « أأهون الشرين تختارون فى تسليمكم جبخانة الحكومة الى عصاة خونة ، تمرّدوا عليها وقتلوا الجمّ الغفير من رجالها ؟ أفى الدنيا شر أعظم من أن يظهر رجال العسكرية الجبن أمام العبيد أولاد الجوارى ، فيسلموا لهم بمطالب ما أنزل الله بها من سلطان ، و يعطوهم الجبخانة ليستخدموها فى حربهم ؟ أليس الأجدر بنا أن ندعوهم الى الطاعة ؟ فان أبوا حاربناهم حتى نفوز أو نموت مشرفين . ومع ذلك فاختاروا أنتم لأنفسكم ما تشاءون ؛ أما أنا فقد اخترت الموت على التسـليم بمطالب هؤلاء الأجلاف ؛ واذا هاجمونى فى محلى وعجزت عن صدّهم فانى أركب برميلا من البارود ، وأشعل النار فى الجبخانة كلها ؛ فأقتل نفسى ، ولا أمكنهم من طلقة واحدة منها » .

و بلغ العصاة هذا القول ؛ فتركوا السفر ، وانقسموا أربع فرق ، حسب أجناسهم : الدنكة ، والفور ، والنوبة ، والمولدين ؛ فتولى كل فرقة رئيس منهم ، وانتشروا فى البندر ينهبون و يسلبون . ونزلت فرقة الدنكة على منزل رجل اسمه الحاج أحمد ود عجيب — وكان فيه مطمورة غلة — فقتلوا الحاج أحمد وأخاه ؛ وتقدّموا الى باب

المطمورة لإخراج الغلة . وكان للحاج أحمد بنت تسمى آمنة ؛ فلما رأت أباها وعمها مقتولين هان عليها الموت . فأخذت سيفا ووقفت فى الباب ؛ فصدتهم عن الدخول ، وقتلت خمسة منهم . فتسلقوا السقف ونقبوه ونزلوا اليها ؛ فقتلوها وأخذوا الغلة .

وكان المدير قد أرسل يطلب المدد من الخرطوم — وكان الحكمدار العام موسى باشا قد توفى فيها منذ بضعة أشهر ، وقام بشؤون الأحكام مكانه عمر فخرى بك — فرفع عمر هذا الخبر الى (اسماعيل) بمصر ؛ فاهتم (اسماعيل) بالأمر حق الاهتمام ، وبعث جعفر باشا صادق واليـا على السودان . فذهب اليه عن طريق كروسكو ؛ واتخذ جعفر باشا مظهر وكيلا له ؛ وأرسله بجيش ومدفعين الى كسلا عن طريق سواكن لاخماد الثورة ؛ وبعث بالأوامر المشددة الى فخرى بك ليبادر الى إرسال النجدات من حاميات البلاد حتى يصل مدد مصر .

وكان أول من وصل كسلا ، مددا ، السرسوارى على كاشف الكردى ، ومعه أربعمائة رجل من الباشبوزق ؛ وجاءها من القضارف فى أواخر يوليه سنة ١٨٦٥ ، ونزل فى ديوان المديرية . وبعد أن وصل ببضعة أيام خرج أحد رجاله بجمله ليرعاه ؛ فلقيه جماعة من السود المتمردين ، فسلبوه جمله وسلاحه وذخيرته ؛ فعاد الى على كاشف شاكيا . فغضب على كاشف ، وضرب طبل الحرب ، وتهيأ للقتال . وكان السيد حسن المرغنى لا يزال مقيما داخل الاستحكام ؛ فأتى اليه وسكّن غضبه ، وتكفل له برد الجمل والسلاح ؛ ثم ذهب الى العصاة وتلطف لهم ؛ فردوا الجمل والسلاح ؛ ولكنهم أنكروا أنهم أخذوا شيئا من الذخيرة . فصمم على كاشف رأيه على استرجاعها . ولما لم يردوها خرج اليهم ليلا فى ضوء القمر ، وأشعل فيهم النار ؛ فقابلوه بالمثل . ولما ثقل عليه الرصاص عاد الى ديوان المديرية وتحصن فيه . وفى اليوم التالى فتح السود المزاغل

فى الثكنة والمنازل التى فى جواره، وأخذوا يرمون المــارّة بالرصاص؛ فقطعوا السابلة، وحبسوا الناس فى منازلهم مدّة ستة وعشرين يوما حتى حضر آدم بك من واد مدنى، فالخرطوم، فبربر، بمدد من الجنود المنظمة، والباشبوزق؛ فكفوا عن الحرب .

وكان آدم بك من أعظم ضباط الجيش المنظم؛ وقد تربى فى مصر ورافق (ابراهيم) الهمام الى سوريا، فاشتهر بالبسالة والدربة وحسن السياسة؛ وكان (اسماعيل) يعرفه. فلما بلغه أنه ندب الى كسلا كتب اليه بالتركية بتاريخ ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٦٥ ينبؤه بارسال قوة بقيادة وكيل الحكمدارية ، ويبلغه ثقته من أن يتمكن هو وذلك الوكيل من اخماد الثورة، ويزوّده بتعليمات تقضى باستعمال الشدّة مع العصاة وتعقبهم وقتلهم أو أسرهم؛ وختم كتابه بالجملة التالية «وإنى أعلم بسالتك وحسن سياستك منذ كنت مع المرحوم والدنا فى سوريا ؛ فحقق آمالنا بك ؛ وعند انتهاء الثورة احضر الى مصر والسلام» .

فلما وصل آدم بك الى كسلا ، أنزل جنده خارج السور ، تجاه الباب الشرقى ؛ وأخذ بروجيه وبلطجيه وذهب رأسا الى الثكنة حيث يقيم العصاة؛ فأمر البروجى فضرب « نوبة جمعية ضباط » ولمــا اجتمع الضباط عليه خاطبهم آدم بك قائلا : « يا أولادى ! ما هــذا التمرد والعصيان اللذان جاهرتم بهما ؟ ألستم أولاد أفندينا الذى شرفكم بخدمته، وأجرى لكم الرزق والخيرات السنين الطوال ؟ أيحسن بكم أن تعصوه وتنتقضوا على حكومته، وهو قد عهد اليكم تأييد سلطته فى البلاد ؟ نعم إنكم مظلومون لعدم أخذكم رواتبكم فى أوقاتها، ولكم أن ترفعوا أصواتكم بالشكوى ؛ ولكنكم خرجتم عن حد الشكوى ، ووسعتم الخرق . ومع هذا فانى أرجو إصلاح الأمر، وأخذ العفو لكم من ولىّ النعم . فاذا سألوكم بعــد الآن فقولوا : إنا لم نجد ضابطا

عظيما من أبناء جنسنا نرفع اليه شكوانا ليبلغها الى وليّ نعمتنا ، فكان منا ما كان .
وأريد منكم الآن أن تخرجوا خارج السور، فتقيموا بين جبل مكرام وجبل كسلا حتى يصل اليكم العفو . ولا تغتروا بقوتكم وكثرة جموعكم : فان «يد الميرى طويلة» فها أنا قد جئت بجيش من العساكر السود والباشبوزق ؛ وجاء قبلى جيش آخر ، والمدد آت فى الطريق من كردوفان وسنار وبربر ومصر . فاذا تماديتم فى العصيان ، فانهم يجتمعون عليكم ويقتلونكم شر قتلة . فاقبلوا النصح وسلموا أمركم الىّ ، وأنا أدبركم بحكمتى ومروءتى » .

ومع أن آدم بك كان عربى الجنس ، أبوه محمد ضو البيت شيخ عربان دار حامد بكردوفان ، إلا أنه كان شديد السمرة جدا ، وعارفا بأخلاق السود ، حتى كان يظن أنه منهم . فاستأنس ضباط العصاة به واطمأنوا لكلامه ، خصوصا لأنه خاطبهم كأب ؛ فامتثلوا أمره ، وخرجوا من الثكنة بجنودهم الى المكان الذى عينه لهم خارج السور .

وبعد وصول آدم بك بأربعة أيام حضر الصارى ششمه عبدالله باشا من الخرطوم وبربر ومعه ثلاثة ارادى من الباشبوزق ، وعسكر خارج السور . فعقد اللواء حسن باشا مجلسا فى ديوان المديرية مع عبدالله باشا هذا والمدير وآدم بك وسائر الضباط والسناجق ، للنظر فى شأن العصاة . فقرّ رأيهم على تجريدهم من السلاح . ووكلوا تنفيذ قرارهم لآدم بك ؛ فنفذه ، وسلمه العصاة سلاحهم عن رضى . ثم عقد الضباط مجلسا آخر ، للنظر فيما يفعلونه بعد . فكان رأى الأكثرية على قتلهم . فأنكر آدم بك هذا الرأى ، وقال : «إنى حلفت لهم بشرفى أنه لا يقع عليهم حكم إلا إذا صدّق أفندينا عليه ، وعلى هذا سلمونى سلاحهم . فالآن نرفع الأمر الى أفندينا ، والذى يأمر به نفعله» .

فأخذا المجلس برأيه؛ ولكنه أقر على شدّ وثاقهم الى أن يأتى الرد بشأنهم من مصر. فأمروا عساكر الباشبوزق : فركبوا خيولهم، واحتاطوا بهم من كل جانب، وأخذوا حبالا من المخازن، وشرعوا فى تقييدهم، وإدخالهم فى التكنة، جماعة بعد جماعة. وانهم لكذلك، واذا ببلوكباشى من الباشبوزق اختطف بنتا من يد شاويش من الآلاى ليتمكن من تقييده؛ فبكت البنت؛ فسأله أبوها أن يتركها وشأنها؛ فشتمه البلوكباشى ورفسه برجله — آه من تعسف أولئك الباشبوزق ! — فأخرج الأسود سكينا من كمه، وطعن البلوكباشى فقتله، وهاج السود كلهم. فأمر عبد الله باشا الباشبوزق فأطلقوا الرصاص عليهم؛ فقتلوا أكثرهم، وهم لا يستطيعون عن أنفسهم دفاعا، وقبضوا على الباقين قبض اليد، وزجوهم فى السجن.

ثم لم يكن إلا القليل حتى حضر جعفر باشا مظهر وكيل الحكمدارية بجنده وحقق أسباب الثورة. وكان صاغ يقال له محمد افندى أبوخطالك قد كشف عن حظه فى الرمل؛ فقيل له انه إذا بقى مع المديرمات شنقا. فانضم الى العصاة؛ وذلك قبل مجئ آدم بك من الخرطوم بيومين. فأمر جعفر باشا بشنقه، فشنق — وهكذا قضى عليه جهله وتصديقه بكلام المنجمين ! — ثم شنق بعـده يوزباشى اسمه بشير أغا السودانى؛ وكان قد اتحد مع العصاة بعـد رجوعهم من الميت كاب. أما المتمردون الآخرون الذين سلموا من القتل فى حادثة البلوكباشى فان جعفر باشا جعلهم ثلاث فئات: فجعل الذين بدأوا بالثورة مع خطاب أفندى ثم عصوا فى الميت كاب فئة أولى؛ والذين عصوا بعد رجوع الفئة الأولى من الميت كاب فئة ثانية؛ والذين كانوا متغيبين فى الجهات خارج البندر أو الذين كانوا فيـه ولم يظهروا العصيان فئة ثالثة. فحكم على رجال الفئة الأولى بالإعدام. فأوثقوهم وصفوهم على خندق حفروه لهم فى سفح جبل مكرام

وضربوهم بالرصاص، فسقطوا فى الخندق، ثم ردموا الخندق . فكان من الردم تل ظاهر . وحكم على رجال الفئة الثانية بالحبس المؤبد مع الأشغال الشاقة . فاستخدموهم أولا فى بناء المنازل التى خربوها . وأما رجال الفئة الثالثة فنظم منهم ثلاثة بلوكات، وأبقاهم فى المديرية .

وأما المدير، ابراهيم بك أدهم ، فكان قد توفى قبل وصول جعفر باشا الى كسلا بأيام قليلة ، وكانت وفاته بغتة ، حتى قيل إنه شرب سما ليتخلص من الاهانة والعقاب . وتوفى بعده عبد الله باشا الصارى ششمه، ثم عثمان بك الذى خلف خطاب افندى على قومندانية المتمردين؛ وكان اللواء حسن باشا قد أصيب باسهال قبل وصول جعفر باشا الى كسلا؛ فتوفى بعد وصوله بأيام قليلة ! وهكذا انتهت ثورة الجند السود فى كسلا، بعد أن جرت الخراب على أهلها ، وضاع فيها الكثير من النفوس والأموال . ولم تكتف بهذا، بل جرت وراءها ذيلا، أى حمى وبائية نجمت عن فساد الهواء لكثرة القتلى . فمات بها خلق كثير[1] .

وعاد جعفر باشا مظهر بعد ذلك الى الخرطوم ، وذهب آدم بك الى مصر طوعا للأمر . فأنعم عليه (اسماعيل) برتبة اللواء وبالنيشان المجيدى الثانى . ولما كان جعفر باشا صادق قد أصيب بمرض، وقفل عائدا الى مصر، سمى الخديو جعفر باشا مظهر حاكما عاما للسودان مكانه ، مكافأة له على إخلاصه فى خدمته (٥ مارس سنة ١٨٦٦) . فجمع جعفر باشا العساكر السودانية من التاكة وواد مدنى وكردوفان وغيرها وأرسلهم الى مصر، وأتى بعساكر مصرية عوضا عنهم .

---

(١) أنظر : "تاريخ السودان" لنعوم بك شقير .

وكان (اسماعيل) — مذ نظر الى الميدان الجنوبى نظرته الثاقبة التى ذكرناها، ووطن عزمه على جعله مجال جهوده — قد رأى فى الحال : (أولا) أن إبقاء أعلام الدولة العثمانية خافقة على جانب لا يستهان به من سواحل بحر القلزم قد يكون من أكبر العقبات فى سبيل تحقيق مراميه، وقد يجر الى مشاكل مع تلك الدولة فى غير الوقت المناسب، ويحسن بمصر اجتنابها بالكلية .

تنازل تركيا لمصر عن سواكن ومصوع وتوابعهما

فأقبل يبذل المرغبات المالية لتركيا فى التنازل له عن ممتلكاتها هناك، مؤكدا لها فى الوقت عينه أن تنازلها له عنها — وهو التابع المخلص لها — لن يخرجها فى الحقيقة عن حوزتها، ويكون أقرب الى «معمورية» تلك الممتلكات عينها، بسبب قربها من مصر، وبعد تركيا عنها؛ وهى «المعمورية» التى تهم الباب العالى فوق كل شئ، كتأكيده، حتى تمكن فى نهاية الأمر من حمل الاستانة على إصدار فرمان فى شهر مايو سنة ١٨٦٥ تنازل السلطان بموجبه، له، عن سواكن ومصوع وتوابعهما، مقابل سبعة آلاف وخمسمائة كيس، أى سبعة وثلاثين ألفا وخمسمائة جنيه مصرى، يدفعها سنويا الى صندق ولاية جدّة، لتعمير الطريق الموصل الى مسجد الله الحرام، والقيام بشؤون بيت الله . ومع ان ذلك الفرمان قضى بأن التنازل للخديو دون ذريته وخلفائه، فان (اسماعيل) لم ييأس من جعله وراثيا فى المستقبل[1] .

الإقبال على إصلاح الجندية والبحرية

ورأى (ثانيا) أنه، سواء أنجح فى نزع أعلام الدولة العثمانية عن شواطئ القلزم وإحلال أعلامه المصرية محلها بطريقة سلمية، أم لم ينجح، لا بدّ له من إصلاح جنديته وبحريته إصلاحا كافيا يجعلهما كفؤين لمقابلة الطوارئ . ولم تكن ثورة السود فى كسلا، التى روينا أخبارها، واضطراب الأحوال فى السودان، الاضطراب

(١) أنظر هذا الفرمان فى "مجموعة الفرمانات" لفيليب جلاد .

البادية مظاهره عيانا فى حادثة الملك ناصر، وفى حرب "العقال" السابق ذكرهما، وفى حوادث أخرى كثيرة سنأتى على بيانها فى حينه، إلا ليزيداه يقينا فى وجوب إجراء ذلك الاصلاح، وثباتا على السير فى سبيله .

تاريخ وجيز للتجنيد المصرى البحت

وكان التجنيد بمصر، لغاية ما اختمرت فكرته فى دماغ (محمد على)، آفة مجهولة . وانما ندعوه "آفة"، لا لأنه "آفة" فى الحقيقة، فانا، وان كنا ممن يكرهون الجند القائم، ويعدونه ضربة على حياة البلاد الاقتصادية — وطالما كان فى الواقع ضربة على الزراعة، لا سيما فى أيامه الأولى، ولغاية أواخر القرن الماضى — وكنا ممن يعتبرونه داعيا الى تيقظ نيران الأطماع فى قلوب رؤساء الأمم، بل فى قلوب الامم عينها، وحاملا لها على إشهار الحروب وشنّ الغارات على من هو دونها بأسا وقوة، كما دلت الحرب الأخيرة عليه، إلا اننا لا نغفل عما فى نظام الجندية من مزايا ومنافع مادّية وأدبية، لا سيما فى البلاد المتعددة الأجناس والملل والنحل . فانه لو لم ينجم عنه فى مثل هذه البلاد من الفوائد سوى ايجاد رباط أخوة بين أفراد تلك الأجناس والنحل والملل، لكفى؛ فكيف وهو مدرسة تمارين رياضية مقوية للاجسام، وتمارين معنوية مدربة للارواح، ومغذية لها بألبان فضائل فردية : كالهمة والنشاط والترتيب؛ واجتماعية : كتضحية الأنانية وكالمروءة واحترام القوانين والولاء للوطن وحبه، وهلم جرا . ولكنا دعوناه "آفة"، لأن العقلية المصرية كانت تعدّه كذلك فى أول نشأة نظامه، ولا تزال فى ذات عصرنا هذا تعتبره كذلك الى حدما .

وربما التمس لها عذر فى السابق، ولو أنه لا عذر لها الآن . فان طرق التجنيد ومغبته فى بادئ أمره كان من شأنهما إظهاره فى مظهر الشئ الكريه جدا امام أعين الفلاحين . فان (محمد على) حاول أوّلا ايجاد جند من السود . فأخذ يبث البعثات

العسكرية في السودان لاقتناصهم والإتيان بهـم الى أسوان حيث أقام الكولونيل سيف، المعروف فيما بعـد باسم "سليمان باشا الفرنساوى"، فى انتظارهم، ليدرّبهم ويعلمهم، ويكوّن منهم جيشا نظاميا مؤلفا على الطريقة الغربية البونابرتية . ولكنه لم يفلح ، لأن معظم أولئك السود كانوا يهلكون أوّلا فأوّلا : إما بسبب المشاق التى كانوا يتحملونها أثنـاء المجئ بهم من بلادهم وسوء تأثيرها على صحتهم ؛ وإما بسبب عدم اعتيادهم طقس مصر، وتغير المناخ عليهم .

فحـاول (محمد على) ، إذا ، تكوين جيش نظامى من ممـاليكه الخاصة وأتباعه المخلصين له . ولكنه لم يفلح أيضا لداعى حقدهم على معلمهم الفرنساوى ونفورهم من التعلم على يديه نفورا ذهب بأحدهم الى محاولة الفتك به . فان سيف كان يوما يعلمهم الرماية بالبنادق؛ فما كان من ذلك الواحد إلا أنه صوّب بندقيته نحوه وأطلقها عليــه . فمرت الرصاصة بالقرب من جبهته وذهبت بجزء من قبعته ، وهو واقف لا يبدى حراكا، مع علمه أنه مرمى بندقية ذلك المملوك، وبالرغم من أن عينه كانت فى عينه . ولكنه، بعد أن أظهر للجميع شجاعته وعدم مبالاته بالموت على تلك الكيفية ، وثب على المملوك واغتصب بندقيته منه بعنف ووقف مكانه فى الصف وصوبها الى المرمى وأطلقها ؛ فأصابته فى وسطه . فرد حينئذ البندقية الى الرجل وقال له بانفعال : «هكذا تكون الرماية يا حمار! فتعلم»[1] .

فطرب المماليك لشجاعة الفرنساوى الجسور ؛ لأن الشجاع يطرب به عمل الشجاعة حتى لو بدا من خصمه؛ وباتوا أكثر انقيادا له . فتسنى لسيف جعل صف ضباط وضباط مهرة منهم . أخيرا تحوّل (محمد على) الى فكرة إنشاء الجيش المرغوب فيه

(١) أنظر : "مصر الحديثة" لمرسيل فى كتابه المعنون "مصر" فى ضمن مجموعة الاونيفير .

من أبنـاء مصر أنفسهم ، بالرغم من أن المحيطين به أنكروا على المصريين استعدادهم العسكرى ، و رموهم بالجبن وخور العزائم .

ولكنه ، لعلمه أن المصريين يكرهون الابتعاد عن أهلهم ، والتغرب عن أوطانهم ؛ و يكرهون بالتـالى الجندية التى تضطرهم الى ذلك ، أقبـل يجمعهم و يجندهم بالقوّة والعسف ؛ وأخذ يخطفهم ، زمرا زمرا ، من قراهم ونواحيهم ؛ و يرسلهم ، أفواجا أفواجا ، الى الصعيد حيث كان سيف — وقد اعتنق الدين الاسلامى ، لإزالة أكبر فارق بينه و بين جنوده ، وأصبح "سـليمان بك" — يعلمهم و يدرّبهم . وما زال (محمد على) مقيما على طريقة تجنيده هذه حتى تكون لديه ذلك الجيش الزاهر ، الذى مكنه (أوّلا) من الاستغناء عن جنده غير النظامى ، والدائم التمرد من الألبانيين والمكدونيين والأتراك والدالاتية والباشبوزق الآخرين ؛ ومكنه (ثانيا) من الفوز على جميع أعدائه ، و إذلال سلطان تركيا نفسه[1] .

غير أن الفلاحين المصريين فى تلك الأيام حينما رأوا أن المجندين ، أيا كانوا ، لا يعودون أبدا الى أوطانهم ، و يموتون حتما فى دار الغربة ، سـواء أكان فى المورة أو فى ربوع سوريا والأناضول ، ازدادوا كراهة للجندية ورغبة فى الفرار من وجهها . و إذ علمتهم الأيام أن بعض العاهات الطبيعية تكون سببا فى عدم تجنيد المصابين بها ، أقدموا على اقتلاع أعينهم اليمنى أو بتر إبهام أيديهم اليمنى أو سباباتها كذلك لكى ينجوا من التجنيد . ومن لم يجد منهم شجاعة فى نفسه للإقدام على أحد هذين العملين كان يفرّ من بلده ، و يذهب هائما على وجهه الى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا .

(١) راجع : "تاريخ محمد على" لمانجين وهامون وموريه وغيرهم .

فاضطر (محمد على): (أولا) الى تجنيد ذات العور ومقطوعى السبابات أو الأباهم فى آلاى خاص بهم؛ و(ثانيــا) الى تعقب أثر الفارين وادراكهم، ولو اعتصموا بأعماق الكهوف والصحارى أو التجأوا الى عبد الله باشا، والى ولاية عكا — وهذا هو السبب فى أن الحرب نشبت فيما بعــد بينهما . لأن عبــد الله باشا أبى إرجاع الهاربين المصريين الى حكومتهم، بالرغم من إلحاح (محمد على) الكثير . فلما بلغت روح المكدونى منه الحلقوم، بعث يقول له: «إنى سآتى لأخذهم بنفسى، وسأرجع بهم وبواحد زيادة عليهم» . وانما قصد بذلك الواحد عبدالله باشا عينه . وفى الحال سير جيشه الى سوريا؛ وكان من أمر حروبه هناك، وبره بتهديده، ما كان[1]!

وبما أن أمر تقديم الأنفار للجندية كان منوطا بمشايخ البلدان، وكانوا هم المسؤولين عن العــدد المطلوب منهم، فحدث ولا حرج عن المظالم والمغارم التى كان التجنيد يسببها فى عموم أنحاء البلاد[2] .

على أن (محمد على) بعد فراغه من حروبه، وعقب فرمان سنة ١٨٤١ المحظر عليه زيادة عدد جنوده على ١٨ ألفا، سرح معظم مابقى من جيوشه، ولم يعــد يلتفت كالسابق الى تعزيز جنديته، لا سيما أن الكبر كان قد أناخ عليــه بكلكله، وقعد بكثير من همته الشماء .

وكان رأى (عباس) خليفته فى التجنيد غير رأيه، لميل قلبه الى الأرناؤوط والأتراك، ورغبته فيهم دون العنصر المصرى، فأقبل يزيد عدد أولئك الأجانب، ويحلهم من الثكنات العسكرية محل الجنود المصريين، ويسلحهم بالمســدسات

(١) أنظر: "تاريخ محمد على" لمانجلين وهامون وموريه وغيرهم؛ وانظر: "مرسيل" .

(٢) اقرأ الفصل المعنون: (الخدمة العسكرية) فى "مصر المعاصرة" لمريشو .

الأمريكية بدل البنادق، حتى أربى عددهم لديه على ثمانية آلاف . وكان جل قصده أن يتكوّن لديه منهم العـدد المعين للجيش المصرى برمته . ولكنه، عقب نشوب الحرب بين روسيا والدولة العلية فى سنة ١٨٥٤ — وهى المعروفة بحرب القرم — واضطراره الى انجاد تركيا بالمدد المصرى المطلوب منها ، اضطر الى تجنيد جنود مصريين . فبالغ فى ذلك، حتى قال بعض المؤرخين، ومنهم إدون دى ليون، أن عدد جيشه، ما بين جند نظامى و باشبوزق وغيرهم، أربى، فى وقت من الأوقات، على مائة ألف . ولكن تلك الجنود لم يكن معتنى بأمر طعامهم؛ ولا كانت الوقايات الصحية متوفرة حولهم ؛ وكلا الأمرين زاد فى نفور الناس من الجندية[1] .

فلما آل الأمر الى (سعيد) — وكان مغرما بالعسكرية غرام الملك « الصول » البروسيانى بجيشه المهندم — بالغ أوّلا فى الاعتناء بأمر طعام الجند وحفظ صحتهم . فحسن مآكلهم ونوّعها ؛ ونظم المستشفيات العسكرية تنظيما أصبحت معـه الاقامة فيهـا طيبة، والمعالجة متقنة، والشفاء ميسورا ؛ ثم حسن الملبس أيضا — ولو أنه لم يكن رديئا فى عهد سلفه — وتفنن فيـه تفننا عجيبا ، متخذا لتفننه نبراسا تنوع الأزياء فى الجندية الفرنساوية . وبعد أن أوجد هـذه المحببات ، ألغى أمر الاقتراع ، وجعل التجنيد عاما و واجبا على كل شاب يبلغ السادسة عشرة من عمره بدون استثناء ، على أن تكون الخدمة العسكرية سنة واحدة لاغير . ولكيلا يكون لمشايخ البـلاد سبيل الى الجور والتعسف ، نزع منهم مسؤولية التجنيد ، وأوجد جدولا عاما للواليد فى عموم أنحاء القطر، لتكون الدعوة الى العسكرية فى حينها أمرا

(١) أنظر : "مصر المعاصرة" لمريثو، ص ٢٣ و ٢٤ ؛ وانظر : "مصر الخديوى" لادون دى ليون ص ٣٧٤

يتم من تلقاء ذاته . فضجت البلاد فى بادئ الأمر وتململت ، لظنها أن هذه إساءة جديدة تصاب بهـا . ولكنها انتهت الى الطاعة والامتثال ، بل الى الارتياح ، حينما رأت التجنيد يعمل بانتظام ، وبدون مظالم أو محاباة ؛ ورأت أن (سعيدا) ، إن احتمل بنفس متفكهة ثورة النسوة عليه بسبب قراره ، لم يسمح لأى كان من أعيان البلاد وسراتها بالفرار من نفاذ ذلك القرار فى أولاده وذويه . وأظهر من الشدّة والصرامة فى معاملة المخالفين ما ذهب بالرغبة فى المخالفة من صدور الجميع (1) .

غير أنه لم يكن فى الاستطاعة فى بادئ الأمر استخدام جدول المواليد والاعتماد عليه إلا بمساعدة مشايخ البلدان أنفسهم . فلشعور هؤلاء بأن الفرصة آخذة بالتملص من أيديهم ، انكبوا على اغتنامها والانتفاع منها جهد طاقتهم ، لا سيما أن رؤساءهم الأشد بهم التصاقا متأثرون بشعورهم ذاته ، وراغبون أشدّ الرغبة فى أن يصيبوا نصيب الأسد فى اقتسام أسلاب الفلاحين البائسين .

فأدّى ذلك ، مع تقلب أهواء (سعيد) التقلب المشهور عنه ، لا سيما فى أواخر أيامه ، وتشتت قوى ذهنه عن دائرة الاهتمام بأى أمر كان يشرع فيـه ، الى هبوط عدد جنديته الى ٧٥٠٠ عسكرى ، وصيرورتها جندية مظهر أكثر منها جندية عمل .

نادرة لسعيد

ولا أدل على تقلب هوى (سعيد) وتشتت قوى ذهنه من واقعة قصها علىّ ابن أحد الرجال الأكثر التصاقا به لأنه كان مربى (طوسون) ابنه ، قال : « كان (سعيد) ذات يوم بمصر . فأرسل الى أبى وهو بالاسكندرية يستدعيه اليه مع ابنه الأمير (طوسون) ليكونا بمعيته . فقام أبى مع الأمير الصبى ، وتوجه الى مصر ، وصعد الى

(1) أنظر : "مصر المعاصرة" لمريثو من ص ٢٤ الى ٢٨

القلعة، وأبلغ سمو الوالى أنه صدع بأمره، وأصبح تحت تصرفه . فلم يجبه (سعيد) بشئ، ولم يستدعه، ولا استدعى (طوسون) . ثم عاد هو نفسه بعد ثلاثة أيام الى الاسكندرية دون أن يرى ابنه أو يأمر أبى بشئ . فاحتار والدى فيما يصنع، وبعد أن بقى فى القلعة عدة أيام فى انتظار عودة سمو الوالى ، ورأى أن الانتظار لا يجدى نفعا، رجع هو أيضا الى الاسكندرية بالصبى الأمير، وعاد الى ما كان عليه. ولم يدر أحد ماذا كان سبب استدعائهما الى مصر»[1] .

المدارس العسكرية

فأعاد (اسماعيل) الجندية الى عددها ونظامها فى أيام (ابراهيم) الهمام أبيه[2] ورأى أن يقتدى بجده فى إنشاء مدارس خاصة بها وعلى أنواعها . فأسس فى العباسية مدرسة للبيادة أقام فيها خمسمائة طالب، ومدرسة للخيالة أقام فيها مائة طالب، ومدرسة للمدفعية أقام فيها مائة طالب أيضا، ومدرسة هندسة عسكرية جعل فيها أربعين طالبا. وعهد بادارة هذه المدارس الى الماجور سليمان بك، وكان قد تخرج من مدارس باريس ومتز العسكرية . وأنشأ مدرسة لأولاد رجال كل فرقة من فرق جيشه ، يتعلمون فيها من سنّ ست الى سنّ تسع عشرة ما يحسن أن يتعلمه أمثالهم. ولم يكتف بذلك، بل أسس مدرسة لكل أورطة من أورطه لتعليم رجالها القراءة والكتابة . وأنشأ فى القلعة مدرسة كبيرة للصف ضباط أقام فيها نيفا وخمسمائة متعلم، وذلك زيادة على المدرسة التى أنشأها فى القلعة لأولاد حرسها وأمّها ثمانمائة منهم .

(١) رواها لى حضرة صديق الفاضل عبد الحليم بك عارف نجل المرحوم حسين باشا عارف المعروف باللالا بالاسكندرية .

(٢) أهم مرجع فيما يأتى عن إصلاح الجندية كتاب "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى . (الفصل العاشر، والفصل الحادى عشر) .

وما فتئ يزيد عدد جنوده ، بالتدريج ، بين مصريين وسود ، حتى استكمل منهم ثمانية عشر آلايا بياده ؛ منها آلايان سودانيان ، فى كل آلاى ثلاثة طوابير ، وأربعة طوابير بندقيين موزعة لى الآلايات ؛ وأربعة آلايات مسلحة بالرمح والقرابين ، فى كل آلاى ستة كراديس ؛ وأربعة آلايات مدفعيـة ، فى كل آلاى ست بطاريات : بطاريتان راكبتان ، وأربع بطاريات بيـادة ؛ وثلاثة آلايات حاميات مدفعية ؛ وثلاثة طوابير عمال عسكريين . فبلغت قوة الجيش العامل المتدرّب — اذا جمعت — ستين ألفا ؛ وبلغ الاحتياطى ثلاثين ألفا ؛ وغير النظامى ستين ألفا ؛ وسلحت البيادة ببنادق ريمنجتن ، بعد بنادق شاشپو ، وحفظ منها ما أناف على ٢٠٠ ألف بندقية احتياطيا . أما المدفعية فسلحت بمائة مدفع من مدافع كروپ ، وخمسين مدفعا خفيفا من معامل أرمسترونج ؛ وسلحت الحاميات بمدافع وهرندرف بوصة ١٠ و ٨ ، و ٣٠٠ مدفع خفيف . وأنشئت بالقرب من مصر معامل للبارود والخرطوش . فبلغ من كثرة الذخيرة المصنوعة فيها والمستوردة من الخارج أن (اسماعيل) أرسـل جانبا منها الى الأستانة ، تبرعا منه ومكرمة .

وجعلت مهمة الجيش فى بادئ الأمر ، زيادة على المحافظة على الأمن العام ، حفظ الحدود من إغارات العربان والحبشان عليها ؛ ثم استعملوه فى الفتوحات والاستكشافات والحروب ، التى سيأتى بيانها .

رأى أيضـا أن يقتدى بجده العظيم فى الاسـتعانة بضباط غربيين على تدريب جنوده التدريب العسكرى العصرى المطلوب . ولكنه — لكيلا تتخذ الدول الأوروبية من ضباطهن الذين قـد ينتدبون لتلك المهمة وجها لإيجاد نفوذ لهن على البـلاد ، أو تنشأ منافسات بينهن اذا فضلت فى الطلب إحداهن على الأخرى — عهد بتلك

المهمة السامية الى ضباط أمريكيين من الذين اشتهروا فى الحرب الأهلية . فوقع اختياره فى الأول على ضابط يقال له «مط» كان قد حضر الى القطر لأشغال خاصة به ؛ فانخدع (اسماعيل) فيه وظنه كفأ للمهمة ؛ فكلفه باحضار ضباط بمعرفته ليقوموا معه بها ؛ ولكنه مالبث أن تحقق قلة جدارته . فصرفه وأحضر الجنرال ستون مكانه[1] .

الأمريكان فى الجيش

فجاء هذا بالجنرال لورنج ، والكرنيل داى ، والميچو لنج ، والكرنل جريفر ، والضباط كلستن ، وريد ، وپراوت ، والكرنلين پردى وميش ، والميجر د'نيش وغيرهم ، وبزمرة مختارة من أفاضل الرجال ، منهم الميكانيكيون والمهندسون الحربيون والچيولوچيون كمتشل ، والجغرافيون : كلوكت ، وفيلد ، وغيرهما . وانكب الجميع على عملهم بهمة شماء وقلوب مخلصة . وكان نظام الجيش وتدريبه وتعليمه على الطريقة الفرنساوية فى بادئ الأمر . ولكن بعد انكسار فرنسا فى سنة ٧٠ وظهور تفوّق التعليم الألمانى ، أحل هذا محل ذاك ؛ وأخذ الاعتناء بالمدفعية يزيد على الاعتناء بغيرها ؛ فأصبح ضباطها أكفأ من ضباط البيادة والخيالة ، ولو أنهم جميعا كانوا بيضا من المصريين والأتراك والشراكسة ، حتى ضباط الأورط السودانية .

تفوّق المصريين على الشراكسة والأتراك

على أن المصريين الصميمين كانوا أيضا أكفأ من الشراكسة والأتراك ؛ وذلك لأن هؤلاء — وجميعهم من أولاد البكوات والباشوات ، الشاغلين مناصب الحكومة الرفيعة ، وأصحاب السرايات الفخمة ، الغاصة بالجوارى والسرارى والعبيد — كانوا أولاد بيئة أصلية غير صالحة لجعلهم جنودا ذوى طباع عسكرية صحيحة لأن أول خطواتهم فى الحياة كانت داخل دور الحريم . ولما يشبون ويترعرعون ، لم يكونوا

(١) أنظر : "مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون ص ١١٥

يقدمون ولا يجبرون على الإقدام على أى تمرين عضلىّ . فما كان عند بعضهم من قوة فى العضلات إنما كان هبة محضة من لدن الطبيعة . و بما أن معظمهم ، بحكم بيئتهم ، كانوا شديدى الميل الى الباه ، فان ذات الأقو ياء منهم كانوا لا يلبثون بعد حين حتى ينهزلوا و يضعفوا .

نعم إن أهلهم كانوا يرسلونهم منـذ تجاوزهم سنّ الصبوة الى المدارس الاعدادية ليمكثوا فيها عدّة سنوات متتالية ؛ ولكنهم ، بسبب الترف المحيط بهم ، وتدليل أهلهم لهم ، قلما كانوا يمتازون على أقرانهم من أولاد الفلاحين والحضريين المصريين بسوى المصروف الكبير والبلادة العظمى . فكانوا ينقلون والحالة هذه الى المدارس العسكرية عملا بمبدأ تحويل التلامذة البلداء اليها . فيتخرّجون منها بعد ٤ أو ٥ سنوات ضباطا عجرفتهم وخيلاؤهم كبيرتان ، على قدر رفعة مولدهم ونبل أحسابهم ؛ ومعلوماتهم قليلة ، وآدابهم لا تدانى الرفعة ولا عن بعد ؛ بخلاف أولاد الفلاحين والحضريين المصريين ؛ فانهم ، لشظف العيش الذى اعتادوه ، واعتاده أجدادهم قبلهم ، كانوا أقو ياء البنية ، قنوعى المعيشـة ، بعيدين ، بسبب ضيق ذات أيديهم ، عن مسببات الأسقام والضعف ؛ وكانوا يمتاز ون فى المدارس عادة على أقرانهم أولاد الأغنياء بالذكاء والنباهة والاجتهاد . ولكن ذلك لم يكن يجديهم نفعا ؛ لأن ذات الداخلين منهـم المدارس العسكرية مباشرة كانوا ، بسبب مواهبهم هذه عينها ، يبقون فى دور التعليم سنة زيادة على أقرانهم البلداء . ثم يدخلون الجيش بعد تلك السنة الاضافية فى الوظيفة عينها المعطاة الى زملائهم البلداء قبل سنة . نعم ان الحكومة فى السنة الاضافية التى كانوا يمكثونها فى المدارس أكثر من زملائهم البلداء كانت فى الأول تمنحهم المرتب المربوط لهؤلاء فى الجيش ، ولكنها قطعته عنهم فيمابعد ، وميزت بذلك الأغنياء على المجتهدين المتنورين .

فأصبح أولئك، لهذا ولميزاتهم البلادية الأخرى، يعتقدون أنفسهم من طينة أرقى من طينة زملائهم أولاد المصريين الصميمين؛ ولم يكن يرجى تقويم معوجهم، وهم فى وظائفهم :

(أولا) لأنه اذا سهل إصلاح ناقص يعرف أنه ناقص، فمن المتعذر كلية إصلاح ناقص يرى نفسه كاملا .

(ثانيا) لأن آمالهم فى الترقى والتقدم لم تكن مبنية على رقيهم فى المعارف والمعلومات، وتقدمهم فى معارج الكمال والكفاءة، بل على حكايات وقصص، تروى لهم عن أبطال وقائعها المدهشة أنهم مدينون بتقدمهم الى مجرد الحظ والسعد والمقدور . فكانت حياة آمالهم، والحالة هذه، مفسدة فى الحقيقة لاجتهادهم وجهودهم .

فكانوا، إذا، يعاملون العساكر الموضوعين تحت إمرتهم معاملة السيد للخدم والعبيد؛ ويعاملون زملاءهم المصريين معاملة يشتم منها رائحة الغطرسة والاحتقار، تحت كساء الأدب المتشامخ .

أما الصف ضباط فكانوا كلهم أو جلهم مصريين، ويعاملون جنودهم كما يعامل الاخوان إخوانهم[1] .

تأسيس مدرسة أركان حرب

وأشار ستون باشا على (اسماعيل)، بحمله على تأسيس مدرسة أركان حرب، أقام فيها عشرين طالبا .

وكانت هيئة أركان الحرب بعد انسحاب بلانا Planat باشا الفرنساوى اسما على غير مسمى . وذلك لأن ميول الباشوات، قواد فرق الجنود الأرفعين، لم تكن تقبل

(١) أنظر : "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى من ص ٦٣ الى ٦٦

أن يكون لوظائف تلك الهيئة العسكرية السامية من وجود فعلى لاعتقادهم بأنه يجب أن يكونوا الكل فى الكل، و إباءهم أن يقاسمهم أحد سلطتهم .

فأراد ستون باشا أن يغير هذه الحالة ، ويجعل الاتصال بين الجيش وهيئة أركان حربه متينا فعالا . فبـذل فى ذلك جهده، ولكنه لم يتمكن من بلوغ أربه، بالرغم من أن ثقة الخديو به بلغت بسموّه أنه لنقص وجده ذات يوم فى مصلحة التلغرافات هدّد رجالها بوضعهم تحت إدارة الحربية، أى تحت إدارة ستون باشا[1] .

الانفصال بين الجيش وأركان الحرب

فلم تستمرّ قيادة الجيش منفصلة عن رياسـة أركان الحرب فقط، بل إن قسم المهمات عينه، تحت رياسة أفلاطون باشا، بقى منفصلا عنها، وما هو أدهى، بقى منفصلا عن قيادة الجيش ذاتها . فأدى الانفصالان الى ضعف فى نظام القوة العسكرية المصرية، ظهر جليا بنوع خاص فى الحملة على الحبشة .

النفور بين رجال الهيئتين

وليت الأمر اقتصر على مجرّد الانفصال، ولكنه تعدّاه الى قيام كراهة ونمو شعور امتهان فى نفوس ضباط الجيش وقوّاده لضباط هيئة أركان الحرب ، وذلك بسبب تبعية هؤلاء الضباط لرؤسائهم الغربيين الذين كان الشراكسـة والأتراك يكرهونهم : (أوّلا) لكونهم أجانب جنسا ودينا؛ (ثانيـا) لأنه لم يكن يمكن إجراء الاصـلاح الذى جىء بأولئك الغربيين من أجله إلا اذا علت كلمتهم على كلمة العناصر الشرقية، وفاق نفوذهم على نفوذها .

غير أن الجنرال ستون والزمرة التى أحضرها معه تمكنا، بالرغم من ذلك جميعه، من القيام بأعمال خطيرة فى المضمار الذى استدعيا للعمل فيه، وفى مضمار الرحلات العلمية والاستكشافات الجغرافية والابحاث الجيولوجية التى تألق بها سنا ملك (اسماعيل) .

(١) أنظر : "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" ص ٧٠ وما يليها .

تعزيز الطوابي

أما فى المضمار العسكرى فان جميع الطوابى القائمة على سواحل البحر الأبيض المتوسط من خليج السلوم الى العجمى ومن العجمى الى أبى قير ورشيد ودمياط، وطابيتى الناضورة والديماس بالاسكندرية، رممت وحصنت؛ وأوجدت مطبعة وليتوغرافيا تامتان، كاملتا الأدوات فى وزارة الحربية؛ ونشط تعليم الجنود والضباط تنشيطا عجيبا؛ فبرع المتعلمون على الأخص فى الرسم الخطى والتوبوغرافى والخرطى براعة أدّت بالجنرال (ستون) الى الاعتراف بان استعداد المصرى فى هذا الفن وفى الرياضيات على العموم يفوق متوسط الاستعداد الغربى؛ وأصبح معظم الضباط، لا سيما ضباط هيئة أركان الحرب، وضباط النشأة الجديدة، يتكلمون الانجليزية علاوة على الفرنساوية. أما الجنود فعلموا الاشتغال فى صنع ملابس وأحذية وخلافها لأنفسهم. ثم عدّلت مدّة الخدمة العسكرية فجعلت قصيرة، وتقرّر تسريح نصف القوة بعد تمرينها، والاتيان بغيرها مكانها، على الطريقة البروسية بعد واقعة يينا سنة ١٨٠٦، لكى يكثر عدد المتمرّنين فى البلاد، ويكونوا تحت طلب الحكومة اذا ما دعت الى حشدهم الطوارئ. لهذا الغرض جعلت هيئات الجيش بحيث تسع ثمانين ألف عسكرى يحشدون فى ظرف شهرين.

على أنه لم ينجم عن هذا جميعه ولا عن التحسين المستمر الذى بات الخطة المتبعة ولا عن الطريقة التى سير عليها فى ترقية الضباط بالامتحان إصلاح تام بمعنى الكلمة كله؛ لأن انفصال هيئة أركان الحرب عن الجيش انفصالا كليا حال دون تمكن الأمريكيين من تنظيم ذلك الجيش تنظيما صحيحا، ودون اتخاذ كتائب وفرق من الآلايات طبقا للتبع فى الجيوش الغربيه.

هذا ما كان من أمر إصلاح الجندية.

إصلاح البحرية

أما البحرية، فانها بعد كارثة ناڤارين التى ذهبت بعمارة (محمد على) لم تعد الى بجدتها القـديمة أبدا . وبالرغم من أن الباشا العظيم أعاد على يدى سيريزى بك المهنـدس البحرى الفرنساوى الشهير جانبـا كبيرا منها الى الوجود لشعوره بالاحتياج اليهـا فى حروبه مع الدولة العثمانية — والكل يعرف أن (ابراهيم) الهمام توجه بحرا مع جميع أركان حربه الى يافا ليقابل فيها جيشه الزاحف الى سوريا عن طريق العريش، وأن معظم المدفعية المصرية التى دكت أسوار عكاء دكا نقلت على ظهور السفن الحربية وبالرغم من أن (محمد سعيد) تربى تربية بحرية، لتعلق فكر والده العظيم باعادة بحريته الى أحسن ممـا كانت عليــه أيام بهجتها وعزها القديمين بعامل اقتناعه بحقيقة قول تميستكل، البطل اللاتينى القديم من أن «البر لمن ملك البحر» فان البحرية المصرية إما لأنها كانت بنت العجلة التى لم تدع مجالا ووقتا كافيا لجفاف الأخشاب المستعملة فى بنائها، فباتت تلك الأخشاب عرضة للتسوس بسهولة، بفعل المياه والرطوبة، وإما لأن معالم عمارات الدول المتمدينة جمعاء تغيرت بعامل البخار، مذ حل فى الملاحة محل القلوع، دون أن تتغير معالمها هى، ما فتئت آخذة فى الانحطاط، وذاهبة الى البوار رويدا، رويدا، حتى كادت تبيت فى خبر كان، فى أواخر أيام (سعيد) . ولولا أن هـذا الوالى أنشأ أسطولا بخاريا نيليا ليكون دوما تحت طلبه اذا ما احتاج الى نقل جنوده البرية عليــه من جهة الى أخرى بسرعة فى البقاع التى لا سكة حديدية فيها، لصح القول انه ترك البحرية المصرية نخلفه أثرا بعد عين .

فتناول (اسماعيل) باهتمامه الفائق الأسطول الخشبى، غير المدرّع، المخلف عن جدّه، وأقبل يصلح مختله ويجدّد معدّاته ويحسن معالمه حتى جعله سلاحا يعتد به وعدّة يهاب مفعولها .

ثم شرع ينشئ جوارى أخرى طبقا لمقتضيات الأيام . فعمر فرقاطتين — إحداهما "اللطيف" صاحبة حادثة الشحط فى قناة السويس قبل افتتاحها ، والتى احترقت فيما بعد وهى فى البحر على بعد ٦٠ ميلا من السويس — وكورفتتين وسلوبين وأربع مدفعيات ، وعشر بريديات ، وثلاثة يختات ، ومائة وخمسة عشر مركبا شاطئيا .

وأوصى ، كما سبق القول ، معامل طولون على بناء ثلاث فرقاطات مدرّعة ، مقدّمة لا بتناء غيرها ، اذا آنس عن بنائها سكوتا ؛ ولكنه ما رأى — بعد حادثته مع تركيا ، بسببها ، أن تقوية عمارته قد تدخله فى مشاكل كان فى غنى عنها ، لنفاذ مشاريعه و بلوغه مراميه ، وقد لا يجد تعضيدا من دول الغرب فى حلها لمصلحته وطبقا لرغائبه — إلا وحوّل بحريته كلها من حربية الى تجارية . فضمها الى الباقى من الشركة "العزيزية" وأنشأ من كلتيهما البحرية الخديوية التى أخذت تسير مراكبها على البحرين الأبيض والأحمر ، وعلى النيل فى فصل الشتاء . فأنشأت خدمة أسبوعية بين الاسكندرية والأستانة خصت بها عشرا من سفنها ؛ وخدمة خمسة عشر يومية بين السويس وأقصى الممتلكات المصرية فى شرق أفريقيا ، على المحيط الهندى ، خصت بها عشر سفن أخرى ؛ وخدمة ثالثة ، خمسة عشر يومية أيضا ، من شهر نوفمبر لغاية شهر مارس على النيل بين القاهرة وأسوان . وبسبب عدم وجود عدد كاف من المصريين الخبيرين فى الفنون البحرية استخدم فيها عدد كبير من الأجانب . فكان معظم الربانين وكل رؤساء الدفة منهم ، كما أن جميع المهندسين كانوا من الانجليز .

فلما جعل (اسماعيل) إصلاح جنديته وبحريته فى مأمن من الطوارئ ، وأوجد عنده الاختيار زمرة من الرجال الأفاضل الذين يركن اليهم فى المهمات العلمية الشائقة ،

أقبل ينفذ أغراضه التوسيعية الرافعة ؛ ودخل بقدم ثابتة فى سبيل تحقيق الشطر الثالث من خطته .

احتلال فاشودة

ففى سنة ١٨٦٥ احتلت عساكره المصرية فاشودة، احتلالا رسميا، فسدّت بذلك طريق النيل الأبيض فى وجه أصحاب الزرائب فى بحر الغزال وخط الاستواء .

وأصحاب الزرائب تجار — منهم كثيرون أوروبيون — كانوا يذهبون بعصابات مأجورة منهم الى بلاد (السود)، فيحفرون خنادق يضعون داخلها بضائعهم وأسلحتهم ورجالهم، ويحيطونها بزرائب من شوك، ثم يشرعون فى جمع السنّ والريش، مقايضة بالخرز والحراب والأساور وغيرها من الأشياء المرغوب فيها فى تلك الجهات، ويخزنون ما يجمعونه فى زرائبهم ، ويبقون على ذلك الى أن يلقوا فرصة فى البلاد ، فيهاجمون أهلها ببنادقهم . فما يسمع السود صوتها إلا ويفرّون كالأنعام، مملوئين رعبا وخوفا . فيغنم التجار ويسبون و يعودون الى زرائبهم .

وكان التجار الأوروبيون قد باعوا زرائبهم الى وكلائهم العرب منذ سنة ١٨٦٠ فوضع جعفر باشا صادق ، حاكم السودان السابق ذكره ، الضرائب على الزرائب . ثم احتكرها من الحكومة السيد أحمد العقاد، شريك السيد موسى العقاد — وكلاهما من أشهر أصحابها — بخمسة آلاف جنيه فى السنة، على أن لا يتجر بالرقيق ولا يغزو بلاد العبيد. ولكنه لم يف بوعده وتعهده؛ وما زال رجاله يتجرون بالرقيق، ويغزون العبيد، حتى أصبحت بلاد خط الاستواء و بحر الغزال فوضى، وأهلها فى غاية الضيق والشدّة.

فرأى (اسماعيل) أنه لا يمكن إصلاح الحال، وإبطال تجارة الرقيق، معا، إلا اذا ضم بلاد بحر الغزال وخط الاستواء الى أملاكه السودانية . فعوّل على ذلك و بادر الى تنفيذه .

مهمة السير بيكر

«وانتدب فى سنة ١٨٦٩ السير صموئيل بيكر باشا لتلك المهمة ؛ وكان قد ذهب الى السودان، فى أيام موسى باشا حمدى ، قاصـدا اكتشاف منابع النيل الأبيض على نفقته الخاصة ،والقيام بمفرده بالعمل الخطير الذى كانت الجمعية الجغرافية الانجليزية قد أرسلت الرحالتين سبيك وجرانت سـنة ١٨٥٨ لإتمامه عن طريق زنجبار ؛ فاكتشف الرجلان بحيرة ڤكتوريا نيانزا فى ٢٨ يوليه سنة ١٨٦٢ وسمياها على اسم ملكتهما . أما بيكر، فانه فضل الذهاب عن طريق الخرطوم ليستطرد الاكتشاف من جندوكورو بالبر — حيث كانت وصلت فى سنة ١٨٤١ آخر حملة أرسلها (محمد على) للوقوف على منابع النيل — وذلك على رجاء أن يلتقى بالرحالتين المذكورين ، فيكون نجدة لهما ، ويشاركهما فى فخار الاكتشاف . فخرج من الخرطوم فى ١٨ ديسمبر سنة ١٨٦٢ بمركبين كبيرين وذهبية، ومعه خمسة وأربعون رجلا مسلحون بالبنادق، وخمسون من الخدم والبحارة ، وتسعة وعشرون من الجمال والخيل والحمير، ومقدار كبير من الحبوب، وبضعة صناديق من أساور النحاس والخرز الملوّن، الرائجة هنالك بدل العملة؛ فوصل جندوكورو فى ٢ فبراير سنة ١٨٦٣ وحط رحاله، وأخذ يتأهب للسفر برا ، واذا بالرحالتين سبيك وجرانت قد أقبلا فى ١٥ منه؛ فأخبراه باكتشاف بحيرة ڤكتوريا ، وأنه لا يزال أمامه بحيرة أخرى ليكتشفها، أخبرهما الأهلون بها . وأعطياه خريطة سيرهما، وجميع ما علماه عنها، ثم استطردا السفر شمالا الى أوروبا، وسار بيكر جنوبا فى البر الشرقى بقصد اكتشاف تلك البحيرة . فأتى عليها فى ١٤ مارس سـنة ١٨٦٤ بعـد معاناة مشقات كبيرة وأخطار جمة ، لا سيما بسبب تجار الرقيق المنتشرين فى تلك البلاد، وقد أتاها أوّلا من الجنوب، ثم جال فيها بمراكب السود، فأتى شماليها ، ورأى مصب النيل الآتى من بحيرة ڤكتوريا ، ومخرج النيل الأبيض

الذاهب شمالا ، وسماها إدوارد نيانزا ، على اسم ولىّ عهد بريطانيا العظمى فى ذلك الحين ؛ ثم عاد الى جندوكورو ، وسار منها بذهبيته ومركبيه حتى وصل الخرطوم فى ٣ مايو سنة ١٨٦٥ فأقام فيها الى ٣٠ يونيه ، وخرج منها فى ذلك اليوم الى بربر، فسواكن، فبلاد الانجليز . فوصلها فى أكتوبر سنة ١٨٦٥» (١) .

وقد رأينا كيف قام هـذا بمأموريته ؛ وكانت بلاد خط الاستواء لا تزال مأجورة للسيد أحمد العقاد فى الخرطوم ، فألحق ببيكر صهره وابن أخته أبى السعود العقاد للنظر فى مصالح تجارته . ولكن الرجلين لم يتفقا معا ؛ واضطر بيكر الى رفع شكواه من أبى السعود الى المراجع العليا بمصر واتهامه إياه بمعاكسته والعمل فى الخفاء على تقوية دعائم النخاسة والاتجار بالرقيق . فأدّى ذلك بالحكومة الى استدعاء أبى السعود الى القاهرة ومحاكمته (٢) .

وقد رأينا أيضا أن (اسماعيل)، بعـد استعفاء بيكر باشا، عين الكرنيل جوردون مكانه ، ووعدنا بالتكلم عن أعمال هذا الرجل الطائر الصيت فى هذا الباب .

جوردن

«فالكرنيل جوردون ولد فى مدينة ولويتش ببلاد الانجليز سـنة ١٨٣٣ وانتظم فى سلك العسكرية سنة ١٨٥٢ وكان ميالا بالطبع الى لقاء الأهوال والصبر على المكاره ممـا اتصل اليـه بالإرث عن آبائه وأجداده المعروفين بالبسالة والبأس فى الحروب السكوتلاندية ؛ وحضر حصار سباستوبول سنة ١٨٥٥ فشهد له بالدربة والإقدام . وفى سنة ١٨٦٠ سافر الى الصين ، ودخل الجيش ، فواقع عدّة وقائع دلت على شجاعته

(١) أنظر : "تاريخ السودان" للرحوم نعوم بك شقير .

(٢) أنظر : "اسماعيلية" لبيكر باشا .

وتمام براعته فى الفنون العسكرية؛ فنال من امبراطور الصين لقب "سارى عسكر" .
وفى سنة ١٨٦٥ عاد الى الجيش الانجليزى ، فرقى فيه الى رتبة كرنيل[١] .

، ثم عين فى لجنة الطونة ، فتعرّف نو بار باشا به فى الأستانة ، وسأله عما اذا كان يعرف رجلا يريد أن يخلف السير صموئيل بيكر على رأس المهمة السودانية المعهود بها اليه ؛ فقدّم جوردون نفسه ، على أن تجيز له حكومته القبول . فخوبرت الحكومة البريطانية فى شأنه ؛ فأجازت له الخدمة تحت اللواء المصرى . فحضر الى القاهرة ، وما لبثت أخلاقه القويمة المستقيمة والحادّة معا أن اكتسبت له احترام الجميع وإجلالهم ، وكراهة البعض . وكان (اسماعيل) يجله جدّا ويقول : «إنى أشعر حينما أحادثه أنى أمام رجل حق ترغمنى رجولينه على احترامه[٢] » .

فسار جوردون من مصر، ومعه أبو السعود البادى ذكره الى الخرطوم ؛ فأخذ منها جنودا ، فى جملتهم ابراهيم افندى فوزى — الذى صار فيما بعد ابراهيم باشا فوزى ، المشهور بحوادث أسره عند الدراويش ، وبتاريخه الذى كتبه عن السودان المعاصر — وسار جنوبا ؛ وبعد وصوله جندوكورو بشهرين اكتشف ثلاث زرائب لتجار الرقيق على بحر الزراف ؛ فهـدمها ، وأعتق الأرقاء الذين وجدهم فيها . وما لبث أن وجد فى أبى السعود ذات الروح الخائنة التى كانت قد اتضحت لبيكر باشا ، فسجنه وأهانه ، ثم أقصاه عن حملته[٣] .

«وفى ١١ سبتمبر سـنة ١٨٧٤ جاءه خمسة وعشرون رئيسا من رؤساء السود ، وقدّموا له الطاعة ، وشكروه على مطاردته تجارة الرقيق فى بلادهم . وفى الشهر التالى

(١) أنظر : "تاريخ السودان" للرحوم نعوم بك شقير .
(٢) أنظر : "خديو يون و باشاوات" لمو برلى بل ص ٢٠
(٣) أنظر : "رسائل جوردون الى أخته" .

ضبط يوسف بك، مدير فاشودة، زمرة من النخاسين ومعهم ١٦٠٠ رقيق و ١٩٠ رأس بقر أتوا بها من بحر الزراف .

ورأى جوردون أن هواء جندوكورو غير صحى؛ فنقل مركز حكومته الى اللادو؛ وذلك فى ٢١ فبراير سنة ١٨٧٤ وامتدت حكومته من ملتقى نهر سوباط بالنيل الأبيض الى بحيرة ڤكتوريا نيانزا؛ وأهم ما اشتغل به تأسيس نقط عسكرية قوية على النيل لأجل حماية البلاد من تجار الرقيق، وحفظ النظام والأمن . فلم تنته سنة ١٨٧٤ حتى كان قد أسس عشر نقط على النيل الأبيض وجعل فيها ٦٤٠ من العساكر السودانية و ١٥٠ من العساكر المصرية و ٦٥٠ من الباشبوزق والدناقلة والجعليين؛ ثم أسس نقطة فى مرولى على نيل ڤكتوريا، ونظم فى جيشه عددا كبيرا من الأرقاء الذين حررهم من الزرائب .

وكان بيكر باشا قد أحضر باخرتين، قطعا، من مصر بقصد بنائهما وتنشيط الملاحة فى البحيرات؛ ولكن انقضت مدته ولم يتمكن من بنائهما . فلما تم لجوردون تأسيس النقط العسكرية، حمل قطع الباخرتين فى البر الى جنوب شلال الفولا، قرب الدفلاى، وبناهما هناك؛ وسمى الكبيرة منهما "الخديوى" والصغيرة "نيانزا"؛ فبقيتا بين الدفلاى وبحيرة ألبرت نيانزا الى قيام الثورة المهدية[1] .

وممن صحب جوردون الى خط الاستواء أو انضموا اليه بعد ذهابه الكرنيل لنج — وهو من الضباط الأمريكان فى الجيش المصرى؛ وقد قال (اسماعيل) فيه : « إنه عمل مع عسكريين فى أيام قلائل لمصلحة مصر أكثر مما فعل السر صموئيل بيكر بجيش

(١) أنظر : "تاريخ السودان" لنعوم بك شقير .

فى أربع سنوات، وبنفقة بلغت مليونى ريال ونصف مليون[1] » — والدكتور أمين المعروف بأمين باشا ، وچيسى ، والكرنيل براوت الأمريكانى ، وعبـد العزيز بك ابن لينان باشا الفرنساوى .

أمين باشا

أما الدكتور أمين ، فاسمه الأصلى إدوارد شنيتزر، وقد ولد فى ٢٨ مارس سنة ١٨٤٠ فى مدينة أوپلين ، من أعمال سيليزيا ، ببروسيا[2]، وتلقى العلوم فى ڤيينا وباريس، ونال شهادة دكتور فى الطب، ثم دخل خدمة الدولة العلية فى اسكودار، وبقى الى أن سمى جوردون حاكما على خط الاستواء، وكان الدكتور أمين يعرفه من الأستانة، فذهب الى الخرطوم ، واستأذنه فى السفر اليه ، فأذن له ، وحال وصوله منحه لقب "بك" وعينه حاكما على اللادو .

چيسى باشا

وأما چيسى ، فكان ضابطا ايطاليا ، شديد العارضة قوى الارادة ، رافق الجيش الانجليزى الى حرب القرم بصفة مترجم، ثم انضم الى جوردون فى خط الاستواء .

واستعان جوردون بأولئك الضباط على درس البلاد وتمهيدها وضمها الى الأملاك المصرية . فعند وصوله الى جندوكورو، أرسل الكرنيل لنج الى كباريقا ملك يونيورو لكشف خبره . فوجد أن جميع المتشردين من تجار الرقيق قد اجتمعوا اليه، ووجده على عصيانه، فلم ير الوقت ولا الظروف مناسبة لقتاله، فتركه وشأنه ، وذهب الى متاسى ، ملك أوغنده، فاذا به لا يزال على ولائه . فعاد بالخبر الى جوردون . فأرسل جوردون أمين بك الى ذلك الملك للمحافظة على مودّته ، وأرسل چيسى الى بلاد بحر الغزال لكشف خبرها، ولما عاد أرسله بمركبين الى بحيرة ألبرت نيانزا، لاستطلاع حالها،

(١) أنظر : "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى ص ٨٠ و ٨١

(٢) كتب قبل معاهدة فرسايل .

وحال القبائل المقيمة على سواحلها ، وذلك فى مارس سنة ١٨٧٦ ؛ فطاف چيسى البحيرة ، وقضى فى طوافه تسعة أيام ؛ فوجد طولها ١٤٠ ميلا وعرضها ٥٠ ميلا ؛ ووجد القبائل القاطنة حولها معادية للحكومة .

أما عبد العزيز ليينان بك ، فانه قتل فى ثورة أثارها السود على العساكر وهم ينقلون قطع الباخرتين المــارّ ذكرهما الى الدفلاى ؛ فأخذ جوردون بثأره . وترى تفاصيل ذلك مبينة بشرح واف فى الكتاب المعنون "جوردون فى السودان" — وهو مجموع رسائل وكتب بعث جوردون بها وهو فى تلك الأصقاع السحيقة الى أخته بانجلترا[1] .

وبقى جوردون مجـدا فى تنظيم البلاد وإصـلاح شؤونها بلا مساعدة مصر الى سنة ١٨٧٦ ، فاستعفى ، وعاد الى القاهرة ، ومنها الى بلاد الانجليز ، تاركا پراوت ، من أركان حربه ، وكيلا مكانه على خط الاستواء . ثم ذهب الكرنيل پراوت ؛ فناب عنه أمين بك . فبقى الى أيام الثورة المهدية ، ثم انقطعت أخباره .

وكان حاكما على السودان فى مدّة ولاية جوردون على خط الاستواء اسماعيل باشا أيوب . فجرت فى عهده حوادث جمة ذات بال ، أهمها فتح بحر الغزال وبلاد النمانم وسلطنة دارفور وضمها الى أملاك الحكومة المصرية على يد الزبير رحمت باشا .

الزبير رحمت باشا

والزبير هذا ولد فى جزيرة واوسى بالسودان ، من قبيلة الجميعاب المقيمة على النيل الكبير بين جبل قرى وجبل الشيخ الطيب فى ٨ يوليه سنة ١٨٣١ ؛ ودخل مكتبا فى الخرطوم . فتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن ، وتفقه على مذهب الامام مالك . ولمــا بلغ الخامسة والعشرين من عمره تزوّج بابنة عمّ له ، واشتغل بالتجارة ؛ ثم حدث

(١) وهو الذى ذكرناه باسم "رسائل جوردون الى أخته" .

بعد سنتين أن ابن عم له يدعى محمد عبد القادر دخل فى خدمة على أبى عمورى، من أهالى نجع حمادى ، ومن التجار الكبار الذين كانوا يتجرون فى جهات بحر الغزال ، وسافر معه خلسة؛ فأخذت الزبير الشفقة عليه لاعتقاده أن بلاد بحر الغزال كثيرة الأخطار بعيدة الشقة؛ فلحقه بقصد إرجاعه؛ فأدركه فى رحلة ودشلعى على النيل الأبيض، مسيرة يوم من الخرطوم؛ وأخذ يثبط عزمه عن السفر . فأقسم ابن عمه أن لا يعود الى الخرطوم قبل أن يتم سفرته؛ فشق ذلك على الزبير، وأقسم له بالطلاق انه ان لم يرجع عن عزمه سافر معه؛ فلم يزل ابن عمه مصرا على السفر . فسافر الزبير معه برا بقسمه، ودخل صحبته فى خدمة أبى عمورى . فسار بهما الرجل من ودشعلى فى ١٤ سبتمبر سنة ١٨٥٦ قاصدا بحر الغزال، والزبير يستعيذ بالله من ذلك السفر و يتوقع منه الشر والأخطار . فجاء بأحسن ما كان يتمنى، وكان السبب فى بلوغه مقاما لم ينله أحد فى السودان قبله ، ولا ناله بعده سوى (محمد أحمد المهدى) «وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم» .

فما زال الرجل سائرا بهما حتى حط رحاله فى زريبة على بن عامودى المعروفة باسم عاشور، على اسم شيخ البلد، حيث أقام الزبير مساعدا مخدومه على تجارته بضعة أشهر؛ ولكن أهل تلك البلاد ما لبثوا أن هاجوا على التجار ، طمعا فى أموالهم سنة ١٨٥٧ ؛ فجمعوا جموعهم من كل الجهات، وهاجموا الزرائب، فقتلوا بعض التجار وسلبوا أموالهم، وهاجموا كذلك زريبة أبا عمورى . فقام الزبير فى رأس رجاله ، وأشعل النار فى المهاجمين، وهزمهم شر هزيمة، بعد أن قتل منهم خلقا كثيرا .

فلما سمع التجار فى تلك الجهات بانتصاره عليهم جاءوه ، والتفوا حوله ، وأحبه أبو عمورى اذ رأى أن سلامته كانت على يديه، وجعل له قسما من أرباحه ؛ ولما

هدأت البلاد تركه فى محله وكيلا عنه، وسار الى الخرطوم . فغاب ستة أشهر، وعاد ببضائع جديدة؛ فوجد عند وكيله من المحصولات البلدية ما لم يكن يجمعه هو فى سنين؛ فزادت رغبته فيــه ، وعرض عليه الشركة بالنصف ، فأبى؛ وعزم على انشاء محل تجارى لنفسه .

وبهذا العزم رجع الى الخرطوم سنة ١٨٥٨ وكان قد جمع من تجارته مع أبى عمورى نحو ألف جنيه؛ فاشــترى بها بضائع وذهبيــة واكترى بعض الأنفار، على عادة التجار، وسلحهم بالبنادق، وسار بهم والبضائع فى الذهبية الى مشرع الريك، ومنها برا الى بلاد قولو؛ وكان عليها ملك يقال له كواكى، فرحب به وأكرم مثواه . فأخذ يتجر فى بلاده حتى اجتمع عنـده من سنّ الفيـل وريش النعام وغيرهما من خيرات البلاد شئ كثير . فأرسلها مع ابن عمه، محمد أحمد رحمت، الى الخرطوم؛ فباعها، وعاد اليه ببضائع البدل . فسافر بها فى سنة ١٨٥٩ الى بلاد النمانم الواقعة الى الجنوب الغربى من بلاد قولو؛ وكان عليها سـلطان يقال له السلطان تكمة . فقدّم له الزبير هدية فاخرة، واستأذنه فى الاتجار فى بلاده؛ فأذن له — وكانت كثيرة الجواميس والفيلة، ولا قيمة لسن الفيل فيها لكثرته؛ ولم يكن النمانم يعرفون الحمير ولا الجمال ولا الخيل . وكان مع الزبير حمار جميل؛ فأهداه الى السلطان؛ فاستغرب هيئته وظنه رجلا ممسوخا فلم يقبله . ولكنه احتسب للهدى نيته ، وكافأه عليها بترويجه أكبر بناته المدعوة (رانبوه) . فعلا مقامه بتلك المصاهرة فى عيون أهل البلاد ، وزادت تجارته رواجا وتحسينا ، واجتمع عنـده فى وقت قصـير شئ كثير من سن الفيل والخرتيت وغيرهما .

وفى شهر مارس سنة ١٨٦٢ استأذن السلطان تكمة فى العود الى الخرطوم، وسار بسلعه يقصد تلك العاصمة ، فمر بصاحبه أبى عمورى ، فوجده متأهبا للسفر بتجارته هو أيضا الى تلك الجهة . فاتفقا على الذهاب معا ، ولكنهما تخلصا من مشقة نقل البضائع بالبر، بنيا مركبين، ووسقا فيهما بضائعهما ورجالهما البالغ عددهم ٢١٤ نفرا، وسارا فى نهر نبقو ، أحد فروع بحر الغزال، الذى لم يسلكه أحد قبلهما . وهما يقصدان مشرع الريك . فما مخرا فيه ١٣ يوما بلياليها إلا واتسع مجرى النهر حتى صار أشبه ببحيرة واسعة منه بنهر، وخفى عليهما المجرى الأصلى ، فتاها برجالهما خمسة وسبعين يوما ، ثم وقع لهما ولمن معهما من الحوادث الغريبة والعجيبة معا ما هو أشبه بروايات السندباد البحرى البغدادى منها بوقائع حقيقية . وأخيرا أتيا مشرع الريك فى ١٩ يوليه سنة ١٨٦٣ وأقلعا بالمراكب منها الى الخرطوم فدخلاها بمن بقى من رجالهما، وعددهم ستة، فى ١١ سبتمبر سنة ١٨٦٣ (١)

فلبث الزبير فيها بضعة أشهر ريثما باع تجارته واشترى بثمنها تجارة أخرى وأسلحة وذخائر. وفى ٢٩ أبريل سنة ١٨٦٣ برح الخرطوم الى بلاد النمانم، فوصلها فى ٢٥ يوليه سنة ١٨٦٤ ، وقدّم هدايا نفيسة للملك تكمة ، فسرّ بها ، وأولم له وليمة فاخرة، ذبح فيها عددا وافرا من الوحوش ومائة كلب من أسمن الكلاب المعدّة لأكله .

فعاد الزبير الى دار زوجته رانبوه، وشرع فى بيع بضائعه . وكانت العادة فى تلك البلاد أن يبيعوا فى الأسواق أصحاب الجنايات : كالسارق والزانى، ويذبحونهم كالغنم، ويبيعون لحومهم طعاما . فافتدى منهم من وجده أهلا لحمل السلاح، حتى اجتمع عنده نحو خمسمائة رجل . فسلحهم بالأسلحة النارية، وعلمهم حملها واستعمالها . فأوجس

(١) أنظر : "تاريخ السودان" للرحوم نعوم بك شقير .

الملك تكمة شرا ، وخاف منه على مملكته ، واستشار كهانه ، فأقروا على قتله . فعلمت بذلك امرأته رانبوه ، ابنة الملك ، وأخبرته به سرا ، ونصحته بالرحيل من بلاد أبيها .

فاهتم بالأمر وتزلف الى الملك تكمة بالهدايا ، واستأذنه فى السـفر الى بلاد ملك يقال له دوبه بلغــه أن فيها سنّ فيل بكثرة ؛ فأذن له ظاهرا ، وأوعز فى السر الى جيشــه أن يكمنوا له فى الطريق ويقتلوه هو ورجاله . فما ابتعد قليلا عن بلاده إلا واعترضه جنوده الذين كانوا فى الكمين ، فأصلاهم نارا حامية لم يطيقوها . فانهزموا ودخل الزبير بلاد الملك دوبه ، وكان عدوا لملك النمانم . فلما علم بمـا جرى ، خرج لمقابلته فى مسيرة أربع ساعات من عاصمته ، وأنزله فى جواره على الرحب والسعة ، وبنى له خصا مربعا منيعا من الخشب ، وأمدّه من الحبوب والمؤونة بمـا يكفى رجاله مدّة طويلة .

فأرسل الملك تكمة جيشا جرارا بقيادة عمــه مغبوه الى بلاد الملك دوبه ، اهتزت له البلاد فى أبعد أعماقها ، واستولى الرعب على الملك وقومه ، ففروا هاربين خلسة تحت جناح الظلام .

فلما رأى الزبير منهم ذلك ، أخذ ينظر فى أمر نجاته ، واذا برسل من لدن الملك تكمة وردوا عليــه وقالوا له : « إن حرمة المصاهرة وسابق المودّة تمنعان الملك من محاربتك ، ولكنه يرغب اليك أن تخرج من جميع بلاد الملك دوبه التى أصبحت تحت سلطانه ، وتذهب الى حيث تشاء ولك الأمان » . فأجابهم الى ذلك وخرج الى بلاد قولو ؛ وكان ملكها قد غدر بأخيه منصور وقتله ؛ فلم يشك بأن الزبير قادم للأخذ بثأره ؛ فلم يسمح له بالبقاء وتهدّده ؛ وكان الفصل شتاء . فطلب الزبير اليه أن يمهله الى أن ينقطع المطر ، فأبى . فناجزه الحرب ، وجرت بينهـما عدّة وقائع

دموية انتهت بقتل الملك وأخذ ابنه أسيرا ، وامتلاك الزبير بلادهما ، وجميع البلاد المجاورة لها الى بحر العرب . فاتخذ عاصمة (بابه) التى سميت بعد ذلك « بديم الزبير » مركزا له ؛ وصار فيها ملكا ، تتقاطر اليه الناس من كل الجهات للانتظام فى خدمته . وكان أول ما سعى اليه فتح طريق التجارة بين بحر الغزال وكردوفان . فأوفد فى مارس سنة ١٨٦٦ رسلا بهدايا الى مشايخ عربان الزريقات الواقعين فى طريق التجار . فجاءه ثمانون شيخا منهم ، وعاهدوه على فتح الطريق ، وتأمين القوافل والتجار من مسلمين ومسيحيين . فجعل لهم مقابل ذلك جعلا معلوما يتقاضونه من التجار . فكثر زود الناس وراجت التجارة لقرب تلك الطريق وسهولتها . وفى سنة ١٨٦٩ قدم من الخرطوم رجل من متخلفى حجاج العرب يقال له الحاج محمد البلالى يقصد احتلال بحر الغزال ، ومعه سرية مؤلفة من ٢٠٠ من العساكر المنظمة السودانية ، عليهم صاغ اسمه محمد منيب ، و ٤٠٠ من العساكر الباشبوزق ، عليهم سنجق يدعى كوشوك على ، و ٦٠٠ من الخطرية . فطاف بلاد بحر الغزال ، ودخل زرائبها ، وقرأ لأصحابها فرمان الحكومة بتسميته مديرا على بحر الغزال ؛ فمنهم من أطاع وسلم ؛ ومنهم من عصى فحارب أو فر .

ثم وجه حملته على الزبير . فجمع الزبير جيوشه ، ومن لجأ اليه من أصحاب الزرائب المجاورة له . وكمن للبلالى فى خور على الطريق . فلما اقترب من الكمين أشعل النار فى جيشه ؛ فقتله وقتل بعض عسكره وأسر الباقى . ولكنه أصيب فى ذلك اليوم برصاصة فى كراعه الأيمن ؛ ورجع محمولا الى مركزه . فبعث بخبر ما كان الى جعفر مظهر باشا ، حاكم السودان إذ ذاك ؛ وانتشر خبر انتصاره على البلالى فى أقاصى السودان ؛ فزادت شهرته وازداد نفوذه .

فلم يرق انتظام ملكه للسلطان تكمة . فأرسل فى أوائل سنة ١٨٧٢ عمه (مغبوه) بجيش جرار لمناصبته العـداء . فأغار على مملكته ؛ وبعث يقول له إنه لا يسمح بتأسيس ملك فى جواره؛ فإما أن يعود تاجرا كما كان، وإلا أعاده بالقوة الى تجارته . فوقعت الحرب بينهما ودامت سنة كاملة ؛ جرت فيها عدّة وقائع شديدة؛ وفى آخرها قتل السلطان تكمة وعمه مغبوه ؛ ودان للزبير ثمانية من كبار ملوك النمانم كانوا فى حروب مستمرّة بعضهم ضدّ بعض، يصيد فيها بعضهم البعض صيد الطيور؛ وجاءته الأقوام من مسافات بعيدة، مقدّمين الطاعة، وطالبين عمالا من قبله ؛ فأجابهم الى ذلك

وكانت الرزيقات ، فى أثناء حربه مع النمـانم ، قد نقضوا العهد وقطعوا الطرق وقتلوا بعض التجار . فلما انقضت الحرب أنفذ اليهم رسلا يسألهم عن سبب ذلك . فأجابوا بالشتم والسباب، وأقسموا أن لا يدعوا مسافرا يمرّ اليـه عن طريق بلادهم إلا قتلوه وسلبوه ماله .

وكان على دارفور إذ ذاك سلطان يقال له ابراهيم . فأرسل الزبير اليه كتابا فى يونيه سنة ١٨٧٣ أخبره بما أتاه الرزيقات من نكث العهد، وقطع السابلة ؛ والتمس مساعدته عليهم . فلم يجبه السلطان على كتابه، ولا انتهى الرزيقات عن التعدّى . فساق الزبير جيشه الى بلادهم ليحاربهم . فتجمعوا لقتاله . فجرت بينـه وبينهم عدّة وقائع من ١٠ يوليه الى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٣ وكان النصر فيها كلها له ؛ وفى الأخيرة منها انهزم الرزيقات شرانهزام وقتل منهم خلق كثير؛ وأصبحت بلاد "شكا" كلها فى يده .

عبد الله التعايشى

وكان الرزيقات قد استخدموا فقيها من فقهاء التعايشة يقال له عبد الله محمد آدم تورشين، ليقرأ لهم الأسماء فى خلوته، لعلها تقبض على سلاح الزبير، فلا تنطلق ناره فى ساحة الحرب؛ وتعهدوا له ببقرة من كل مراح .

كيف يذهب هنا الفكر الى ما يرويه الرومان الكاثوليك عن سقوط السلاح من أيدى جنود نابليون الأول فى حرب روسيا سنة ١٨١٢ انتقاما من الله لتعذيه على البابا بيوس السابع !

فوقع (عبد الله) أسيرا فى يد المنتصر فى حلة السروج ، بين شكا وداره . فأمر الزبير بقتله . فقال له اثنا عشر عالما كانوا بمعيته ، مهمتهم تنبيهه الى معوج يرونه فى أحكامه : « إن الشرع لا يسمح بقتل أسير الحرب المسلم ؛ والسياسة تنكر قتل رجل يعتقد الناس صلاحه ، لأن قتله ينفر القبائل من القاتل » . فامتنع الزبير عن قتله ؛ ولكنه ندم فيما بعد على امتناعه ، لأن عبد الله ذاك عاش ليكون من أعظم البلايا على السودان . فانه أصبح عبد الله التعايشى ، خليفة المهدى المشهور ، وصاحب الفظائع والأهوال التى لا تزال المخيلة ترتعد لمجرد ذكرها .

ولما دخل الزبير بلاد الرزيقات ، فر اثنان من مشايخ هؤلاء العربان ، ولجآ الى السلطان ابراهيم فى الفاشر . فبعث اليه الزبير بكتاب فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٣ يسأله تسليمهما اليه ، ويحذره من استماع أقوالهما لئلا يقع فى حرب مع «الدولة المصرية ، ذات السطوة الغالبة ، والمدد غير المنقطع » .

سلطان دارفور والزبير

فما كان من السلطان ابراهيم — وكان قد حقد على الزبير لدخوله بلاد الرزيقات التى هى جزء من أملاكه — إلا أنه ، بدلا من أن يجيبه على كتابه ، أرسل الى بعض مشايخ الرزيقات خطابا مشحونا شتما وسبابا له ، يقول فيه : « لا تظنوا أنى أترك البلاد لهذا الطاغية الجلابى ؛ وها أنا أعد الجيوش للزحف عليه وطرده بالخزى والخسران» .

فلما اطلع الزبير على خطابه هذا ، كتب اليه فى ١٢ نوفمبر سنة ١٨٧٣ يؤاخذه ، ويحمله تبعة كل ما يسفك من دماء المسلمين ، فيما لو عمد الى حربه . وبعد أن أفهمه

أنه لا يخافه ولا يهابه، قال : « أما اذا كنتم تودّون خروجنا من بلاد شكا، لأنكم تحسبونها قسما من بلادكم، فاعلموا أن ذلك إنمـا يكون بالتراضى والسلم بينكم وبين سموّ ولى نعمتنا الخديو المعظم، بأن تضمنوا لنا نفقات الحملة على الزريقات التى بلغت نيفا وعشرة آلاف كيس . فاذا اتفقتم مع سموه على ذلك، وكتب لنا أمرا لرفع أيدينا، عدنا الى حيث كنا، نجمع جيوشنا امتثالا لأمره؛ وإلا فلا يخطر ببالكم خروجنا من هذه البلاد ! » .

الزبير يقدم البلدان التى فتحها الى حكومة مصر

وكتب فى أثناء ذلك الى حكمدار الخرطوم، اسماعيل أيوب باشا، يعلمه بحاله وانتصاره على الرزيقات ويسأله أن يرسل من يتولى حكومة البلاد التى فتحها فى بحر الغزال ودار فور، بالنيابة عن خديو مصر؛ وقال فى الختام : « فاذا ما وصل الحاكم واستلم البلاد، عدت الى تجارتى، تاركا كل ما أنفقت من الأموال فى الفتح هدية لحكومتى السنية، وانتظرت مكافأتها الأدبية حسبما تقتضيه عدالتها وكرمها » .

فجاءه الجواب بتاريخ ٢٢ نوفمبر سـنة ١٨٧٣ بما مؤدّاه : « عرضنا كتابكم على الجناب العالى الخديو، فشكر ولاءكم، وامتدح رغبتكم فى وضع البلاد التى فتحتموها بين يديه ليولى عليها من يشاء؛ وقد أنعم عليكم بالرتبة الثانية مع لقب "بك"، وولاكم أمر البلاد، على أن تدفعوا لخزينته جزية سنوية قدرها خمسة عشر ألف جنيه » .

فقبل الزبير الجزية، وتولى أمر البلاد رسميا .

ولكن السلطان ابراهيم لم يطق على بقائه فى بلاد شكا صبرا . فأصدر أمره الى مقدوم الجنوب فى داره، واسمه أحمد شطه؛ ومقدوم الشرق، واسمه سعد النور؛ فأخذا فى حشد الجيوش وجمع العـدّة لإخراجه منها . وكان الزبير يراقب حركات

المقدومين وسكناتهما، ويبلغها اسماعيل باشا أيوب فى الخرطوم فيدفعها الى الخديو فى مصر .

فأقر الخديو على اغتنام الفرصة التى كانت تترقبها حكومته منذ فتح كردوفان ، وأرسل الى الزبير ٢٨٠ من العساكر المنظمة وثلاثة مدافع نجدة ؛ وأمر اسماعيل أيوب باشا ، بجهز جيشا مؤلفا من نحو ثلاثة آلاف وستمائة مقاتل من الجنود السودانية والمصرية والباشبوزق الشايقية والأتراك والمغاربة والمتطوعة، وأربعة مدافع جبلية وساروخين، على أن يزحف بها الى دارفور من الشرق، والزبير يزحف اليها من الجنوب، فيتما الفتح .

فتح دارفور

ولكن الفتح كله تم على يد الزبير، ولم يكن لجيش الشرق أى عمل فيه . فان أحمد شطه وسعد النور لما أتما استعداداتهما ، زحفا بجيش يزيد على ثلاثين ألف مقاتل قاصدين شكا . فجرت بينهما وبين حاكمها واقعتان كانت العاقبة فى كلتيهما للزبير، وقتل المقدومان فى الثانية ، وانهزمت جيوشهما . فتقدم الزبير الى داره واحتلها، وبنى فيها استحكاما منيعا ،وبعث الى السلطان ابراهيم بكتاب فى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٤ ينبئه بما كان ، ويحمله من جديد مسئولية الدم المهراق، ويشهد الله بينهما ؛ وكتب الى علماء الاسلام فى دارفور يسألهم عما دعا سلطانهم الى المحاربة وهلاك عساكر المسلمين من الطرفين .

فلم يجبه أحد ،ولكنهم أخذوا فى حشد جيش جديد للأخذ بالثأر . فجمع رجل يقال له الشرتاى أحمد نمر — وكان كبير البرقد — شتات جيش المقدوم أحمد شطه ؛ وأتى وحصر الزبير فى الاستحكام الذى بناه، وأخذ يشاغله حتى تصل الجيوش التى يعدها السلطان ابراهيم . فصبر الزبير عليه حتى علم أن الجيوش آتية نجدة له . فأمر

(رابعا) — أحد قوّاده — وقد اشتهر فيما بعد أمره شهرة كبيرة، فخرج اليه بفرقة من الجيش، فقتله هو ومن معه وغنم ما عنده من خيول ودروع وخوذ ومواش .

وفى ١٦ أغسطس سنة ١٨٧٤ بعث الزبير بكتاب الى السلطان ابراهيم يدعوه للتسليم الى السلطة الخديوية، حقنا لدماء المسلمين، ورغبة فى ترك خزائنه وأمواله له، وبقائه مكرما مبجلا عند الجميع؛ وإلا فالقتال .

فلما وصل السلطان ابراهيم كتابه، طار صوابه، وجهز جيشا عرمرما ينيف على المائة ألف مقاتل، بينهم عدد كبير من الفرسان المدرّعين، والمشاة المسلحين بالبنادق؛ وعقد لواءه لعمه الأمير حسب الله، وجملة من الرؤساء والمقدومين . فوصلوا داره فى ٢٥ أغسطس سنة ١٨٧٤، وحصروا القوّات المصرية فى الاستحكام من الجهات الأربع، وكتبوا الى الزبير كتابا يقولون فيه : « لقد دخلت بلادنا، وقتلت وزيرنا أحمد شطه ثم الشرتاى أحمد نمر، فاخرج الآن من بلادنا لنشيعك بالسلامة والأمان»؛ وأرسلوا الكتاب مع ثلاثة رسل . فكتب الزبير اليهم : « إنى دخلت بلادكم عنوة، ولست أنوى الخروج منها إلا بقدر من الله؛ فاذا كنتم قد جئتم لحرب، فتقدّموا لها؛ وإلا فعودوا من حيث أتيتم ! » .

وقعة داره

ورأى الرسل بعض عساكر النمانم الذين كانوا فى جيش الزبير الخاص قد اجتمعوا على جثة آدمى يقتسمونها فيما بينهم؛ فأخذ بعضهم الرأس والكراع، وبعضهم الفخذين، وبعضهم الصدر؛ وشرعوا يشوونها على النار، ويأكلونها . فاقشعرت أبدانهم؛ فعادوا وأخبروا بما كان مما رأوا وأجيبوا به .

فاعتمد الفور على الحرب، ونزلوا ضمن دائرة مرمى الرصاص، وأخذوا يناوشون الزبير القتال كل يوم من قبل طلوع الشمس الى ما بعد نصف الليل . وكان معه

زهاء ١٢٠٠٠ مقاتل مسلحين بالبنادق فأصلاهم نارا حامية، صبروا عليها سبعة أيام؛ ولكنها أهلكت منهم خلقا كثيرا . وفي اليوم الثامن نقضوا خيامهم، ونزلوا بعيدا عن مرمى الرصاص؛ غير أنهم لم يزالوا على حصر الزبير ومن معه ومناوشتهم القتال، الليل والنهار، حتى كاد يفرغ الزاد من المحصورين؛ واذا برئيس يقال له الملك أحمد أتى من معسكر الفور طالبا ابنته — وكانت قد وقعت في أسر الزبير في واقعة أحمد شطه — وقدم عشر أواقي ذهبا فدية لها . فأخذ الزبير يسأله عن قوة جيش الفور وحركاته؛ واذا بالحرس الذين كان قد وضعهم في مأذنة جامع داره لمراقبة حركات العدو يشيرون اليه بالصعود اليهم . فصعد؛ فرأى الفور في حركة وجلبة . فنزل الى الملك وقال له : «اذا كنت تذهب وتأتيني بالخبر فاني أسلمك بنتك بلا مقابل»؛ وأقسم له قسما غليظا . فرجع الملك الى قومه — وحبه الأبوي تغلب في فؤاده وضميره على كل عاطفة سواه — وقال لهم : «إن الزبير طلب عشرين أوقية ذهب فداء ابنتي، ولم يكن معي سوى عشر أواقي» . فقالوا : «خذ هذه عشرة أخرى، وبادر وأحضر ابنتك، لأن الجيش يستعد للهجوم على السور غدا من جميع الجهات» . فأخذ الذهب وسار الى الزبير بالخبر، ليلة الخميس ٣١ أغسطس سنة ١٨٧٤

وكان الفور في تلك الليلة قد شربوا الخمر وأكلوا لحم الضأن والإبل، وناموا نوم الراحة . فانتهز الزبير هذه الفرصة الثمينة، وخرج اليهم بثمانية آلاف رجل بهيئة مربع، وزحف في جنح الليل حتى صار على قيد مائة متر منهم . فأمر عساكره، فصبوا عليهم الرصاص كالمطر الوابل . فقاموا مذعورين الى سلاحهم، وصوبوا على الهاجمين نيرانهم . فأصابت الزبير رصاصة طائشة في يده اليمنى جرحته جرحا بليغا؛ ولكنه لم يعبأ بها؛ بل بقي يشدد قومه، ويصب الرصاص على الأعداء حتى اضطرهم الى

تولى الأدبار منهزمين ، وقد امتلأت الأرض من قتلاهم ، وفيهم أربعون رجلا من أولاد السلاطين .

فجمعت الغنائم . فكان فيها نحو ألفى درع ، وألفين وسبعمائة خيمة ، وثمانية مدافع قديمة مكتوب على بعضها اسم (سعيد باشا) ، وشئ كثير من الأسلحة والذخائر الحربية ، ومن الحبوب والزاد ما كفى الجيش أربعة أشهر .

غير أن الأمير حسب الله عاد فجمع شتات جيشه وهاجم الزبير فى السور فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٧٤ ؛ فدام القتال بين الطرفين أربع ساعات متوالية ، حتى كثرت القتلى فى جيش الفور فانهزموا شر هزيمة .

فلما بلغ السلطان ابراهيم خبر انكسار عمه الأمير حسب الله استعظم الأمر جدّا واستكبره ، وصاح بقومه صيحة عامة ، فجرّد منهم جيشا كثيفا بلغ عدده نحو مائة وخمسين ألفا بينهم ثلاثون ألف فارس وعدّة رجال مسلحين بالبنادق وثمانية مدافع ؛ وعزم على الخروج الى الحرب بنفسه . فخلف على الفاشر ابنه الأكبر (محمد الفضل) وطلب من رجال دولته أن يجعل كل منهم ابنه الأكبر خليفة عنه مع ابنه محمد الفضل ؛ ففعلوا . فزحف بجيشه على داره ، فوصلها فى ضحى ١٦ أكتوبر سنة ١٨٧٤ واحتاط السور من الجهات الأربع ، وهاجم من فيه بجميع جيوشه هجمة واحدة . فأمطروه نارا حامية ثبت رجاله عليها حتى الساعة الواحدة بعد الغروب . وفى اليوم التالى أعاد الكرة على السور من قبل طلوع الشمس ، فما كانت الساعة الرابعة من النهار حتى ردّوا على أعقابهم . فاستراحوا الى ما بعد الظهر ، ثم عادوا الى الهجوم بعزم صادق مستقتلين وثبتوا ، والرصاص يحصدهم حصد الزرع ، الى أن فصل الليل بينهم وبين أعدائهم ؛

فرجع الفور، وقد قتل منهم فى ذلك اليوم خلق كثير، فيهم البعض من أولاد السلطان ابراهيم وأولاد أخيه وأعمامه وعماته .

وفى الليل أتى الزبير كتاب من السلطان، مملوء شتما وسبابا وتهديدا؛ وقد أقسم فيه بالله العظيم إنه لا بد من إعادة الكرة عليه فى الصباح، ودخوله الاستحكام عنوة، وتأدية صلاة الجمعة فى مسجد داره . وفى الساعة الخامسة من الليل أطلق على السور خمسة وأربعين مدفعا، فلم يجبه من فيه، وشرعوا يستعدّون للغد . فلما أصبح الصباح وانكشف معسكر الأعداء، واذا به خال من الجيوش، فخرج الزبير بنفر من رجاله يستطلع الخبر، فوجد أن الأعداء قد هربوا بالفعل، ولم يكن هناك خدعة؛ لأن رجال الفور لم يعودوا يستطيعون مهاجمة السور؛ فهجروا السلطان . فتبعهم ليجمع شتاتهم، ويسير بهم الى جبل مرة ليمتنع فيه . فجمع الزبير ما خلفه فى معسكره، وشرع فى الاستعداد للحاق به .

وقعة منواشى

وفى ٢٣ أكتوبر سنة ١٨٧٤ خرج بالجيوش مقتفيا أثره حتى أدركه فى اليوم التالى فى بلدة منواشى الواقعة على مسيرة يومين الى الجنوب الشرقى من الفاشر، ومعه من العساكر نحو ثلاثين الفا وثمانية مدافع .

فرتب السلطان عساكره ميمنة وميسرة وقلبا؛ وكان هو ومن معه من الأبطال المعدودين من أقاربه وغيرهم مع المدافع فى القلب . وما طلعت شمس الأحد ٢٥ أكتوبر سنة ١٨٧٤ حتى نشبت الحرب . فأطلق الفور على رجال الزبير أحد عشر مدفعا . فما أجابوهم؛ بل ساروا سيرا حربيا منظما قاصدين القلب . فهجمت عليهم عساكر ميمنة الفور وميسرتهم، واشتدّ القتال . ولكنه ما مضى إلا خمس دقائق حتى انجلت الحال عن تقهقرهم الى الوراء . عند ذلك هاجم السلطان ومن معه

فى القلب ؛ فهزموا مقدّمة الزبير ودخلوا القلعة واشتبك القتال بالسيوف والحراب ؛ وكنت ترى السلطان يجول فى وسط المعمعة ، ويقاتل كأنه الأسد ؛ غير أنه لم يكن إلا القليل حتى خر قتيلا هو ومن معه من الفرسان والشجعان ، وفيهـم الكثير من أولاده وأكابر دولته ؛ وانكشفت الحرب عن النصر المبين للقوّة المصرية .

فأخذ الزبير جثة السـلطان ، وكفنها بالأنسجة الفاخرة ، ودفنها فى جامع منواشى باحتفال عظيم ، إجلالا لمقامه ، وإقرارا ببسالته . ثم دفن القتلى من أولاده وأكابر دولتـه ، وعفا عن جميع الأسرى ، وسمح لهم بالذهاب الى حيث شاءوا . وقد غنم فى هـذه الواقعة المدافع الثمانية وسبعة وعشرين حمل جمل جبخانة ما عدا الأسلحة النارية وغيرها .

الاستيلاء على الفاشر

وبعد أن استراح أربعة أيام فى بندر منواشى ، سار بالعساكر الى الفاشر ؛ فدخلها فى ٣ نوفمبر سنة ١٨٧٤ ، قبل طلوع الشمس . فوجد عائلة السلطان وأهالى الذين تركهم بالفاشر قد فرّوا منها ، ولم يبق فيها سوى التجار وبعض العلماء . فأمّنهم على أموالهم ودمائهم وأحسن معاملتهم . فلما بلغ الأهالى ذلك ، أخذوا يفدون اليه ليلا ونهارا ، مقدّمين الطاعة والامتثال ؛ ولم يكن إلا أيام قليلة حتى دانت له جميع أهالى السلطنة ؛ وطلب منـه عبد الله التعايشى أرضا فى قيجة ، غربىّ الكلكة ؛ فأعطاه إياها ، على أن يكف عما كان به من التدجيل ؛ فرضى .

أما اسماعيل أيوب باشا المهاجم لدارفور من الشرق ، فانه أبطأ فى سـيره جدّا ؛ وعند وصوله الى فوجة كتب الى الزبير ، وهـذا إذ ذاك فى داره ، يقول : « إنى جئتك بنجدة ؛ فتشدّد ! » . فبعث الزبير اليه يقول له : « اذا كنت قد جئتنى بنجدة ، فلماذا هـذا الإبطاء فى السير ، والعدوّ محدق بنا بجيوش لا عداد لها » . فأجاب :

«ماأنا أمرتك بالتقدم الى داره، ولا أفندينا . فاذا استطعت أن ترفع الحصار ونجو بجيشك الى هنا، فافعل؛ وإلا فدبر أمرك بما تراه صوابا! » . وبقى فى فوجة حتى انقضت الحرب؛ وبعد دخول الزبير الفاشر بعث اليه بالخبر، فلقيه الرسول فى طريقه الى داره، فانثنى إذ ذاك عنها، ووجه الجيش الى عاصمة دارفور، فدخلها فى ١١ نوفمبر سنة ١٨٧٤؛ فأكرم الزبير لقياه، وأطلق له مائة مدفع ترحيبا به .

وكان المتخلفون من جيش الفور، لما تحققوا موت السلطان ابراهيم فى منواشى، قد ولوا عمه حسب الله سلطانا عليهم؛ وذهبوا الى جبل مرة وتحصنوا فيه . فلما حضر اسماعيل أيوب باشا الى الفاشر سلمه الزبير ادارة البلاد، وجهز جيشا مؤلفا من ١٢٠٠٠ مقاتل، فيهم ٤٠٠ من العساكر المنظمة، و ٢٠٠ فارس من عساكر الحكومة، وزحف على جبل مرة . فلما رأى الأمير حسب الله قوته، سلم بلا قتال، وكان معه بعض أولاد السلطان ابراهيم وعمتهم الميرم عرفة، وغيرهم من أولاد السلاطين، ونحو ألف ومائتى رجل من كبراء البلاد وأعيانها . فجاء بهم جميعا الى الفاشر بعد أن تغيب عنها فى تلك المهمة ستة وتسعين يوما .

وكان الأمير حسب الله قد سأله بعد التسليم أن يساعده على توليه البلاد، ليحكمها تحت طاعة الحكومة الخديوية، فيدفع لها مائة ألف جنيه جزية سنوية . فأعجب الزبير هذا الرأى، واعتقده الصواب الذى فيه راحة البلاد والحكومة معا . فعرضه على الحكمدار، وأسنده بكل قوته؛ ولكن الحكمدار رفضه بتاتا . فوقع بين الاثنين جدال طويل أفضى الى النزاع؛ وأرسل الأمير حسب الله والأمير محمد الفضل ابن السلطان ابراهيم وكثيرون غيرهما من أولاد السلاطين الى مصر، وأمر الزبير بالذهاب الى داره والاقامة فيها بعساكره الى أن يصدر اليه أمر آخر بالرجوع الى بحر الغزال .

فذهب، واذا بكتاب أتاه وهو فيها ، من عبدالله التعايشى، يقول فيه : «رأيت فى الحلم أنك المهدى المنتظر ، وانى أحد أتباعك . فاخبرنى ان كنت مهدى الزمان لأتبعك ! » . فكتب الزبير له : «استقم كما أمرتك . أنا لست بالمهدى، وانما أنا جندى من جنود الله أحارب من طغى وتمرّد!» .

ولم يمض شهر حتى ورد عليه كتاب من اسماعيل أيوب باشا يقول : «إن بوشا أخا الأمير حسب الله شق عصا الطاعة ، بجمع بقيـة أولاد السلاطين فى جبـل مرة، وملأ البلاد عيثا وفسادا» ؛ وأمره بالخروج اليه وإخماد ثورته . فصدع بالأمر وسار الى جبل مرة فى ٣ أغسطس ســنة ١٨٧٥ ، وشهر على بوش حربا عوانا مدّة خمسة عشر يوما ؛ فترك بوش الجبل واعتصم بالفرار . فغادر الزبير ابنــه سليمان مع ١٢٠٠ جندى فى الجبل، وتتبعه حتى أدركه فى صرف الجدار قرب كبكبية ، فأوقع به واقعة شديدة ، انتهت بقتله وقتل أخيه سيف الدين وسبعة وعشرين رجلا من كبراء جيشه .

توغل الزبير غربا

ثم توغل الزبير بجنده فى بلاد المغرب ؛ فدانت له ديار نامه ، والمساليت ، وقمر، وسلا ، حتى أتى الترجة الفاصلة بين دارفور ووداى . فأقام فيها أياما للراحة ، بعزم الدخول فى دار وداى وإخضاعها للحكومة الخديوية ؛ وكان عليها إذ ذاك السلطان على ابن السلطان محمد شريف . فبعث اليه الزبير بكتاب يدعوه الى الطاعة ؛ ثم دخل بلاده وتوغل فيها ، حتى صار على مسيرة يومين من عاصمته . فورد عليه كتاب منه يدل على قبوله الدخول فى طاعة الحكومة الخديوية ؛ وقد تعهد بدفع مبلغ معلوم ، جزية سنوية ، على أن يبقى سلطانا على بلاده ؛ ووجه اليه أحد وزرائه بهدايا كثيرة للمفاوضة معه فى هذا الشأن .

ولكن قبل وصول الوزير، ورد على الزبير كتاب من اسماعيل أيوب باشا، بناء على إرادة سنية، يلح عليه بالرجوع الى دارفور فى الحال. فرجع الى الفاشر متأسفا على مافاته من فتح ووداى. فأخبره الحكمدار أن سلطان ووداى أرسل وزيره أحمد تنقة الى مصر عن طريق سيوه متشكيا للجناب الخديو؛ فأمر جنابه العالى برجوع الزبير؛ ولكنه أنعم عليه برتبة اللواء الرفيعة مع لقب "باشا". وشرع اسماعيل أيوب باشا، بعد دخوله الفاشر، فى بناء حصن منيع للعساكر على التلة الغربية منه؛ فبنى سورا مربعا متينا من الطوب سمكه ثلاثة أقدام، وطول الضلع الواحدة منه مائتا قدم؛ وأقام فى أركانه الأربعة أبراجا، على كل ركن برجا، جعل فيها المدافع؛ وحفر من وراء السور خندقا بلغ عمقه خمسة عشر قدما، وأحاطه بزريبة من شوك؛ وبنى من داخل السور ديوانا للحكومة ومنزلا للحاكم وثكنة للعساكر المنظمة؛ وأما العساكر غير المنظمة فأقرها خارج السور؛ وهدم المنازل التى فى جواره، فجعل الأرض التى حوله فى غاية الانكشاف الى مسافة بعيدة. فجاء حصنا منيعا جدا. ثم وزع منشورا فى كل البلاد، ودعا الناس الى الفاشر لأخذ الأمان. فطفقت الوفود تأتيه من الجهات الأربع؛ فيؤمنهم ويرجعهم الى بلادهم. ثم أمر فعمرت سوق كبيرة فى الفاشر، وعاد الناس الى معاطاة أشغالهم كالعادة.

وبعد أن تمهدت البلاد، جعلها أربعة أقسام، وهى: مديريات الفاشر، وداره، وكلكل وكبكبية، وادارة أم شنقة؛ وأقام فى كل من مركزى داره، وكلكل، حصنا كالذى أقامه فى الفاشر؛ ورتب فى كل مديرية أورطتين من العساكر المنظمة، وستة سناجق من الباشبوزق الشايقية والأتراك والمغاربة، وبطارية بستة مدافع.

وأما إدارة أم شمقة، فرتب فيها بلوكين من العساكر المنظمة وسنجقا واحدا من الباشبوزق، لقربها من الأبيض .

ثم شرع فى وضع الضرائب على الأهلين ؛ فجعل على كل نفر خمسين قرشا فى السنة، ما عدا أهل اليسار ، فانه جعل عليهم ضرائب أعظم على نسبة يسارهم ، فقبلوها مرغمين ؛ لأنهم كانوا قد سئموا عيشة الاضطراب والقلق التى وصلوا اليها فى آخر سلطة الفور ، وتاقوا الى السكينة . ولكن لم يطل الأمر حتى انتشر الباشبوزق فى أنحاء البلاد ، وتقاضوا الضرائب من الأهالى بالعنف والقوة . فاستعظموا ذلك ، وفضلوا العودة الى ما كانوا عليه قبلا .

ثورة عامة فى دارفور

وكان عندهم من أولاد السلاطين ، الأمير هارون الرشيد ابن الأمير سيف الدين ابن السلطان محمد الفضل ؛ فبايعوه سلطانا عليهم فى أوائل سنة ١٨٧٧ ؛ وثاروا ثورة عامة وحاصروا حاميات الفاشر وداره وكلكل ؛ والذى حصر الفاشر الملك سعيد كبير البرتى ، والمقدوم آدم ، مقدوم الشمال سابقا ، فهاجماها مرتين ، وكادا يستوليان عليها ، لولا أن العساكر حاربوا حرب الأسود ، فصدوهما . ولكنهم لم يقووا على رفع الحصار ؛ فأرسل حسن باشا حلمى الجويسر ، مدير الفاشر ، فى طلب المدد من الخرطوم

إخمادها

فأتاه عبد الرازق باشا بجيش كبير ؛ فتصدّى له العصاة فى بروش ، بين أم شمقة والفاشر ، فقتل منهم خلقا كثيرا ؛ ودخل الفاشر فرفع عنها الحصار ؛ وأرسل الجنود الى داره وكلكل ؛ فرفعوا الحصار عنهما أيضا .

ثم أخذ حسن باشا عسكرا من الفاشر ، وخرج لمطاردة الأمير هارون ؛ فأدركه فى الطينة على مسيرة يوم ونصف من الفاشر ؛ فأوقع فيه واقعة شديدة ؛ ثم لحقه الى بير مرتال ؛ فقتل من عسكره خلقا كثيرا وهزمه الى نيورنا وسط جبل مرة .

وكان اسماعيل أيوب باشا، مذ دخلت سنة ١٨٧٧ ، قد عاد الى مصر ، متخليا عن حكم السودان، بعد أن أمن السبل وأنشأ المحطات فى طرق القوافل، بين الخرطوم ودارفور ، وبين بربر وسواكن . ومع ذلك فانه لم يكن محبوبا فى السودان ؛ وقد وصفه بعضهم بقوله : «كان رجلا جبارا ، يعنى بالعسكرية، ويهمل الرعية ، ويقبل كل هدية ! » .

تعيين جوردون حاكما عاما على السودان

فلم ير الخديو رجلا يوليه بالسودان ، على اتساع أطرافه وكثرة مشاكله ، أفضل من جوردون . فأرسل يستدعيه تلغرافيا من بلاد الانجليز ، فحضر فى أوائل فبراير سنة ١٨٧٧ ؛ وكانت مديريات السودان لا تزال مستقلة بعضها عن البعض . فطلب جوردون ضمها كلها تحت إدارته ؛ فأجابه (اسماعيل) الى ذلك ، وأصدر له فرمانا بتاريخ ١٧ فبراير بالولاية على جميع بلاد السودان المصرى مع دارفور وخط الاستواء وسواحل البحر الأحمر وهرر؛ ومنحه السلطة العسكرية والمدنية كلها عليها ؛ وأعطاه سلطانا على القتل والعفو؛ ومنع دخول أحد الى السودان إلا بإذنه ؛ وعهد اليه بمنع تجارة الرقيق؛ وتحديد التخوم بين السودان والحبشة .

فسار جوردون الى الخرطوم بعزم وطيد لاصلاح البلاد ، وفض مشاكلها ، ووضع نظام عام يكفل لها الراحة ويرقيها فى معارج المدنية والعمران . ولكنه لم يلبث أن رأى خطورة المركز الذى تولاه ، وتعذر النجاح فى المهمة الملقاة على عاتقه ، نظرا لعدم تيسر الأيدى اللازمة للعمل ، واتساع أطراف السودان ، ومشقه السفر فى بلاده برا وبحرا ، مع قلة الجيوش اللازمة لحمايته ، بعد أن ذهب قسم منها لمساعدة الدولة العلية فى حروب الروس ، ونهكت القسم الآخر حرب الحبشة ، وسيأتى ذكرهما فى حينه .

فقضى جوردون فى السودان أزيد من سنتين ، وهو يتنقل من مكان الى مكان ، آونة بالبر وأخرى بالبحر، متمما كل ما أمكنه من الاصلاح ، حتى أعياه التعب ، وقاومته السياسة ، فاضطر الى الاستعفاء . وكان أهم ما اشتغل به فى هذه المدّة : إخماد ثورة الأمير هارون الرشـيد فى دارفور ، وحركة صباحى فى كردوفان ، وتمرّد سليمان الزبير فى بحر الغزال ، ومنع تجارة الرقيق ، والنظر فى مدّ سكة حديد السودان ، وإصـلاح ذات البين بين الحبشة ومصر .

أما الأمير هارون ، فانه كان قد عاد الى الحركة فى أوائل سنة ١٨٧٩ فسار جوردون الى الفاشر ، وما لبث أن رأى أن دارفور لا يصلح حالهـا إلا اذا حكمها رجل من أهلها ، تحت طاعة الحكومة ، على نحو ما أشار به الزبير من قبل . فبعث الى مصر فى طلب الأرشـد من أولاد السلطان ابراهيم ، وعزل حسن حلمى باشا عن الفاشر ، وسمى مساداليه بك — وهو ضـابط ايطالى — مديرا على دارفور ، وكان مديرا على داره ، وجعل المقدوم رحمه قومو — وكان قد أطلقه من سجن سواكن سـنة ١٨٧٧ عند مروره بها — معاونا له ، الى أن يجيء ابن السلطان ابراهيم من مصر . ولكن هـذا الشاب التعس الحظ لم يصـل إلا الى دنقلة ، حيث فاجأته منيته . فعهد جوردون الى مساداليه فى اخماد حركة هارون . فاستعان الايطالى عليه بسلاطين بك — وكان قد خلفه على مديرية داره — فعمل الاثنان معا ، وانضم اليهما النور بك عنجرة مدير كلكل . فقضى الثلاثة على الرجل بمهاجمتهم إياه بالتتابع وتم قتله على يدي مدير كلكل فى مارس سنة ١٨٧٨

ثورة الصباحى

وأما الصباحى — وقدكان أحد قوّاد جيش الزبير ، وانفصل عنه بعد ذهاب الزبير الى مصر لمقابلة الجناب العالى ، وعرض حقيقة حال دارفور على سموّه ، والنظر معه

ومع رجال حكومته فى تنظيم البلاد التى تم فتحها على يديه ، والبلاد التى يمكن الحاقها بحكومته فى المستقبل ؛ فأبقاه (اسماعيل) بمصر فى ظل ساحته ، حتى ينظر فى أمره ؛ وكانت تلك القاضية ؛ لأن الرجل لم يرجع الى السودان بعد ذلك ، وقضى نحبه بمصر فى أيامنا هذه — فانه ألف عصابة من أربعمائة رجل ، وأغار على الأضية فى كردوفان ؛ فقتل مأمورها ، وفر الى جبال النوبة . فعلم به جوردون وهو ذاهب الى دارفور المرة الثانية فى مارس سنة ١٨٧٩ ؛ فأرسل من الأبيض نفرا من العساكر ؛ فطاردوه وأتوا به أسيرا . فحوكم فى مجلس عسكرى ، وحكم عليه بالاعدام .

ثورة سليمان ابن الزبير

وأما سليمان الزبير فانه بعد ذهاب أبيه الى مصر خرج بالجيش ، وعدده أربعة آلاف مقاتل ، الى شكا ؛ وأقام فيها الى أن حضر جوردون الى دارفور ، أول مرة ، وأرسل اليه أمرا لمقابلته مع جيشه .

فصدع بالأمر واجتمع عليه فى شهر أغسطس سنة ١٨٧٧ ؛ وكان أحد سناجق الجيش — ويقال له السعيد بك حسين — قد وشى بالزبير أبيه الى جوردون ، قائلا : انه أوصى ابنه ، اذا هو لم يرجع سريعا من مصر أن ينهض بثورة على الحكومة . فرأى جوردون أن يفرق جيش سليمان : فأعطى سعيد بك ألف رجل وسماه مديرا على شكا ؛ وأعطى الباقى للنور بك عنجرة ، من سناجق جيش سليمان ، وأرسله الى كبكبية ؛ وأمر سليمان ، فرجع الى شكا بقلة وذلة . وفى أواسط سبتمبر وافاه جوردون اليها فطيب خاطره ؛ وأنعم عليه بالرتبة الثانية مع لقب "بك" ، وسماه مديرا على بحر الغزال . فسر سليمان بهذا الالتفات ، وذهب الى ديم أبيه القديم . وكان الزبير قبل قيامه منه لحرب دارفور قد خلف ادريس أبتر من تجار الدناقلة وكيلا عنه فى بحر الغزال براتب معين . فقضى أربع سنوات فى ادارة بحر الغزال ، لا يشاركه أحد فيها .

فلما حضر سليمان وجد أن ادريس أبتر قد أخل بالادارة، واستبد بالعباد، ولم يهتم إلا بانتفاعه الشخصي؛ فأعلن سليمان على محاكمته فى مجلس قضائى . ففرّ الرجل الى الخرطوم، ووشى به الى جوردون بأنه يريد الاستقلال فى بحر الغزال بحجة أنها بلاد أبيه، وليس للحكومة حق فيها . ويظهر أن جوردون أصغى الى وشايته؛ فأنعم عليه بلقب "بك"، وأعطاه مدفعين، ومائتين من العساكر المنظمة، وسماه مديرا على بحر الغزال . فلما وصل ادريس أبتر الى ديم قنده، المعروف أيضا باسمه، كتب الى رؤساء الزرائب يخبرهم بتعيينه مديرا على بحر الغزال، ويأمرهم بالحضور اليه؛ وكتب الى سليمان يدعوه للتسليم .

فغضب سليمان من ذلك، وكتب اليه فى الجواب يقول : « إنّ ولائى للحكومة يمنعنى الخروج عن طاعتها . إلا أن شرفى لا يسمح لى بالتسليم الى من كان خادمى وخادم أبى من قبلى؛ ولا يمكننى أن أأتمنك على نفسى وأموالى بعد الذى رأيته من خيانتك وإنكارك للجميل؛ لأنك لو كنت أمينا وذاكرا للجميل لحفظت عيشنا وملحنا وتربيتنا لك . فلا تنتظر منى التسليم؛ ولو أرسلت الحكومة التى رجلا غيرك ولو عبدا لسلمت وذهبت معه الى جوردون، وأطلعته على جليـة أمرى، وبينت له نفاقك والسلام! » .

فتيقن ادريس أبتر من هذا الجواب أن سليمان لا يسلم اليه إلا بالقوّة. فترك جنده فى عهدة أخيه عثمان، وطاف فى الزرائب يحرضهم على محاربة ابن الزبير. وكان عثمان أخو ادريس رجلا فظا عاتيا، مكروها من جميع «البحارة»؛ وكان يرسل الشتائم الى سليمان وأتباعه، ويتهددهم بالقتل وأنواع العذاب . فجرّد سليمان رجاله، ورجال الزرائب الذين من حزبه، وهاجمه فى ديم قنده؛ فقتله، وقتل أكثر الجهادية والجلابية

الذين معه ، وغنم أسلحتهم وذخائرهم ، وعاد بالغنائم والأسرى الى مركزه . فلما بلغ ادريس أبتر خبر الواقعة ، انقلب راجعا الى الخرطوم ، وأخبر جوردون بما كان .

فجهز جوردون سرية من العساكر ، وعقد لواءها لجيسى باشا ، ومعه يوسف باشا الشلالى . فأقلعا من الخرطوم فى يوليه سنة ١٨٧٨ وسارا فى النيل الأبيض حتى وصلا (أورنبك) بطريق (شامبي) فى سبتمبر سنة ١٨٧٨ ، فوجد البلاد مغمورة بالمياه بسبب الأمطار . فأقام فى (أورنبك) نحو ثلاثة أشهر حتى جفت الأرض ، فسار قاصدا ديم سليمان ، ومعه ٣٠٠ من العساكر المنظمة ، و ٧٠٠ من الباشبوزق ، وثلاثة مدافع . وكان على طريقه فى نقطة (الدمبو) رجل من مشاهير « البحارة » يقال له على بك أبو عمورى ، ومعه نحو ألف رجل مسلحين بالبنادق ، فدعاه للانضمام اليه ، فأجابه بعد تردّد ، لأنه لم يكن يودّ محاربة سليمان ، ولكن كان له محل تجارى فى الخرطوم ، وآخر فى مصر ، فأجاب الدعوة ، مضطرا ، لتجارته . واجتمع على جيسى فى جور غطاس ، وساروا كلهم حتى نزلوا فى (قندة) ، فى أواسط ديسمبر سنة ١٨٧٨

وكان سليمان لما علم بقدوم جيسى قد أخذ فى حشد الجيوش حتى اجتمع عنده نحو عشرة آلاف مقاتل فسار بهم الى (قندة) ، ونزل بالقرب من معسكر جيسى ، ولما كان صباح ٢٨ ديسمبر سنة ١٨٧٨ حمل على المعسكر حملة صادقة . وكان جيسى قد أمر جنوده ، فبنى كل منهم متراسا علوّه متر ونصف متر ، ليقيه من الرصاص . فأصلوا رجال سليمان نارا حامية ، فثبتوا برهة ، ثم انقلبوا راجعين الى معسكرهم . فبنوا حصنا منيعا من الأخشاب والتراب ، ونزلوا فيه ، ثم جدّدوا الهجوم على جيسى فى ١٢ يناير سنة ١٨٧٩ وفى ٢٩ منه ، فلم يظفروا بطائل .

وفى ١١ مارس سـنة ١٨٧٩ وصل چيسى مدد من الذخائر والعساكر، فزحف بجيشه حتى صار قريبا جدّا من معسكر سليمان ، وأقام تلا من التراب وجعل عليه المدافع والسواريخ ، وشرع يرمى بمقذوفاتها ذلك المعسكر ، وكانت بيوته كلها من قش، فاشتعلت النار فيها ، فذعر سليمان وارتدّ الى (ديمة) .

وبقى چيسى فى (قندة) حتى جاءه مدد آخر من جوردون، فزحف بجميع جيشه على ديم سليمان ، ووصله فى ٤ مايو سنة ١٨٧٩ ، فخرج عليه سليمان من الديم ، وحاربه مستقتلا مدّة ساعة ، ثم انهزم راجعا الى الديم ، فتبعه چيسى على الأثر وأخرجه منه ، واستولى على جميع ما فيه من الأمتعة والأموال ، وسار سليمان شمالا حتى وصل (غرة)، غرب الكلكتة، من أعمال دارفور، فأقام فيها ..

وكان جوردون، لما حضر المرّة الثانية الى دارفور، وعرج على (شكا) فى ٧ أبريل سـنة ١٨٧٩ ، وجد فيها بعض التجار الجعليين يهرّبون الأسلحة الى سليمان فى بحر الغزال . فألغى المديرية وشتت التجار ، وأمدّ چيسى ببعض الذخائر، ثم توجه الى الفاشر للنظر فى ثورة هارون . فلم يلبث أن أتاه خبر من چيسى باستيلائه على ديم الزبير، وفرار سليمان الى (غرة) . فخاف جوردون أن ينضم سليمان الى هارون، فيصعب عليه إذلالهما معا ، فعاد الى (الطويشة) ، وكتب الى چيسى — فترك الجيش بقيادة ساتى بك فى ديم الزبير ووافاه الى(الطويشة) ومعه يوسف باشا الشلالى فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٧٩ وهو يوم تعس (لاسماعيل) — فأمره بمطاردة سليمان الى (غرة)، وعاد يوسف باشا الشلالى الى الخرطوم، فقاد چيسى العساكر من داره ، وأخذ معه بعض مشايخ الرزيقات والمغاربة أصحاب الثأر على الزبير ، وسار حتى وصل الكلكتة . فأرسل رسلا بكتاب الى سليمان يدعوه الى التسليم .

وكان قد بلغ الزبير خبر خروج ابنه على الحكومة، بسبب ادريس أبتر. فكتب اليه فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٧٨ يأمره بالرجوع فى الحال الى الطاعة وطلب العفو، وإلا كان الله ساخطا عليه، وهو كذلك! فلما وصل كتابه الى سليمان — وكان قد خرج من بحر الغزال — استوعبه وصدّقه. فلما دعاه چيسى الى التسليم مال اليه.

ولكن رابحا خادم أبيه الأمين عارضه؛ فانقسم الجيش بهما الى حزبين: حزب مال الى التسليم، ورئيسه سليمان؛ وحزب أعرض عنه، ورئيسه رابح. فلما كان صباح ١٤ يوليه سنة ١٨٧٩ أتى سليمان الى چيسى مسلما، ومعه ٧٠٠ رجل فيهم ثمانية من أقاربه. وكان فى جيش چيسى كثير من الدناقلة، الذين يكرهون سليمان والجعليين؛ فوشوا بالتعيس الى چيسى قائلين ان تسليمه، هو وأقاربه، انما هو خدعة. فصدّق چيسى الوشاية، واتخذها مسوّغا لقتلهم. فناداهم الى خيمته، ثانى يوم التسليم، وسقاهم القهوة، وكان قد أوعز الى بعض الجند، فاحتاطوا بالخيمة، ثم خرج منها، فدخل بعضهم وأوثقوا سليمان وأقاربه، وجعلوهم صفا واحدا خارج الخيمة، ووقفوا خلفهم ورموهم بالرصاص، فانكبوا على وجوههم قتلى. وبعد ساعة أتى قناوى بك أبو عمورى؛ فكفنهم وحفر لهم حفرة ودفنهم فيها.

قتل سليمان ابن الزبير

فالخيانة والغدر ليسا من خصائص الشرقيين وشيمهم، دون سواهم، كما يزعم الغربيون!

وبعد أن فرغ چيسى من أمر سليمان، عاد الى ديم الزبير؛ فنظم فيه مديرية وجعل ساتى بك مديرا، والزبير ودالفحل وكيلا له، ومحمود المحلاوى مفتشا لمنع تجارة الرقيق؛ وقسم البلاد الى ثمانية أقسام؛ وجعل فى كل قسم منها نفرا من الباشبوزق والبازنجى؛ وجعل فى ديم الزبير أورطة جهادية؛ وقفل راجعا الى الخرطوم.

ثم نظم ساتى بك أورطة جديدة من أهالى البلاد، وجاء موسى بك شوقى قومندانا للعساكر من الخرطوم، ومعه ستة عشر كاتبا للقيام بأشـغال المديرية . وبعد وصـولهم بثلاثة أشهر حضر لپتون بك — وهو من البحارة الانجليز — مديرا على بحر الغزال، وقومندانا للعساكر من قبـل جوردون، وعاد موسى بك شـوقى الى الخرطوم؛ وبقى لپتون فى بحر الغزال الى أن قام المهدى؛ فاضطر الى التسليم الى أحد أنصاره .

أما چيسى باشا فقد اعترضه السدّ فى الطريق، وهو راجع الى الخرطوم؛ وفرغ منه الوقود والزاد، حتى أكل رجاله بعضهم بعضا، وأشرفوا على الهلاك؛ واذا بباخرة قاصدة خط الاستواء أقبلت عليه؛ فرجعت بهم الى فاشودة . فسار چيسى منها بمن بقى من رجاله، وفيهم قناوى بك أبو عمورى، الى الخرطوم؛ وقام منها قاصدا مصر عن طريق سواكن . فوافته المنية فى السويس فى ٣٠ أبريل سنة ١٨٨١ [١]

أما مدّ السكة الحديدية فقد تكلمنا عنه فى غير هذا المكان؛ على أن جوردون كان على رأى القائلين بمدّها فى طريق سواكن وبربر، لا فى طريق النيل؛ والاكتفاء بمدّ فروع منها عند الشلالات، لأن النيل بين الشلالات صالح للملاحة، فلا يفتقر الى سكة حديدية . ولكن (اسماعيل)، لعلمه أن الاكتفاء بمدّ سكة حديدية بين الخرطوم والبحر الأحمر انما يحول عن مصر تيار تجارة السـودان، أبى إلا أن يمدّها على النيـل، لكيلا ينفصل جزء سلطنته الجنوبى عن جزئها الشمالى . فياليت ماليته مكنته من تنفيذ رغبته !

---

(١) مأخوذ عن "تاريخ السودان" للرحوم نعوم بك شقير .

وأما تحديد التخوم بين السودان والحبشة فكان قد أصبح من أهم المشاغل والأمور . ولكن لا سبيل الى إدراك أهميته إلا بعد الوقوف على مجارى الحوادث التى أدت الى قيام مسألة ذلك التحديد . ولإيقاف قرائنا عليها نقول :

نزاع بين مصر والحبشة

تقدم أن الدولة العلية تنازلت لمصر عن سواكن ومصوّع فى سنة ١٨٦٦ مقابل زيادة فى جزيتها السنوية . فمذ أصبحت مصوّع بيد مصر أخذت تسعى فى تأبيد المواصلات بينها وبين كسلا ؛ وأول مافتق لها وصل هذين البلدين بخط حديدى يمرّ فى (سنهيت) التى اعتبرها (اسماعيل) داخلة فى فتح جدّه لكسلا .

مساعدة مصر انجلترا على ثيودورس

فعارضه الملك ثيودورس ، نجاشى الحبشة ، فى ذلك ؛ وزعم أن (سنهيت) ملك حبشى . ولكن ثيودورس هذا مالبث أن جرّ على نفسه حربا مع الانجليز . فطلب أعداؤه من (اسماعيل) أن يأذن لهم باجتياز بعض الأرض المصرية الواقعة على بحر القلزم . فلم يكتف (اسماعيل) باجابتهم الى ذلك ؛ ولكنه ، لاستيائه من ثيودورس ، وضع الأسطول المصرى كله ، الذى كان فى البحر الأحمر ، تحت تصرفهم ؛ وأرسل الى مصوّع وضواحيها زهاء ثلاثة آلاف عسكرى ، كانوا قد عادوا من الحملة الكريتية ، وكلف حاكم مصوّع بمساعدة الانجليز فى كل مايرغبون .

فانتهت تلك الحرب بقتل ثيودورس ، سنة ١٨٦٨ ، وصيرورة عرش الحبشة بعده الى يوحنا . وكان هـذا فى بادئ أمره تلميذا فى دير ؛ ولكنه مالبث أن تركه وترأس منسرا ، وأخذ يقطع الطرق . ثم اشتدّ ساعده ، وزاد بطشه ، وعلا نفوذه ، حتى تمكن من تبوّء كرسى الحكم فى مقاطعـة البحرى ، والتغلب على رئيس يقال له الرأس بأريو ، كان من أهم رؤوس الجيوش . ولما قدم الانجليز لحرب النجاشى ثيودورس ساعدهم يوحنا ، وكان اسمه فى ذلك الحين "الرأس قاسة" ، مساعدة فعالة .

فترك له اللورد نيپير أوف ماجدالا — بعد قهره النجاشي وقتله إياه — اثنى عشر مدفعا وألفى بندقية ، وميرة كثيرة ليتساعد بها على القيام فى محل ثيودورس . وبعد انسحاب الجيش الانجليزى تخلف عنـده بريطانى يقال له چون تشارلز كركهام ؛ وكان قد حارب فى القرم والصين مع برجوفاين ، وورد ، وجوردون ؛ فعضده فى التغلب على خصم له يدعى جوبا سى ، فعلت منزلته عنده . وبما أن يوحنا هذا لم يكن من آل بيت الملك ، أبى كثيرون من رؤساء الأحباش الاعتراف به ؛ وأخذوا يناوئونه العداء ؛ وأهمهم رأس قبيلة القالا . فانشغل فى قتالهم دهرا .

حلم (اسماعيل) الفخيم

وكانت الجنود المصرية ، مذ بدأت بفتح أقاصى السودان ، قد توغلت فى فتوحاتها على ما رأينا ، حتى بلغت خط الاستواء . فوقع فى خلد (اسماعيل) أن يجعل النيل كله مصريا ، لاعتقاده تحقيق ذلك أمرا حيويا لبلاده . فأخذ يعمل على الإحاطة بالحبشة من جميع الجهات ، لجعلها فى معزل عن الخارج ، وخنقها بين حلقات ممتلكاته ، فى تدانى هذه بعضها من بعض ، لا سيما بعد أن تم له امتلاك السودان برمته غربيه وشرقيه وجنوبيه . فسير الى جوف بلاد الحبشة — لمعرفة أحوالها واستمالة بعض كبار رءوسها — رجلا سويسريا يقال له متزنجر ، كان قنصـلا لدولتى انجلترا وفرنسا فى مصوّع . فتوغل هـذا فيها ، وغاب خبره حينا ؛ ثم عاد حاملا شيئا من محاصيل البلاد ؛ وزين للخديو التغلب عليها وامتلاكها ، مغتنما لذلك فرصـة قيام الفتنة بين أمرائها وملوكها ، وضرب الخلل أطنابه فى جوانبها ؛ وأقسم له بأغلظ الأيمان إنه يملكها ويدوّخها بنفر من العسكر المصرى ، وشئ يسير من النفقة .

فأعجب الخديو برأيه ومال اليـه ؛ وما زال متزنجر يتردّد على الأبواب السنية حتى ولاه (اسماعيل) المحافظة على فرضة مصوّع ، مفتاح أرض الحبشة البحرى ، وحلاه

برتبة البكوية — وكانت رتبة سامية، ولم تزل كذلك، حتى جعلها الاتجار بالألقاب والنياشين، فى عهد عباس الثانى، مبتذلة محقرة . فسار منزنجر الى مقر وظيفته الجديدة — وهو مقره القديم — وأخذ يقرب اليه بعض مشايخ السواحل و يستميلهم بالنقود والهدايا، ويدفع بهم الى دس الدسائس و إيقاظ الفتن، كلما نامت، ما استطاعوا الى ذلك سبيلا .

استيلاء منزنجر على (كرن)

فلما كانت سنة ١٨٧٢ ، اغتنم منزنجر فرصة ذهاب يوحنا الى محاربة القالا فى الجنوب، واستولى على (كرن) عاصمة البوغوس — واسمها الحبشى (سنهيت) — بألف وخمسمائة رجل، واستمال رأسا يقال له النائب محمد، كان بكره يوحنا، فاشترى منه مقاطعة (آيلت) الواقعة بين الحماسين ومصوع وأدخله تحت ولاء الخديو مقابل مرتب سنوى يدفع له .

ولم يكن يوحنا بغافل عن مساعى مصر ورغائبها؛ وكان يراها ترمى شباكها حوله، بعين متخوفة، وقلب مضطرب . فلما وجدها، باحتلالها (سنهيت) ومشتراها (آيلت) تدنو من قلبه، هب منذعرا؛ ووقع فى خلده فى بادئ الأمر أن يستظل فى حماية الدول الغربية، بأن يمثل لها التقدم المصرى فى صورة غزو إسلامى لبلاد مسيحية، يستدعى أن تقابله المسيحية بصليبية جديدة . فأرسل صديقه چون تشارلز كركهام الى الملكة ڤكتوريا وباقى عواهل أوروبا فى تلك المهمة . ولكنه لم يجد من أحد منهم أذنا صاغية؛ وعاد رسوله بخفى حنين! لأن أيام الصليبيات انقضت بدون أمل فى رجوعها مطلقا .

فعزم يوحنا على تولى أمر الدفاع عن نفسه بنفسه . لذلك قلد كركهام، مادام حيا، رياسة مقاطعة من ضمنها (جندا)، الواقعة جنوب (آيلت)، وخليج أربى — وكان

المصريون قد استولو عليه أيضا، لفتح ثغر زولا — فرفع كركهام الراية الانجليزية عليها، ليحميها من تعدّيات مصر حماية فعالة .

ولكنه حدث فى سـنة ١٨٧٤ أن الأمير أحمد، سلطان هرر — وهرر كانت سُلطنة إسلامية مستقلة شرقى الحبشة؛ أسسها غزاة العرب بعد قيام الاسلام بقليل، وحكمتها أسرة من أهلها — مات وتولى السلطنة بعده الأمير محمد؛ وأن هذا السلطان الجديد استبد بالأهلين استبدادا لم يعد لهم معه طاقة على حكمه . فاستنجدوا (باسماعيل) وسألوه أن يرسل من قبـله واليا يتولاهم بدل سلطانهم . فأسرع (اسماعيل) الى إجابة سؤالهم؛ وأخذ يسعى فى شراء زيلع وبربرة، ميناءى هرر، من الدولة العلية . وما لبث أن نجح فى سعيه؛ وتنازل الباب العالى عنهما فى يوليه سنة ١٨٧٥ مقابل زيادة ١٣٣٦٥ جنيها على جزية مصر السـنوية . فامتد سلطان مصر على ساحل القلزم الغربى عامة، من خليج السويس الى تجوره، وتجاوزه الى رأس جردافوى على المحيط الهندى، متناولا بذلك ذات الأرض السومالية القصية .

شراء زيلع وبربرة

وانمـا رمى (اسماعيل) فى هذا المشترى الى غرضين : (الأوّل) إتمـام تطويق بلاد الحبشة من كل جانب، حتى من حيث لم يكن ليخطر لأحد على بال، لينال منها ما يريد؛ و(الثانى) تحقيق تحويل مجرى تجارة النيل الأعلى والبلاد الواقعة على البحيرات الى المحيط الهندى، تحويلا يكون كله فى مصلحة مصر .

بعثة عسكرية استعمارية الى هرر

ولكى تدل المظاهر دلالة واضحة على حقيقة النيات، أوفد من جهته فى السنة عينها بعثة تحت رياســة ماكيلوب باشا، مدير المنارات المصرية، ومعــه فدريجو باشا البحرى، والضابطان وورد، ولونج، الى نهر جوبا، ليفتح الطريق بين الهند وخط الاستواء . ورافقهم بسبعمائة أسرة سودانية موالية لتقيم على طول طريق الاتصال

بين ينابيع النهر العظيم ، وسواحل المحيط الكبير ؛ وجهز من جهة أخرى فى سبتمبر من السنة نفسها حملة مؤلفة من خمسة أورط من المشاة المصريين ، وبلوكين من الباشبوزق ، وثلاثمائة جمل ومدفعين جبليين ، وعدّة سواريخ حربية ؛ وعقد لواءها لرؤوف باشا الذى كان حاكما على (جندوكورو) حينما وصلها جوردون أوّل مرة .

أمّا بعثة ماكيلوب ، فانها نجحت فيما انتدبت لأجله ، نجاحا بشر بقرب تحقيق الآمال المعقودة عليه . ولكن مصالح مصر هناك مالبثت أن تضاربت مع مصالح الزنزبار ، واصطدمت بالمصالح البريطانية فى عدنه ؛ فهبت انجلترا الى الممانعة والمعارضة ، وانتهى الأمر بينها وبين الحكومة المصرية على أن بريطانيا تعترف بملكية الخديو لجميع البلاد الواقعة لغاية الدرجة العاشرة ؛ وأن الحكومة المصرية تعتبر جميع الموانى ، ما عدا زيلع ، حرة ومفتوحة الباب للاتجار .

احتلال هرر وقتل ملكها

وأما حملة رؤوف باشا ، فانها احتلت مدينة هرر فى ١١ أكتوبر سنة ١٨٧٥ ؛ وقبض قائدها على السلطان محمد وقتله خنقا ، وقتل معه خمسة وعشرين شيخا من الزعماء ، ليأمن كل اضطراب فى المستقبل ؛ ورفع العلم المصرى فى سماء تلك الأصقاع السحيقة[1] . وقد استمرت مصر قابضة على زمام الأحكام فى تلك البلاد الى أن كانت الثورة المهدية ؛ ولم يعد فى الاستطاعة إبقاء الجنود المصرية فيها ؛ فأخلتها لأهلها فى مارس سنة ١٨٨٤ ؛ فآلت الى الأحباش فى عهد الملك منليك .

توتر العلائق بين الحبشة ومصر

فزاد انتقال ملكية زيلع وبربرة الى الخديوية المصرية ، واحتلال الجنود المصرية هرر ، فى مضايقة النجاشى يوحنا ومخاوفه ؛ لأنه أصبح يلمس بيده التهديد الصادر عن مصر ، ويراه يتناول جهات متعدّدة حوله

(١) أنظر : كتاب "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى فى الحاشية ص ١٨٣

ولم يكن القوم، فى العاصمة المصرية، لا سيما المحيطون بالخديو، يخفون مقاصدهم؛ بل كانوا يجاهرون بهـا على رؤوس الأشهاد . فيتتبعون سير الفتوحات المصرية فى الجنوب والغرب والشرق، ويقولون بأعين تتألق فيها نيران الآمال والمطامع : «إن الأمور سائرة على مايرام؛ وقد حان وقت الإقدام والعمل. أما وقد اشترينا زيلع واحتللنا هرر، فان اكتساح الحبشة بات أمرا لازما ولم يعد منه مناص» .

غير أن الأمريكان مافتئوا يشيرون بالامتناع عن مناوأة الحبشة العداء؛ والحرص من الاشتباك معها فى حرب : إما لأنهم لم يكونوا يرون بعين الارتياح حلول الهلال الاسلامى، ولو كان بشير التمدين والعمران، محل الصليب المسيحى، ولو استظل تحت جناحيه التأخر والهمجية؛ وإما لأنهم كانوا يعتقدون أن مصر عاجزة عن فتح الحبشـة، ويعتبرون أن اكتساح قوة مصرية لتلك المملكة ضرب من المحال؛ وإما لأنهم كانوا يتوقعون أن تؤدى الحرب بين الدولتين الاسلاميـة والمسيحية الى تداخل دولة مسيحية غربية، كانجلترا مثلا، فى الأمر، تداخلا تكون عاقبته انخذال مصر.

ولكن الراغبين فى تلك الحرب، من رجال الحزب العسكرى المحيطين بالخديو، كانوا يسفهون آراءهم هذه، لا سيما الأخير منها، ويقولون بحق : «إن الدول الغربية اليوم إنما هى فى جانب التمدين، لا فى جانب التدين؛ فلا يهمها اسلام أو مسيحية؛ وإنمـا يهمها أن يسود العمران المعمور؛ وتنتشر المدنيـة بنعمها الشتى فوق ربوع العالم!» .

وكانت الأخبار التى تذاع يوميا، تارة عن تعمير مراكب وتجهيـزها فى مرافئ القلزم، وطورا عن فتح دارفور ورفع الأعلام المصرية على ضفاف نهرى السوبط

والنيل الأزرق ، أو فى سماء خط الاستواء ، وعلى سواحل المحيط الهندى ، تزيد فى حماسة القلوب والتهاب الأرواح، وتحمل على توقع إجراء تطلبه النفوس .

حملة أرندروب سنة ١٨٧٥

وإن القوم لكذلك ، واذا بنبأ ذاع فى الأندية الخاصة بأن الأميرالاى أرندروپ والقائمقام درهلز أقبلا يشتريان جزما طويلة وزمزميات وأشياء أخرى من التى يحتاج اليها فى الحملات البعيدة ، وما هما إلا يومان وفشا خبر سفر أرندروپ ودرهلز ومعهما القائمقام رشدى ابن مدير أسوان التركى ، واقتفاء الميجور دنيسون الأمريكى أثرهما ليلا .

وكان أرندروپ ملازما فى المدفعية الدانماركية ، جاء الى مصر طلبا للصحة والعافية ، فتعرّف به الجنرال ستون الأمريكانى ، وأعجب بأخلاقه وشمائله ، فحمله الخديو على استخدامه فى جيشه فى وظيفة نائب أميرالاى ، وما لبث أن رقى الى رتبة أميرالاى ، وعهدت اليه قيادة الحملة التى أعدّت . فانضم اليه فيها الكونت زيشى النمساوى — وكان قد نوى تعيينه حاكما على أحد الأقاليم المنتظر فتحها — وأراكيل نو بار ابن أخى نو بار باشا — وكان فى السابق محافظ مصوّع — وطالما فكر فى نيل فخار الفتح ومجده ، ومنى نفسه بأكاليل الانتصار، أسوة بأبطال الأزمنة اليونانية ، والرومانية القديمة ، فكان من أكبر أنصار الحملة وأنشط العاملين على بعثها ، بل كان هو الذى شكلها بأمانيه وأحلامه .

ولكى يختلط الأمر على النجاشى ، أرسل أرندروپ اليه كتابا فى ١٩ أكتوبر سنة ١٨٧٥ يهدئ خاطره ، ويسكن مخاوفه ، ويفهمه أن غرض حملته إنما هو تحديد التخوم بين الدولتين ، لا التعدّى والامتلاك . وكان يوحنا قد استولى على الحماسين ، وأقام فيها قوة للمحافظة عليها ، فانسحبت فى أوائل أكتوبر حالما سمعت بمجىء أرندروپ ، ولجأت الى داخلية البلاد ، تاركة فرقة فقط للمراقبة .

ومع أنه لم يصل ارندروب مدد ، بالرغم من أنه كان ينتظره ، لكى يزحف الى الأمام، فقد سار هذا الضابط بجيشه الصغير نحو (اسمرة) و (جودوفولاسى) و (عدى حواله)؛ و إذ لم يجد إلا مقاومة ضعيفة من الفرقة الحبشية المتروكة للراقبة عند مقاطعة الحماسين، اتخذ (عدوة)، إحدى عواصم يوحنا، وجهة لسيره؛ وانطلق يجد نحوها، غير مبال بالأخطار ، وغير عامل أدنى حساب لقوى خصمه ، بالرغم من أنه كان يجدر به أن يتيقظ ويحتاط .

فان الأسلحة النارية، من جهة، لم تكن تعوز الأحباش؛ لأنه علاوة على ما ترك لهم منها اللورد نابيير، وما سبق إدخاله منها بكثرة الى بلادهم، بواسطة زوجة مترنجر الحبشية، أيام أن كان زوجها قنصلا لانجلترا وفرنسا فى مصوّع، فان الحكومة الفرنساوية، فى خريف هذه السنة ١٨٧٥ ، أهدت الى النجاشى عدّة أسلحة نارية مختلفة؛ وأوصلها اليه فى (عدوة) المسيو دى سارزاك، القنصل الفرنساوى بمصوّع، الذى اجتاز للقيام بمهمته هذه، صفوف ارندروب نفسها ، دون أن تستطيع تلك الصفوف، بسبب صفته الرسمية، أن توقفه وتستولى على الهدية؛ مع أنه كان يحق لأرندروب أن يعتبرها صادرة عن نية عدائية ورامية الى تعضيد الحبشان على مصر، فيصادرها ، أو على الأقل يؤجل وصولها الى المرسلة اليـه حتى تضع الحرب ضدّه أوزارها؛ ومن جهة أخرى، فان صحافيين انجليزيين، كانا قد رافقا حملته مذ أوغلت فى بلاد الأعداء ، وخدماه بضع خدم أثابهما عليهـا بمبلغ ٢٠٠ ريال ، اختفيا بغتة فى جهة الأحباش دون أن يعـلم بتأكيد : أفعـلا ذلك من باب الخيانة ، وليطلعا النجاشى على تصميمات الحملة المصرية؛ أم وقعا بالرغم منهما فى الأسر[١] ؟

(١) أنظر : "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى : الفصل السابع عشر، والفصل الثامن عشر .

مهما يكن من الأمر، فان يوحنا علم فى ٢١ أكتوبر بزحف المصريين نحو (أسمرة) . فاستنفر فى الحال عموم المقاتلين من رعاياه فى سائر أنحاء مملكته؛ فتقاطروا اليه أفواجا أفواجا .

فسار من (عدوة) فى ٣٠ أكتوبر الى مقابلة عدوه بجيش يعد بعشرات الآلاف؛ وكان ارندروپ قد تقدّم نحو بلدة يقال لها (تزاتزيجا) حيث انضم اليه ألف سودانى من حامية (سنهيت) وحيث حشد قواه ، فاذا بها تبلغ ألفين وخمسمائة جندى مسلحين ببنادق رمنجتن، وبطاريتين من المدافع الجبلية، وست بطاريات سواريخ، وجماعة من الخيالة؛ فسار بها الى (ديباروا) و(عدّى ماچنتا) و(جودوفولاسى) وهاجم نقطة جيش بالقرب من (ماچنتا) ليلا ؛ فانهزمت؛ ولم يجرح من المصريين سوى اثنين . ولما كانت جبال الاسمرة وعرة ، وتسيير المؤن فيها عسيرا، اختير للسير بعد ذلك طريق (قياخور) و(جودوفولاسى) . فأقيم القائمقام رائف بك فى ممر قياخور بأربع جماعات من البيادة، ومدفعين جبليين؛ وضم اليه الضابط درهلز بجماعتين من البيادة، ومدفعى ساروخ . ولكن هذا الضابط سار بعد ذلك الى مركز فى الأمام يقال له (تزاناتجلى)؛ وأقام فى (ساجاينت) على مسيرة يومين جنوب (قياخور) .

أما ارندروپ فتحصن فى (جودوفولاسى)؛ وسير الكونت زيخى بست جماعات من السود، ومدفعين وساروخين للاستطلاع . فتقدّم الكونت فى جهة (عدّى حواله) على بعد عشر ساعات من (عدوة)، رائدا مستكشفا . فتأكد من قيام يوحنا بجيشه من عاصمته ، وسيره الى الحرب . فأخبر بذلك ارندروپ .

فزحف هذا بكل قوته الى (عدى حواله)؛ وبلغها فى ٥ نوفمبر؛ فوجد زيخى مقيما على بعد ثلاثة أميال الى الأمام ، فى وادى قوندت ، بجماعتين من السود تحت قيادة

الميچور إجلير، بالقرب من نهر يقال له المأرب؛ ولكن النقطة التى اختارها لكمينه لم تعجب الضابط دنيوب ؛ وعدها معرضة لأخطار جسيمة . فخالفه أرندروپ فى رأيه؛ ووافق على بقاء زيخى فيها؛ ثم استدعى النائب (محمد)، وأرسله فى ٦ نوفمبر الى الملك لفتح باب مخابرات معه .

فرأى الرجل أن يتجاوز التعليمات التى أعطيت اليـه ، فيخدع يوحنا ، ويدخل فى خدمته ، ويسرق أسرار حركاته وسكناته ، ويرافقه الى قتال المصريين ، ثم يتخلى عنه فى الساعة المناسـبة تخليا ينجم عنه سحقه . فبرز أمامه بلباس عسكرى مصرى ؛ وادعى أنه أهين وامتهن، فغضب وخرج للانضمام الى بنى جنســه تحت راية ملكه لكى يكفر، وهو يقاتل الى جانبه، عن الذنب الذى ارتكبه فى انضمامه الى أعدائه .

فلم تنطل الحيلة على النجاشى؛ وأمر بالنائب ومن معه، فكبلوا بالحديد، وزجوا فى أعماق السجون .

ولما استبطأ أرندروپ عودتهم، اختلف بين أن يظن فيهم شرا، أو يعتقد وقوعهم فى مكروه . فأقبل يبث الرواد لاستطلاع الأخبار؛ وبعث يستدعى مؤخرته من (جودوفولاسى) .

هذا ويوحنا يمكر به ويخدعه؛ فيتقدم تارة، ثم يختفى؛ ثم يظهر بغتة، ولا يلبث أن يعود الى الاختفاء، لإطماع عدوه فى نفسه، حتى انطلت حيلته على المتحمسين فى الجيش المصرى . فأشاروا على أرندروپ أن يتخلى عن خطة الحرص الزائد ؛ ويتدرع بالخسارة اللازمة؛ ويسـير هو الى ملاقاة الخصم المحجم عن التقدم . فانقاد أرندروپ الى تحريضاتهم ؛ وترك أعالى (عدى حواله) المنيعة؛ ونزل الى (قوندت) مجتهدا فى التقدم سرا، ليسبق الملك القادم فى وادى مأرب، ويباغته .

وحدث أن فرقة حبشية، من مقدّمة النجاشي، كانت قد اقتربت من (قوندت) بنية الاستيلاء عليها! فاعترى أهلها الرعب، وطلبوا حماية الجيش المصري؛ فأسرع المصريون الى حمايتهم، وانقضوا على رجال تلك الفرقة وأثخنوا فيهم؛ فجرحوا عدّة، وقتلوا آخرين . وتناول جنود من جماعات السود قتيلا ، فمثلوا به وخصوه ، طبقا لعاداتهم المتبعة في حروبهم مع الحبشان؛ فاستشاط أرندروپ غضبا؛ واتخذ اجراءات صارمة لمنع العود الى تلك الفظاعة .

ولكن المناوشة التي وقعت بين رجاله ورجال متقدّمة النجاشي فتحت عينيه الى خطورة مركزه وضعفه . فخاف على قوّة زيخي — الواقفة على انفراد، بعيدا — أن يتمكن العدوّ من قطعها عنه، والعمل على إفنائها قبل تمكنه من إنجادها . فأرسل في ١٤ نوفمبر القائمقام رشدي مع نصف جماعة الى جنوب (عدى حواله) لحماية الطريق الموصلة الى الهضبة التي تخلى عنها؛ وأرسل دنيسون بقوّة مثلها لحماية الجانب الثاني؛ ونزل هو على رأس أربع جماعات بمدفعين جبليين لينضم الى زيخي في الوادي .

فلما جنّ الليل، وصل جيش يوحنا؛ واحتشد على ضفة المأرب اليسرى؛ وسطعت أنوار معسكره على مسافة أميال عديدة، في وسط الظلام الحالك المحيط .

وقضى القائدان ليلتهما في استعداد للهجوم صباحا؛ فأرسل أرندروپ أمرا مشدّدا الى روشتان بك في (عدى حواله) بأن يتقدّم عند طلوع النهار بخمس جماعات ومدفعين جبليين وساروخين والأثقال الى (قوندت)، وأن يعسكر هناك؛ وأمر دنيسون ورشدي بالرجوع أيضا الى (عدى حواله) في الفجر؛ وأن يستلم دنيسون القيادة العامة هناك ، ويقيم في انتظار الأوامر؛ وبعد أن ترك جماعة في (قوندت)

لحفظها ، ريثما تصلها جنود روشتان بك ، وأقام جماعة أخرى للمحافظة على الممر بين الجبال، ومنع العدوّ من مؤخرته ، سار بثمان جماعات من البيادة، وأربعة مدافع جبلية وساروخين، ليباغت الملك فى معسكره .

ولكن يوحنا لم يكن بالرجل الذى يؤخذ على غرة؛ فان حياته ، وهو لص وقاطع طريق، كانت قد علمته دوام اليقظة ؛ وكانت الطبيعة، من جهة أخرى ، خصته بمواهب حربية نسبية ، جعلته عدوا مهيبا . فكأنه أدرك ما وقع فى خلد ارندروب من أمر مباغتته . فحرّك جيشه من مكانه؛ وانثنى به الى موقع وافق من نفسه هوى؛ لأنه كان يقصد، هو أيضا، أن يباغت عدوّه .

وقعة قندت ١٥ نوفمبر سنة ١٨٧٥

وفى الواقع ، فان الجيشين بعـد مسير ساعة أو ساعتين تلاحما بغتة على ضفاف المأرب ، وتهاجما فى بادئ الأمر ، بعجلة غير نظاميـة . وكانت المدفعيـة معتمد ارندروب فى عشمه بالفوز؛ فتمكنت من اتخاذ موقفها؛ ولكن طبيعة المكان الذى اختاره النجاشى للقتال حصرت مدى نيرانها ، وجعلتها عديمة الجدوى . أضف الى ذلك أن البيادة المصرية ، ولو أنها أطلقت نيران بنادقها فى الخلاء المفتوح، ففتكت بالأعداء فى بادئ الهجوم فتكا ذريعا ، إلا أنها لم تعرف كيف تنتفع من مواقع الأماكن . ولا كيف تستخدم ضفة النهر استخداما مجديا نفعا . فزحف الأحباش على رجال السلاحين، وسيوفهم مشهرة، وهم ألف على كل عشرة مصريين؛ وانقلبوا عليهم من كل جانب؛ وضغطوا عليهم بين صفوفهم المتتابعة ضغطا شديدا . فما هى إلا نصف ساعة حتى قتلوهم الى آخر واحد منهم، دون أن يوقف الأيدى المرفوعة — للفتك، والجزر — تضرع أو استرحام من واقف أو جاث على ركبتيه .

مسكينة تلك القوة ! هـذا الموت الفظيع كان مقـدورا لها ! ومن لم يمت منها بالرصاص مات بالسيف ؛ ومن لم يمت بالرمح مات بالنبوت ! وخصى الأحباش بعد ذلك الجثث ، ليحمل كل فائز من أولئك الهمجيين ما يستطيع من مخاصى أعدائه ، فيعلقها على باب بيتـه دلالة على انتصاره ، وعلامة على الفخر الذى أحرزه بقتـل رجال الأعداء . وهذه هى عادتهم منذ زمان بعيد ، كما كانت عادة هنود أمريكا الحمر أن يعلقوا على أبواب أكواخهم جلود رءوس أعدائهـم المسلوخة عن جماجمهم بشعرها !

و بينما جمهور قوات النجاشى يقضى هذا القضاء المبرم على أرندروپ ومن معه ، اندفعت فرقة حبشية أخرى لمهاجمة جنود روشتان بك ! لأن هـذه ، وقد سمعت ضوضاء القتال وضجته ، كانت قد أسرعت الى نجدة رفاقها ، ونزلت من الجبل بجلبة وضوضاء ، مختلطة الحابل بالنابل ، جمالا وخيلا ، ورجالا ، وانتشرت ، بياده ومدفعية ، وحيوانات أثقال ، من (عدى حواله) الى (قوندت) . فداهمها الأحباش بغتة .

ولكنها لم تنذعر ، واستفاد روشتان بك من المنحدر الذى كان وراءه ليجمع شمل قواه بسرعة حوله ، واختار لمدفعيته موقعا مشرفا على ميدان القتال بأسره . فدارت المعركة بين الطرفين بحدة ، وتراوحت النتيجة بينهما برهة .

غير أن باقى قوى الملك ما لبثت أن فرغت من مجزرة أرندروپ ، وتحولت هادرة ، كمياه غدير متدفق ، الى مقاتلة جنود روشتان بك . فطوقتها من كل جهة ، من الجبهة والجانبين والخلف ، واندفعت عليها ، والألوف فيها تزاحم الألوف . فما هى إلا ساعة حتى داستها دوسا وهرستها هرسا ، جاعلة إياها كوما واحدا لا يعرف أحد فيـه ، كوم لحم بشرى دام !

على أن قوّادها لم يروا هــذا المنظر الفظيع ! فروشتان بك أصيب فى أوّل القتال بجرح فى رأسه ؛ فربطه بمنديل واستمرّ يشجع رجاله ويقاتل قتال الأبطال حتى أصيب برصاصة أخرى ، فلم يغادر مكانه . وبينما هو يلفظ نفسه الأخير بزفير، أمر جنوده بالحمل على العدو برؤوس الحراب وصدّها . فمات وجنده يأتمر بأمره ، ويحمل حملة عنيفة .

وأراكيل بك نوبار جرح جرحا خطيرا فى مبدأ التلاحم . فلم يثبط الدم السائل منـه بغزارة همته ؛ وما انفك يقاتل كليث ، حتى تيقن أن الآمال كلها ضاعت . فتسلق صخرة عالية ، وشرب جرعة ، ثم أطلق مسدسه على نفسه ، وخر قتيلا .

ويروى عن ارندروب ، لمـا أحاط به الأعداء ، أنه فرغ أولا مسدسه على أقربهم اليه ، ثم امتشق حسامه ، وقاتل قتالا مروّعا ، حتى جدّل على كوم من حبشان ، قطع صارمه أعمارهم ، فسقط معه ثمانمائة رجل ؛ وسقط ألف مع روشتان بك ؛ ووقعت المدفعيـة والأسلحة برمتها فى أيدى الأحباش ، وسـبعون ألف ريال ، وكل من لم يقتل — وكانوا قليلين — من ضمنهم ثلاثون أسود ، صرخوا مذ أحاط بهم الأعداء "ماريكونى" أى خذونى ؛ فنجوا بذلك من الموت والخصى معا .

وإزاء هذه الخسائر المصرية الفادحة لم يفقد الأحباش سـوى ٣٥٠ رجلا بين جريح وقتيل !

أما رشدى ودنيسون فانهما ، امتثالا للأوامر الصادرة اليهما ، كانا قد أقاما على قمة الجبل (بعــدى حواله) يترقبان . فأتاهما فى صباح المعركتين حبشى مصادق وأخبرهما بانتشاب القتال ، فأرسلا يستطلعان ، واذا بعسكرى مصرى ، فاز بنفسه من القوّتين المسحوقتين ، أتى وأخبرهما بما حصل ؛ فأخذا يسـتعدّان للقتال ، وتحصنا

بسور بنوه بسرعة . فظهر العدو أمامهما بقوة، مرتين أو ثلاث مرات ، فى ذلك النهار المشئوم ، دون أن يشتبك معهما فى حرب . فما زادهما ذلك إلا حماسة فى استعدادهما وعزمهما . وإنهما لكذلك ، واذا بعسكرى ممن مثل بهم وأمكنهم الفرار قد أتى فى حال يرثى لها ، ثم أعقبه آخرون، فأخبروا بالكارثة المخيفة والمصيبة الجلى ، وألقوا الفزع فى قلوب الجنود، ففرقوا على أنفسهم ، وسقطوا فى أيديهم . ولولا عزم القائدين وحزمهما لفرّوا هاربين . ولكن دنيسون ورشدى قويا عزائمهم وحملاهم على التترس والتحصن . وما وافى الليل إلا وأتاهم الجند الذى كان وضعه ارندروپ، المنكود الحظ ، على جبل قوندت ؛ وكانوا قد رأوا المعركتين والكيفية الدموية التى انتهيتا اليها، فأسرعوا للانضمام الى قوّة دنيسون الوحيدة الباقية .

فلما بزغ الصباح ، علت تهاليل الأحباش بالفوز الذى أوتوه، فكانت كأنها زئير أسودٍ عاجة ، وشابهت ما انشق عن صدورهم منها، فى هجماتهم القتالية ، فى اليوم البارح . وكانت زمرة آتية من (قياخور) بمؤن للجيش ، فخاف سائقوا القطعان فيها، وهربوا، ولم يبلغ (عدى حواله) سوى نصف القادمين .

ثم تعاقبت الأخبار على دنيسون مضطربة ، مزعجة ؛ فعزم على التقدم بقوّة الى شفا الجرف ليتحقق صحتها بنفسه . لذلك أمر بجماعتين ومدفعين بالسير الى الأمام. فرفض الجند الطاعة من شدّة خوفهم . واذا بطلب من الملك يوحنا وصل الى دنيسون يسأله التسليم بمن معه، واذا بألفى حبشى أو ثلاثة آلاف ظهروا وراء القوة المصرية ، مهدّدين مواصلاتها ، ليعززوا طلب ملكهم . وكان نص هذا الطلب كالآتى :

«اذا سلمتم، أوصلتكم الى حدودكم بأمان، إلا اذا فضلتم البقاء فى بلادى» .

فأجاب دنيسون «أن التسليم غير ممكن ، إلا اذا وافق عليه القائد المصرى الغائب فى (آسا)؛ وانى لمبلغه طلب الملك فى الحال !» . وانما أجاب بذلك ليكسب وقتا .

وكان يوحنا قد عهد الى دجاش هاتلو ، حاكم الحماسين ، وجنوده ، فى مهمة القضاء على القوة المصرية المعسكرة فى (عدى حواله)؛ ولكنه بعد فوزه على أرندروب ، اتضح له من الأوراق التى استولى عليها أن دجاش هاتلو خائن اتفق عليه مع أعدائه ، فحبسه . فأدى ذلك الى امتناع جنود حاكم الحماسين عن القتال واستراحتهم على أسلحتهم أربع وعشرين ساعة .

فاستفادت القوة المصرية المعسكرة فى (عدى حوالة) من هذه الفرصة غير المنتظرة ؛ وأخذت تنسحب من مراكزها انسحابا فى منتهى الصعوبة ، فى طرق وعرة شائكة ، وليس مع كل جندى من جنودها سوى بقسماطتين أو ثلاث بقسماطات . فمرّت بجودوفولاسى ، والرعب يملؤها ، وهى تتوقع هجوم الاعداء عليها فى كل وقت . ولولا أن رشدى ودنيسون هدّدا بمسدّساتهما الجنود لفرّوا ذعرا .

ومع ذلك فان الأحباش — وكانوا يتعقبونهم من كثب — أسروا سبعة وستين متأخرا منهم ، قبل وصول القوة الى (قرع) و (قياخور) ؛ ولكن هذه القوّة تمكنت فى ١٨ نوفمبر من البلوغ الى ممر قياخور ، بعد تكبد مشقات لا تحصى ، ومتاعب لا توصف . فانضمت هناك الى قوى رائف بك ، واستلم هذا الضابط القيادة العامة . فأشار دنيسون عليه بوجوب إخطار الميجور درهلز بساجانييت ، بضرورة انضمامه اليه وانتظاره فى مكانه ؛ فأبى . فطلب دنيسون منه أن يخطره على الأقل بنكبة أرندروب ، ليكون على حذر ويتخذ الاحتياطات اللازمة لنجاته . فأجابه الى ذلك ؛ وأصدر أمره الى درهلز بالانسحاب الى مصوّع .

وكان درهلز قد سمع بما أصاب القائد العام ! فارتدّ الى مصوّع عن طريق (عدى رسو) و (اركيكو) ؛ وأصبح فى مأمن من الطوارئ .

واستمرّ رائف على الانسحاب ؛ ولكن جيشه تاه فى سهل (حاله) وضل الجنود طريقهم بين التلال؛ وأنهكهم التعب . وأنهم لفى حالة خور نفوس، واذا بصيحة راع علت فى الفضاء المحيط . فظنوها صيحة الأحباش واعتقدوا أن هؤلاء الأعداء المهيبين أوشكوا أن ينقضوا عليهم. فاعتراهم رعب طائش. فألقوا بسلاحهم وملابسهم والتمسوا الحياة من الفرار .

ولكن الضباط تمكنوا فى الليل من جمعهم والسير بهم الى (عدى رسو) باجتياز جبل بميا، وبعد قطع مسافة مائة وخمسة عشر ميلا . هناك اطمأن الجند وناموا؛ ثم ساروا الى (نيغص) فناموا فيها . وفى صباح اليوم التانى ساروا الى مصوّع . وكان رشدى ودنيسون ، بعد ما تأكدا من زوال كل خطر ، قد سبقاهم اليها ، ليخطرا العاصمة المصرية بما حدث .

أما النجاشى، فانه سار فى ١٧ نوفمبر الى (عدى حواله) حيث كانت معسكرة القوّة المنسحبة، فاذا بتلك البلدة قد احترقت عن آخرها، دون أن يعلم من أحرقها . وبينما هو مقيم فيها ، يستمرئ لذة نصره، أتاه خبر القضاء على منزنجر وقوّته؛ ونبأ فشل الحملة التى زحفت من (المتمة) الى الحدود الحبشية، فزاد بذلك سروره . أما منزنجر بك، فانه كان يتوقع تعيينه هو نفسه قائدا للحملة التى وضعت تحت قيادة الأميرالاى ارندروب ؛ لأنه كان يعتبر ذاته أكفأ الناس للقيام بالمهمة المعهود بها الى ذلك الدانمركى : (أوّلا) لوقوفه أكثر من غيره على أحوال الحبشة ودخائلها؛ و(ثانيا) لسابقة خدماته في ذلك الميدان . فلما خابت آماله وعقد لواء الحملة لأرندروب، أخذ يفكر

فى عمل يعمله من تلقاء نفسه ، يعود بالفخر العظيم عليه ، ويعلى منزلته علوا كبيرا فى عينى الخديو . فجمع زمرة من الأتباع والموالين له ، واستأجر الأدلاء والخبراء من الحبشان أنفسهم ، ونزل فى خليج انثلا ، ودخل الحبشة أثناء تقدّم حملة أرندروب ، وغرضه البلوغ الى سهول الملح أو مضيق صنافة . فلازم الأدلاء ركابه ، خديعة منهم ومكرا ، حتى قادوه الى شواطئ بحيرة يقال لها "ادسه" فى بلاد قوم يدعون "التاتلز" . فنصب التعس هنالك خيامه ، ولما جنّ الليل أوقد أتباعه النيران للاصطلاء والطبخ ، واستعدّوا للبيت . وكان سيدهم قد اصطحب معه فى حملته هذه المشئومة امرأته الحبشية وأولاده وبناته ، وجملة من الخدم والحواشى ، كأنه ذاهب بهم الى عرس أو وليمة أعدّت لهم على الرحب والسعة ، لا داخل فى بلاد أعداء يعد ملكهم أنه أهين فى كرامته ، وامتهن فى حقوقه . فأكلوا وناموا والطمأنينة فى قلوبهم ، والأمانى ترقص فى أحلامهم .

ذبح منزنجر ومن معه

وإذا بجماعة من الأحباش دبوا الى مخيمهم فى منتصف الليل ، وأعملوا السيوف فيهم . فهبوا من نومهم مذعورين ، وأرادوا الدفاع عن أنفسهم فلم يمكنهم الخوف من ذلك . فأثخن الحبشان فيهم قتلا وطعنا حتى أفنوهم أو كادوا ، ودخلوا على منزنجر فى سرادقه ، كأنهم شياطين الجحيم فى ذلك الليل البهيم ، فذبحوه مع امرأته وبناته وأولاده ذبح الخرفان ، وذبحوا جميع حاشيته وأتباعه ، وأخذوا كل ما وجدوه من سلاح ومؤن وذخيرة وخيام ودواب .

وأما الحملة من (المتمة) فانها تألفت من ست جماعات مصرية ، قامت الى التخوم الحبشية الشمالية الغربية فى غضون سير حملة أرندروب الى حدودها الشمالية الشرقية ، لتحويل جانب من قوة النجاشي اليها ، وتمكين أرندروب من القيام بمهمته . ولكن

قوّة الأحباش كانت أكبر من أن تجزئها قوة صغيرة كهذه . فصدّ يوحنا حملة (المتمة) وهو يدير رحى القتال فى (قوندت) .

وكانت العاصمة المصرية، منذ أن فشت فيها أخبار الحملات على الحبشة، باتت شيقة للوقوف على تفاصيل حركاتها، ومتوقعة أن يكون النصر قرينها، بذات السهولة التى اقترن بها فى الحملات السودانية . وبما أن الألسنة تذيع عادة الأنباء التى ترتاح اليها القلوب ، فان الاشاعات عن نصر ساحق أحرزته حملة أرندروب طفقت تنتشر أوّلا فى الأوساط الرسمية، فتثير شعور فرح أو شعور حسد حسبما كانت الأذن السامعة أذن صديق أم أذن حسود، ثم انتشرت فى الأندية والمجتمعات عينها، وأبهجتها .

ولكن الأنباء الصحيحة ما لبثت أن وردت؛ فقلبت شعور الفرح الى شعور كدر وغم؛ وشعور الحسد الى شعور شماتة وتهكم . على أن الدوائر الرسمية أظهرت رغبتها فى التكتم وإخفاء الحقائق ! لأن النكبة كانت من شأنها أن تنفر النفوس الغربية من الحكومة المصرية، سياسيا وماليا . فأيام الشدائد المالية كانت أخذت تطل من الآفاق؛ وحوادث الصعوبات مع فرنسا، بشأن الاصلاح القضائى، كانت قائمة على قدم وساق، تزداد تعقدا كلما اجتهد فى الوصول الى حلها .

وغلبت على تلك الدوائر الفكرة بوجوب المبادرة الى تجهيز حملة أخرى، تحاط بجميع مسببات الفوز وتسييرها فى الحال للاقتصاص من الأحباش ، والانتقام لمجد مصر المهين؛ بحيث تبلغ الغرب فى آن واحد أنباء كسرة أرندروب، وأنباء فوز الحملة المرسلة للثأر لها، فوزا ساحقا ! فتستمر الثقة بمصر تامة، بل تزداد رسوخا .

حملة راتب باشا

فعبئت أربعة آلايات من البيادة ، أى ٩٦٠٠ عسكرى ؛ وآلاى من السوارى أي ٨٠٠ فارس ؛ وخمس فرق من الفاريّن ؛ وبطاريتا ميدان إحداهما من نحاس

والأخرى من صلب، وكل منهما مركبة من ست قطع ؛و بطاريتا جبل ؛ وبطارية ساروخ ؛ يجرها جميعها ٣٣٤ بغلا ؛ ويقوم بخدمتها ٤٧٤ مدفعيا بضباطهم وعددهم أربعة وعشرون . وأضيف الى هذه القوة آلاى بيادة من السود ؛ وهيئة أركان حرب مؤلفة من رئيس وأمير لواء وثلاثة أمراء آلاى وستة قائمي مقام ويوز باشيين وثلاثة ملازمين أول وعشرون ملازم ثان وأربعة عشر عسكريا ؛ فبلغ مجموع الحملة ١١١٢٠ عسكريا و١٠٥٨ حصانا و١٢٠٤ بغال ؛ وحسب أنه بانضمامه الى بقايا حملة آرندروب يتكوّن منه جيش قدره ١٢٠٠٠ ؛ ولم تكن بالقوة التى يستهان بها ، على شرط عقد لوائها الى رجل ذى كفاءة تامة . ولكن الصعوبة كلها كانت فى اختيار ذلك الرجل وتعيينه . فالخديو — لعلمه بأن ليس بين كبار ضباطه من أتراك وشراكسة من يصلح للقيادة العامة ، ولعدم وجود ضباط مصريين فى هيئة العسكرية العليا — كان ميالا الى عقد لواء الحملة لضابط من كبار ضباط الأمريكان ، المتكوّنة منهم هيئة أركان حرب الجيش : كالجنرال ستون أو الجنرال لورنج ، لوثوقه الكلى بهم ، وركونه الى جدارتهم . وكان يعضده فى ميله هذا ، ويقوّى عزمه عليه ، الرجال — وعلى رأسهم نوبار باشا ، وزير الخارجية فى تلك السنة — الراغبون فى الفرنج ؛ المقتنعون بوجوب استخدام معارفهم ومعلوماتهم وكفاءتهم ؛ العاملون على بثهم فى جميع المصالح لكى ينظموها من جهة ، ويعلموا المصريين من جهة أخرى كيف يستغنون عنهم فى القريب العاجل .

الحزبان المتضاربان حول الخديو

غير أنه كان هنالك حزب آخر — وعلى رأسه شريف باشا واسماعيل صديق باشا — يكره الفرنج ويمقتهم ويستنكر وجودهم فى مصالح البلاد واشتراكهم فى شؤونها ؛ ويبذل جهده فى إقصائهم وإبعاد أيديهم عن الأعمال التى استقدموا للقيام بها . ولولا أنه

كان منقسما على ذاته الى قسمين : "التركى" وزعيمه شريف باشا، و"المصرى" وزعيمه اسماعيل صديق باشا؛ وأن التركى نفسه كان منقسما الى قسمين: "الشركسى" و"التركى"؛ وكل من القسمين يكره الآخر ويدس له الدسائس، بينما الشراكسة لا يقبلون الأتراك، والأتراك يمحون الشراكسة — لما جعل للرجال الراغبين فى استخدام الفرنج مركزا، ولا أبقى لهم مكانا.

ذلك الحزب المعادى للغربيين ما فتئ يقبح (لاسماعيل) تعيين أمريكى على رأس الحملة المعدّة؛ ويتخذ من الكارثة التى محقت أرندروب حجة لتسفيه أراء القائلين بعدم استغناء الحال عن الفرنج؛ ومرغبا لتعيين ضابط شرقى، هذه الدفعة، ولو من قبيل الاختبار والتجربة، ليقود أعلام مصر الاسلامية الى الأخذ بالثأر من الحبشة المسيحية، للمصريين الذين قتلوا فى (قوندت)؛ حتى تغلب رجاله على جهود خصومهم وميول (اسماعيل) عينها؛ وحملوا الخديو على تسليم لواء الحملة الى السردار راتب باشا.

راتب باشا

وراتب هذا شركسى من أنسباء شريف باشا؛ والمعروف عنه أنه أبى النفس، شجاع، لا يحتمل التصغير ولا يهاب الموت. ويروى، لتأييد ذلك عنه، أن (محمد سعيد باشا) — وقد كان راتب مملوكه، وهو الذى رباه فى كنفه، وأرسله على نفقته الخاصة الى فرنسا ليتعلم فى مدارسها الحربية — غضب عليه ذات يوم، وهو أميرالاى، فاستدعاه اليه؛ وبعد أن أشبعه لوما وتأنيبا وزجرا اندفع فى تيار سخطه عليه الى حدّ بعيد فرفع يده — وكانت لضخامتها تعدّ مخلوقة لصفع الفيلة — ولطمه بها على خدّه، وطرده من أمامه. فخرج راتب الى حجرة مجاورة، وتناول مسدّسا، وأطلقه على نفسه من جهة فمه بقصد الانتحار لعدم رغبته فى الحياة بعد الاهانة التى لحقته؛ ولعدم تمكنه من التفكر فى الانتقام لنفسه من مولاه وولى نعمته. فخرقت

الرصاصة خدّه ، ونفذت من تحت قاعدة أنفه من الشمال ، دون أن تصيب منـه مقتلا . فحمل داميا الى بيته ؛ وما نقه من جرحه أو كاد إلا وفرّ الى الأستانة ، خوفا من بطش (ســعيد) به ، مع أن (سعيدا) — وكانت تعجبه جدا أعمـال الشجاعة ومظاهرها ، ولم يكن من طبعه يدرى ما هو الحقد — كان قد أكبر عمله ، وأعاد رضاه عنه ، فى سره ، اليه ؛ ولم يكن منتظرا سوى شفائه لاعلاء منزلته والزيادة فى تقريبه من نفسه . ولم يعـد من عاصمة الاسلام إلا بعـد وفاة مولاه . فاتخذه (اسماعيل) سردارا لجيشه . وراتب هذا قصير القامة ، أسمر اللون سمرة شديدة ، لأن أمه كانت جارية سوداء ، وهو بسبب كثرة انهما كه فى الملاذ الجسدية نحيف نحيل ناشف ، كأنه جسم مصبر ، أو إحدى موميات العصور الخالية [1] .

على أن (اسماعيل) وان انقاد الى مؤثرات حزب شريف واسماعيل صدّيق ، وعين راتب باشا نهائيا قائدا عاما للحملة الحبشية ، لم يكن بالرجل الذى يعمى نفســه عن الأخطار التى قد تنجم لجيشــه عن مثل ذلك التعيين ؛ . فرأى أن يخفف من وطأتها ، ويزيل من شرها ، بضم الجـنرال لورنج الأمريكى وبعض ضباط آخرين من كبار ضباط أركان الحرب زملائه الأجانب الى الحملة : الأول بصفة رئيس أركان حرب للجيش ، والباقون بصفتهم ضباطا تابعين له ، ليجد راتب فى حكمتهم ودرايتهم العسكرية ما يتمكن به من القيام ، قياما محمودا ، بالمهمة المعهود بها اليه .

فارتاح حزب نوبار الى هذا التعيين الأخير ، واعتقدوه كافلا لسلامة الحملة ، لتيقنهم من أن راتب باشا سينقاد حتما الى مشورات لورنج وزملائه ونصائحهم ، ويأخذ بها ، فلا يرتكب شططا ، ولا يلقى بنفســه فى تهلكة . ولم يتكدر من التعيين عينه حزب

(١) مات راتب باشا منذ نيف وعام ؛ وقد عمر قرنا على ما يقال .

شريف واسماعيل صديق ، لتيقنه من أنه لن يكون للورنج وزملائه أقل نفوذ على السردار، وأن راتب باشا سيهمل نصائحهم وارشاداتهم، ويضرب بها عرض الحائط، مع بقاء المسئولية، فى حال وقوع نكبة، عليهم شخصيا .

ولكى يظهر (اسماعيل) بجلاء أن غرضه من تسليم القيادة العليا الى شرقى، وتسليم رياسة أركان الحرب الى غربى انما هو أن يعمل العنصران معا، كل على قدر طاقته، وبنسبة مواهبه، على مافيه خير البلاد، جمع كبار ضباط الحملة من العنصرين، ثلاث مرات متوالية عنده، ليلقى عليهم تعليماته الأخيرة، وذلك بحضور ابنه الأمير حسين، ناظر حربيته (وهو المغفور له سلطاننا الكامل حسين الأول المبكى عليه كثيرا) ونوبار باشا وشريف باشا وصديق باشا وغيرهم . ففى أول اجتماع أفهمهم أن سلامة الجيش قائمة على اتحاد القيادة العليا وهيئة أركان الحرب اتحادا تاما فى جميع الشؤون . ولاضطراره الى التغيب فى الاجتماع الثانى، بسبب وفاة أخيه الأمير مصطفى فاضل فى الأستانة يوم ٣ ديسمبر سنة ١٨٧٥، أناب عنه ابنه الكامل فى بذر بذور الاخاء بين العنصرين . وفى ثالث اجتماع سلم بيده لراتب باشا تصميم خطة للحملة وضعه الجنرال ستون ؛ وأفهمه جليا أن الغرض منها انما هو استرجاع مهابة مصر فى أعين السودان وأوروبا ؛ وأنه يلزمه، والحالة هذه، محاربة النجاشى، ومواقعته فى ميدان مفتوح، والانتصار عليه، حتى لو اقتضت الحال ذهابه بالجيش الى عاصمته ؛ على أن يكون ذلك قبل شهر مايو سنة ١٨٧٦

وطلب نوبار باشا الى الخديو أن يوصى راتبا وباقى قواد الحملة بمراعاة شروط الحرب وأصولها المتفق عليها عند الأمم المتمدينة : فيمنعون الجيش عن ارتكاب أى عمل وحشى ؛ ويحملون الجند على تجنب الاساءة الى غير المحاربين من الجيوش ؛

فلا يقطعون زرعا، ولا يتلفون ضرعا، ولا يحرقون بيتا، ولا يعملون، بالاختصار، عملا فظا لا تجعلهم المقتضيات الحربية فى اضطرار الى ارتكابه .

فلم يكتف (اسماعيل) بتوصيـة سرداره بذلك جميعه ؛ بل إنه جعله مسـئولا ، مسئولية شخصية، عن كل مخالفة فى هذا السبيل . ثم استدعى الجنرال لورنج وجمع يده أمام نوبار باشا الى يد راتب، وقال لهما : «إنى أرغب اليكما أن تعملا معا كأخين؛ وتراعيا الله والبلاد فى العساكر المسلمة أعمارهم اليكما» . وأوصى راتبا بالاصغاء الى نصائح لورنج والعمل بها[1] .

سفر الحملة

ومن ثم سافرت الحمـلة الى السويس ؛ وخرج الأمير حسين ونوبار باشا وغيرهما من ذوى المقامات الرفيعـة الى محطة مصر لتوديع القوّاد . فأقلهم القطار الى ذلك الثغر القلزمى، حيث استقلوا "الدقهلية" إحدى البواخر الخديوية ؛ فذهبت تمخر بهـم عباب البحر وعجاجه — لأن الأيام كانت شـتاء — حتى بلغت بهم مصوّع فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٧٥

صعوبات مهمتها

ولكى تتكوّن عند القراء فكرة صحيحة من صعوبات تلك الحملة، يكفينا أن نذكر هنا أن الكلام على ظهر "الدقهليـة" فى رحلتها كان يدور بين المسافرين عليهـا : بالعربيـة والانجليزية والألمـانية والفرنساوية والتركية والتليانية والنروجية وغيرها ؛ كأن تلك السفينة برج بابل ثان، وذلك بسبب اختلاف جنسيات الضباط المتألفة منهم هيئة القيادة وجنسيات تابعيهم وخدامهم .

فالى جانب راتب باشا، السردار الشركسى ، كنت ترى الجنرال لورنج والكرنيل داى واليوزباشى پورثر وغيرهم من الأمريكان ؛ ونائب الأميرالاى على بك الايطالى

(١) أنظر : "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى ص ١٥٩

المعتنق الاسلام، واللفتننت كرنل البارون فون مكلين المهندس النمساوى الألمانى، والميجور تورن هايسن النمساوى أيضا الذى كان مع الامبراطور مكسمليان المنكود الحظ، وكان يحسن التكلم بست لغات، واللفتننت كرنيل دريك والميجور لمسن والميجور لوشى المهندسين، والميجور ولسن الجراح، ورشيد باشا وعثمان رفقى باشا وكلاهما شركسى، وخورشد بك أميرالآلاى السودانى، وعثمان بك نجيب وعثمان بك غالب الشركسيين أيضا، والكونت سرمانى الطليانى، ومحمد بك جابر الأميرالاى المصرى البحت، وصبرى افندى رئيس المدفعية والقائمقام ابراهيم لطفى، وكان يحسن التكلم بالانجليزية، ورفعت افندى رئيس كتاب السردار، وآخرين لا نريد أن ننزل بالتاريخ الى حد الاهتمام بذكر أسمائهم، من ملل وأجناس مختلفة .

وبينما الجيش معسكر فى مصوع يستكمل معداته، ومعسكر النقل يقام فى (أركيكو) على بعد بضعة أميال الى جنوب مصوع، اذا بكتاب من الجنرال كركهام، تاريخه ١٨ ديسمبر سنة ١٨٧٥، وصل الى القيادة المصرية فى ٢٢ منه، يفيد رغبة النجاشى فى تسليم مائة أسير وخمسة من المصريين الى محافظ مصوع — وكان المحافظ شابا فى مقتبل العمر يقال له أحمد بك، ويهابه الكل بالرغم من صغر سنه، ومن أنه كان غرا جاهلا، لا يدرى شيئا لكونه ابن أخت المفتش المخيف اسماعيل صديق باشا، ناظر المالية المصرية، وكان قد أخلف على تلك الوظيفة أراكيل بك نوبار التعس الطالع ابن أخى نوبار باشا — ولم يمض يومان حتى وصل أولئك الأسرى، واذا بسبعة وثلاثين منهم مخصيون ! ثم وصل كركهام بعد أيام قليلة، يحمل رسالة من النجاشى الى الملكة فكتوريا . فما كان من الحراس المقامين على مدخل المعسكر المصرى إلا أنهم قبضوا عليه، وزجوه فى حفرة قذرة، ثم حكم عليه بالسجن فيها .

فأقام المسكين فى قاعها أياما ، ناقما ، متململا ، شاتما . ثم أطلق سراحه الى مصوّع بعـد أن أقيمت لإكرامه وليمة فاخرة ، أبى أن يتناول فيها زادا ، أو يشرب سائلاً لخوفه من أن يكون قد وضع له ، فى شئ من ذلك ، الموت سما .

وما أقام الجيش فى مصوّع أياما إلا و وردت الى راتب باشا إفادة برقية من الخديو تنبئه بأن ثالث أنجاله الأمير حسن ، الملازم الأوّل فى فرقة الهوسار الألمـانية ، نال اجازة من الامبراطور ولهلم الأوّل ، ليتمكن من الانضمام الى الحمـلة المصرية ؛ وأنه قادم اليهم عن قريب ، ملتحقا بهيئة أركان الحرب ، ولو أنه لا يتقلد علامتها . وكان الأمير حسن فى الثانية والعشرين من عمره ، قصيرا ، سمينا ؛ و بالرغم من ذلك ، فارسا مكملا ، ويحسن التكلم بالتركية والعربية والفرنساوية والانجليزية والألمـانية .

التحاق الأمير حسن بالحملة فى مصوّع

فوصل الى مصوّع فى المحروسة حوالى آخر شهر ديسمبر ، ومعه ياوره يوسف بك ، وطبيبه بدر افندى ؛ فقوبل مقابلة فخمة ، ونزل فى سراى المحافظ ؛ وما ارتاح من عناء السفر إلا وأراد الجنرال لورنج ، عملا بكتاب فرنساوى أتاه من الخديو ، مكتوبا بخط يده ، أن يشغله تحت إدارته فى الأركان ويلقى الى عهـدته مهمة خاصة ؛ ولكن راتب باشا عملا بكتاب آخر أتاه ، مكتوبا من الخديو نفسه بالتركية ، أبى إلا إبقاءه بجانبه ، زيادة فى المحافظة عليه والاعتناء براحته . وكان الأمير عينه أميل الى الاقامة بجانب راتب باشا منه الى الاشتغال مع الجنرال لورنج ! لأن هذا بصفته رجلا جدّيا كان ، بعامل طبيعته وعامل اعتباره الحمـلة أمرا جدّيا فى طياته مسئولية كبرى ، من شأنه استخدام كفاءات الأمير المختلفة فى أعمال ذات بال ؛ بينما السردار لم يكن يهمه من وجود الأمير بجانبه إلا أن يجمع حوله أسباب الملاهى ، وأنواع الملذات ، فيفوز بارتياحه اليه ورضاه عنه .

لذلك أخذت الأيام، ريثما تستكمل معدّات النقل، تمرّ بمصوّع للأمير والسردار، ولا سيما لأولهما : إما فى الخروج الى الصيد والقنص ؛ وإما فى الانكباب على لعب الشطرنج . ولما كان أمر تجهيز معدات النقل موكولا الى المحافظ أحمد بك — وهو الشاب الغر الذى قلنا عنه ، والذى كان الى تهيئة معدّات يوم صيد وقنص للأمير فى الأدغال والجبال المجاورة أميل منه الى الاشتغال بتسهيل مهمات الجيش — فان اليوم طفق يتلو اليوم، والأسبوع الأسبوع، والعمل نائم، ووسائل النقل تهيأ ببطء بالرغم من أن الحاجة الى الاسراع كانت شديدة، وان الحض عليه كان لا يفتأ متواصلا من المرجع الأعلى بمصر .

اشتداد النفور بين الجيش وأركان الحرب

وبما أنه ليس أدعى من الكسل والبطالة الى التهاون فى الواجبات واهمالها ، وليس أنجع منهما «بيئة» لانماء مكروبات الفساد المادّية والأدبية معا، فان النفور الذى ما انفكت حلقاته متماسكة بشدّة بين هيئة الجيش العامل، وهيئة أركان الحرب ما لبث أن اتسع ، من جهة ، بشكل مقلق بين رجال الهيئتين ؛ وطفقت القيادة العليا تظهر جهارا من الاستخفاف بارشادات أركان الحرب، وتقيم فى سبيل عملهم من العقبات ما كان لا بد معه من الانتهاء الى قارعة؛ ومن جهة أخرى، فان الجنود أنفسهم لما وقفوا على حقيقة العلاقات بين الهيئتين، ولحظوا مظاهر الامتهان لرجال أركان الحرب بادية على جميع معاملات رجال القيادة العليا وضباط الجيش لهم ، شرعوا يعتقدون أن أفيد وسيلة يتقرّبون بها الى إرضاء رؤسائهم عنهم انما هى أن يشاطروهم ذلك الامتهان للغربيين، فيجعلوا مراراته أشدّ وقعا على أنفسهم . فأخذ ذات الديدابانات يهملون تقديم السلام الى الجنرال لورنج وضباطه ؛ بينما هم كانوا يتفانون سلاما وتعظيما للأمير مرؤوس الجنرال لورنج اسما ! ولغيره من الضباط

الشراكسة والأتراك الأحط مقاما ووظيفة فى الجيش من أولئك الأمريكيين؛ وأخذ البيطريون المنوطة بهـم خدمة الخيول لا يلتفتون إلا الى خيول الأمير وحاشيته؛ ويهملون بالمرة خدمة خيل رئيس أركان الحرب وضباطه. فأصبح العمل على الجنرال لورنج وزمرته من أشق الأعمال؛ بل أصبحت الحياة ذاتها مرة المذاق عليهم الى حدّ أخذ يفوق الطاقة ، رويدا رويدا ، حتى أدّى بالجنرال يوما ، بعد أن سئم التشكى للسردار من قلة آدب العسكر وخيتهم، ووقاحة الديدبانات، الى الانقضاض على أحد هؤلاء وإشباعه لكما ولطما ورفسا .

على أن ذلك لم يجد نفعا، كما أن إلحاحه المتوالى والحاح ضباطه — لولا التحريضات المتتابعة من مصر — ذهب أيضا، أدراج الرياح . فانه حينما بلغ الجيش مصوّع ، أى فى أواسط شهر ديسمبر سنة ١٨٧٥ ، لم يكن قد جمع بعد من الجمال سوى ٣٠٠ جمل؛ وقلة هذا العدد — لنقل مهمات جيش زاد، بعد انضمامه الى مابقى من حملة أرندروب ، على اثنى عشر ألفا — ظاهرة للعيان . أضف الى ذلك أن ذات الجمال المجموعة لم تكن من الجنس العربى الجيد، بل كانت من الجنس المصوّعى الضعيف الذى لايتمكن من نقل ماينيف على نصف حمل الجمل المصرى؛ ومع ذلك فان أحمد بك محافظ مصوّع ، مافتئ يتوانى فى زيادة ذلك العدد، حتى مضى شهر. وأصبح التعوّق موجبا وبالا . فهم حينئذ وجلب الى المعسكر من الجمال والبغال ما رآه راتب باشا كافيا لتبرير البدء بالزحف، ولو أن أركان الحرب لم يكونوا على رأيه .

فسار الجيش من معسكره فى ١١ يناير سنة ١٨٧٦ ولكنه حدث، كما كان منتظرا، أن قلة الاعتناء بالجمال وراحتها، وقلة الانتباه الى مقدار قوة كل منها، بحيث لا يحمل زيادة على طاقته ، أدّتا الى تقطع حبال التحزيم، وسقوط المهمات، وتلف جانب

منها، والى تشتت الجمال فى الفلوات، وفوق التلال والجبال ؛ فأدّى ذلك الى تعب عظيم ومشقة كبرى فى جمع شملها واعادة تحميلها .

وكان قد رسم تقدّم عثمان باشا رفقى الى جهة يقال لها (بعرزة)، للاستطلاع ؛ وهى محلة تبعد عن مصوّع مسيرة يوم للمجدّ المسافر، و يومين للراكب البطىء . فزحف اليها بمقدّمة الجيش ؛ ولكن سوء تفاهم أوقعه أحمد رفعت افندى كاتب السردار ، عمدا ، بين راتب باشا والجنرال لورنج ، أدّى الى اضطراب فى الأوامر الصادرة أوجب إبدال عدّى راسو (أو عدرسه) من (بعرزة) ، ونجم عنه ضياع أسبوع على تقدّم الجيش الذى لم يصل الى الهضبة المطلة على وادى (قرع) إلا فى ضحوة يوم الأحد ٣٠ يناير سنة ١٨٧٦

وفى الغد قدم المعسكر الرأس ليج ، حاكم (عدى حواله) الذى عزله النجاشى ؛ وأخبر القيادة العليا المصرية وهيئة أركان الحرب بحركات الملك يوحنا . ولما كانت التعليمات المعطاة لراتب باشا تقضى بالاشتباك مع النجاشى فى معركة مفتوحة، وكسره كسرة تؤدّبه تأديبا شديدا، ويدوى صداها فى العالم ؛ ثم الرجوع الى مصوّع ؛ فاذا تعذر ذلك الاشتباك لركون يوحنا الى خطة الحيطة والحرص، فالزحف الى (عدوة) عاصمته ومقاتلته فيها ؛ ثم العودة الى مصوّع ؛ فاذا تعذر هذا وذاك ، فالاقامة على هضبة (قرع) واحتلال الجيرة وانتظار تعليمات جديدة ؛ فان السردار رأى ، بعد مداولة مع الرأس ليج المذكور، أن يختار موقعا موافقا ويتحصن فيه ؛ ويجمع كل قوته اليه، ليكون على استعداد لمقابلة الطوارئ .

فأصدر أمره الى رشيد باشا بالتقدّم والانضمام الى بقية الجيش — وكانت قوة رشيد مؤلفة من ٥٤٢٦ من البيادة، وبطاريتين فيهما ٣٩٤ مدفعيا، و٥٦٦ خيالا،

ولا تزال مقيمة بالقرب من مصوّع — ولكنه أصدر اليه هذا الأمر بدون أن يضع أى وسيلة من وسائل النقل تحت تصرفه ، أو يهيئ له أسباب الحصول عليها ، و بالرغم من أن وسائل نقل المأكولات الى الجيش كانت قليلة ، وأن مجيء تلك القوّة كان من شأنه زيادة عدد الأفواه الآكلة ، ما بين بشر ودواب ، على قلة الموجود ممـا يؤكل .

وفى الحقيقة ، فان أكبر مصاعب هـذه الحملة المشئومة انما نجم عن قلة الاهتمام بوسائل النقل على العموم ، واختلال الادارة القائمة بها ، إما لعجز فى كفاءة الرجال الذين نيطت بهم ، وإما لأن رؤساء هؤلاء الرجال والمكلفين بالتوسط بينهم و بين مصادر تلك الوسائل لم يمكنوهم من القيام بمهمتهم القيام الواجب .

أحمد عرابى

وكان رئيس حركة النقل أحمد عرابى بك ، المعد ، فى الأيام التالية ، لاضرام نار الفتنة العسكرية المعروفة فى التاريخ باسمه . وقد كان فكر الضباط الأمريكيين فيه حسنا جدا ، ويقول الكرنيل داى فى مؤلفه المعنون "مصر الاسلامية والحبشة المسيحية" انه كان يكون ضابطا من خيرة الضباط فى قطر غير القطر المصرى (١) . فاستبدل وأقيم مكانه شاكر الشركسى ؛ وما لبث هـذا أيضا أن استبدل وجعل محله الميجر لوشى الأمريكى ووضع كلا سلفيه تحت ادارته ، ضـدّ رغبته ؛ لأنه كان رجلا عاقلا يفهم أن تصغير روح ضابط بوضعه تحت إمرة من هو أقل منه درجة ، لا سيما اذا كان هذا الرئيس الأقل منه درجة أجنبيا ، ليس خير ما يتخذ من الاجراءات لجعل الأمور تمشى فى مجراها الأمثل .

وفى اليوم الثانى من شهر فبراير نقل المعسكر الى واد غير الأوّل ؛ وشرع فى التحصن ، لشيوع الأنباء باقتراب النجاشى . ولكن قلة مواد الطعام ، وندرة وصول حتى القليل

(١) أنظر هذا الكتاب ، ص ٢٢٣

منها الى القوة المتقدّمة ، اضطرت القيادة العليا الى تقليل عدد البياده بين يديها ، والاستعاضة عنها بزيادة فى عدد المدفعية . فصدرت الأوامر الى بطارية مستوردة من معامل كروب ، كانت لا تزال بمصوّع ، بالاسراع الى (قرع) ؛ وكلف دنيسن بالاتيان بها . فسار بها توا . ولكنه ، وهو يجتاز بها جبل بمبا ، قابل رشيد باشا الراجع من (قياخور) الى عدّى راسو (عدرسه) ، عملا بالأمر الوارد اليه بالرجوع بسبب قلة الطعام . فأخذها منه بالرغم من امتناعه ، وعاد بها الى (بعرزه) ؛ وحجته فى ذلك أن السكة وعرة ، وأن البطارية قد تصاب بعطب لو استمرّت على سيرها الى (قرع) ؛ مع أن معظم الوعر كان قد اجتيز ، وان الرجوع بالبطارية كان يقتضى المرور بها ثانية فى الشعاب والمسالك التى أتى بها منها بكل صعوبة ؛ علاوة على أن على سامح افندى ، رئيس فرق المهندسين والحفارين ، كان قد أنجز عملا ممدوحا فى تمهيد الطريق وتسهيلها ، وجعلها صالحة لمرور المدفعية . وأوّل تحصين أقيم كان من النوع المعروف "بالبلوك هوس" فى اللغة الانجليزية ؛ وهو بناء شبيه بحصن يحيط به خندق ومتاريس ؛ اقامه فى مضيق قياخور القائم مقام درهلز والكرنل لوكيت ، بأمر من الجنرال لورنج وتحت مسئوليتهما ؛ وكان عبارة عن أربعة جدران ، لاسقف يغطيها ، مفتوحا لضرب العدوّ ، ومبنيا مع ذلك بحيث لا يرى المقيمون فيه العدوّ القادم لقتالهم . فكأنه بنى ، والحالة هذه ، ليكون مرمى لمقذوفات الأعداء ، لا معصما منها .

ثم أقيم حصن آخر فى (قرع) جعلوه على شاكلة قلعة ، وخندقوا حوله خندقا على أعظم ما يكون من العمق ؛ مع أن البقعة التى اختاروها له لم تكن تغنى شيئا ، ولا كانت واقعة فى جهة يمكن الاستفادة منها حربيا ؛ وهم لو أحسنوا التصرف لبنوه قرب المضيق الذى هناك ، بحيث يحمونه ، ويحفظون الآبار التى حوله فى آن واحد .

على الروبى

ولمـا استقرّ بهم المقام ، عهد برياسة فرع المهمات الى على الروبى افندى ، وقد اشتهر فيما بعد فى حوادث الثورة العرابية ؛ وكان ضابطا من أحسن الضباط وامتدحه رؤساؤه وزملاؤه الأمريكيون وامتاز فى هذه الحملة دون غيره من ضباط الجيش — ما عدا الكونت سرمانى — بأنه كان يرى من الواجب عليه احاطة علم رئيس أركان الحرب بكل ما يجريه ليكون على بينة منه .

على أن تعيينه رئيسا لذلك الفرع لم يعن — كما كان يجب أن يعنى — وضـع وسائل النقل تحت تصرفه . فاستمرّ أمرها فوضى كما كان . ومافتئت البغال والحمير، وعددها نيف وألف ومائة ، فى مجيئها من مصوّع وذهابها اليها ، تحمل فوق طاقتها أحمالا قلما احتيج اليها ؛ كتبن وخيام وأثقال مختلفة . مع أن المطلوب انما كان تحميلها بقسماط ومآ كل أخرى ، كان الجيش فى أشدّ الافتقار اليها . ومع بهاظة الحمل كان العساكر والصف ضباط الآتون برفقتها يركبونها أيضـا ، فيرهقونها . ناهيك بفتك الذباب المدعو "تسلتساليا" بها فتكا ذريعا .

ولمـا طال المطال بالجيش فى حصن وادى (قرع) دون أن يظهر الحبوش الى المناوشة والقتال ، ودون أن ترد أخبار عن حركات النجاشى ، أخذ السردار ورئيس أركان الحرب يفكران فى أمر الزحف الى (عدوة) للايقاع به فيها ؛ ولكنهما اختلفا على الطريق التى يسيران منها . فذهب السردار ، انقيادا الى مؤثرات النائب (محمد) ، رجل ثقته — وكان قد نجا من سجن النجاشى — الى تفضيل طريق قودوفولاسى — قوندت على ما سواها ؛ ورأى لورنج ، عملا بنصائح قسيس فرنساوى كاثوليكى يقال له ديفلو من جمعية التبشير بالايمـان ، وأحد كهنة الارسالية العازارية فى تلك البلاد ، أن الأوفق الزحف بالجنود من الطريق المجتازة للمقاطعة الحبشية ، التى استعمرتها

تلك الارسالية ، لما قد يجدونه فيها من أسباب الرخاء وأنواع المساعدة . ولكن بما أن لورنج نفسه كان كاثوليكيا ، فأدلاء النائب محمد لم يتعبوا كثيرا فى إقناع راتب بأن غرض خصومهم ، الأدلاء الأحباش الكاثوليكيين ، من المرور بالجيش فى مقاطعة العازاريين انما هو محض انتفاع أهل تلك المقاطعة بالريالات المصرية التى تصرفها الجنود والخزينة فى ابتياع مأكولات وخلافها منهم . وأن رئيس أركان الحرب انما يعضدهم فى تفضيله طريقهم على طريق قودوفولاسى — قوندت ، لكونه كاثوليكيا مثلهم . فكفى ذلك لكى تكثر حول الأدلاء والقس ديقلو الاهانات التى لا مبرر لها ، والاضطهادات السمجة . ولكى يقضى أدلاء النائب محمد على جهود مزاحميهم ، قضاء مبرما ، أذاعوا كذبا نبأ قرب دنو النجاشى من حصن (بعرزه) لمهاجمة من فيه . فأصدر السردار أمره الى قائد الجند هناك بمنع خروج الخيالة من الحصن ، وبالثبات على الدفاع عنه الى النهاية . ومع إقدامه على اقامة ديدبانات فوق الآكام المحيطة ، وأمام الخنادق ، وبالرغم من علمه علما يقينا أن النجاشى على بعد يومين على الأقل ، لم يفكر فى تمرين جنوده التمرين اللازم لجعلهم على استعداد لمقابلة الطوارئ ؛ ولا أمر باجراء الاستطلاعات التى كانت الظروف تقتضيها لدرء كل مباغتة والوقوف على حركة العدوّ . فنجم عن ذلك أنه خيل لبعض الجنود ذات ليلة أنهم يسمعون دبيبا ، ويرون أشباحا ! فظنوا أنفسهم مبيتين . فهبوا الى سلاحهم مذعورين ، وأطلقوه فى الفضاء على العدوّ الموهوم ؛ فأصابوا عدّة من زملائهم المنتشرين خارج الحصن ، وسببوا فزعا عاما للحامية كلها .

وبعد أيام قدم الى المعسكر المصرى دجاش يقال له (ولده ميخائيل) مع ابنى أخيه وجماعة من أعوانه وأتباعه . فاستقبلوا استقبالا شائقا ، وقدّمت اليهم القهوة على

صوانى فضية من مظال الأمير حسن . فلخوف ذلك الرئيس الحبشى من أن يكون وضع له سم فيها، أبى أن يشربها إلا بعد أن ذاقها أحد الحقيرين من أتباعه دون أن يصاب بسوء؛ وأنعم الأمير عليه بلقب "باشا" ورتبة "فريق"؛ وأنعم كذلك برتب مختلفة وهدايا نفيســة على ولدى أخيه . وأهم مااستلفت الأنظار فى هؤلاء القادمين كثرة القمل المـالئ ملابسهم، حتى لقد لاحظ أحد الضباط الأمريكيين أن مهمة بعض رجال حاشية الدچاش كانت منحصرة فى الشخوص الى قميص هذا الرئيس وردائه، لا لتقاط تلك الحشرات المقرفة، وطرحها على الأرض، كلما لمح ظهورها، دون أن يثير ذلك اشمئزازا فى أحد؛ كأنه من مستلزمات الحياة اليومية ومظاهرها.

وتلك الأمانى تجعلن الفتى ملكا

وما مضت أيام قلائل على قدوم أولئـك الأحباش إلا وطفقت الرسائل تخرج من خيام السردار والأمير، بواسطتهم، الى الرؤوس والأمراء الحبوش، مستميلتهم الى ولاء مصر، وممنيتهم بالأمانى الكثيرة والأموال الجمة. ولكى يجعلهم راتب يذوقون شيئا من حلاوة تحقيقها طفق يفكر فى مكافأتهم مقدّما على الأعمال التى كان يطلبها منهم؛ ووقع فى خلده مرة إعطاء خمسمائة ريال، من المعروفة بريالات ماريا تريزا، الى أحد رجال (ولده ميخائيل) تشجيعا له، من جهة، ومن باب المكافأة، من جهة أخرى، على أمانته واخلاصه فى خدمة المصالح المصرية؛ وكاد يفعل ذلك، لولا تداخل ضابط عال فى الأمر، وتفهيمه السردار أن المبلغ انمـا يحق لذلك الحبشى حينما تظهر نتيجة مساعيه .

على أن نتيجة التراسل، بواســطة رجال (ولده ميخائيل)، كانت قيام التصوّر فى مخيلة راتب أنه أصبح يحكم الديار الحبشية بأسرها من عقر خيمته؛ وابتهاجه بمـا آلت اليه سياسته الحكيمة، وأبلغه إياه دهاؤه السياسى .

غير أن استغراق السردار فى أحلامه ، وتغذى فؤاده بالأمانى العقيمة ، لم تحولا دون ارساله الضابط أرجنس الامريكانى الى الاستطلاع والاستكشاف ، صحبة القس ديڤلو وأحد احباشه المخلصين . فتقدّم ذلك الضابط الجسور، بالرغم من خوفه من الخصى ، فيما لو وقع فى أيدى الأعداء ، واجتاز صفوف الأحباش ، وما زال سائرا حتى بلغ مكانا لا يبعد عن (عدوه) إلا ثلاثين ميلا . ولما وقف على كل ما كان رئيس أركان الحرب راغبا فى الوقوف عليه ، عاد الى المعسكر المصرى ، بعد أن انقاد الى نصيحة دليله الحبشى ، وذبح بضع دجاج ونثر دمها وريشها فى الطريق ، ليحمل النجاشى على اعتقاد وجود سحر فيها ، فيمتنع عن طرقها .

وأتى الواقع مصدّقا لقول الحبشى ، فان النجاشى اعتقد أن سحرا عمل له ؛ وبدلا من تقدّمه فى الطريق التى عاد أرجنس منها ، عدل عنها الى طريق (قوندت — أسمرة) . فسار فى ٢١ فبراير من (عدى حواله) الى (ماى جوردا) و (قودوفولاسى) و (ترابين) ، وعسكر فيها ريثما تجتمع عليه بقية جيوشه .

فوجدته هناك طلائع المصريين فى ٢٥ فبراير ، وكان فعل الدليل الحبشى قد حوّل أنظار القيادة العامة الى عدم امكان مجيئه إلا من تلك الطريق . واذا بالجزء المهم من جنوده قد نزل فى (ماى قوردا) و (قودوفولاسى) و (عدى حاله) و (عدى ماجسا) . ولما كان الغد ، زحف النجاشى الى (عدى برو) ؛ وأرسل قسما من خيالته الى (تساتزيجا) . فلما بلغت ميمنته (عدى نترو) ، اختار من بين بيادته وفرسانه مائتى مقاتل ، وأرسلهم الى الأمام بمثابة طليعة ، لتنسم الأخبار ، واستطلاع الاحوال .

وكانت الأنباء عن تقدّمه ، وضخامة جيشه ، وتنوّع حركاته ، قد بلغت المعسكر المصرى ، فأخذ القلق مأخذه من القيادة العليا ، وأركان الحرب فيه ، وطفق بعضهم

يبدى المخاوف على سلامة جناح الجيش، ويرتئى الانسحاب، ويقول بلزوم اجرائه! كأنهم انما أتوا الى ذلك المكان وتحصنوا فيه لمجرد نزهة عسكرية . ومما زاد الطين بلة أن الشقاق على اللازم عمله بلغ أشده بين السردار ورئيس أركان حربه ؛ وأدى الى عزم هذا على التخلى عن كل مسئولية، وترك راتب باشا وشأنه، يخرج كيفما يريد من المأزق الذى بات فيه .

ولكن ضميره لم يطاوعه على البقاء على عزمه . فكلف الكونت سرمانى بالقيام الى الاستطلاع فى ٢٦ فبراير، صوب الجهة التى بلغ نزول الملك فيها . فسار سرمانى حتى بلغ كرباريا، حيث علم أن بيادة الأحباش فى (عدى برو)، وأن معسكر النجاشى العام فى (أبامتى) . فعاد بنبأ ذلك الى جهة الاختصاص . فرأى الكرنيل داى أن يستوفى التفاصيل ويستوعبها . وحبب استطلاع سرمانى فى استطلاع ثان . فعارض راتب فيـه، وذهب الى عدم فائدته . ولكن الأمير نفسه وافق عليـه، وحض لورنج على إجرائه . فخرج أرجنس، وولسن، بألف أو ألف ومائتى فارس، وتوغلا فى السير توغلا بعيدا، لم يمكنهما من العود فى الميعاد المضروب . فطار القلق عليهما وعلى القوة التى معهما فى عموم المعسكر، وصعد الأمير حسن باشا ذاته على أكمة ليستطلع ؛ فرأى غبارا عن بعـد ؛ فتخيله دخان قتال تصوّره قائما بين الكشافة والحبشان ؛ فأسرّ الى راتب بظنونه ؛ فأمر السردار : فدق نفير النجدة . فبرز طابور ومدفعان ؛ وخرج وأركان حربه ؛ وخرجت هيئة أركان الحرب بأسرها وراءه ؛ وتبعهم القوّاد وياورانهم ؛ وكان مئات من الرجال فى السهل بدون انتظام : منهم من يبحث على العدوّ ومنهم من يستعدّ للهرب منه؟ بدون أن يدرى أحد، ما عدا راتب والأمير، لمَ هو هنالك، والى أين هو ذاهب .

وبينما هم كذلك، خيم المساء عليهم . فجمع السردار زمرة من الرجال المنتشرين في السهل، واستعدّ لمعركة دفاعية . ولكي يكون على بينة من أمره، صعد على صخرة مرتفعة؛ وأخذ يجيل نظره في جهات الأفق الأربع، وهو في منتهى الحيرة، لا يدرى ما العمل . أما باقي الخارجين، بل ذات الذين بقوا في الحصن، فانهم استمروا في هياج كبير؛ ودام الهرج والمرج بلا معنى، وبدون غرض معلوم، حتى عادت القوة المستطلعة بعد الغروب بساعة . ولو داهم الحبشان الجيش المصرى في ذلك الوقت لأفنوه عن آخره، لأنه كان كقطيع غنم ليس من راع على رأسه .

على أن رضا راتب باشا بخروج قوة أرجانس الى الاستطلاع انما كان عقب أن تأكد من وصول عثمان بك باثنين وعشرين جماعة الى (قياخور). وقد تركنا عثمان بك هذا، وهو يأخذ من دنيسون بطارية كروب بالقزة ويعود بها الى هذه البلدة . فوافته اليها بطاريات كروب الأخرى . ولما بلغ السردار خبر اجتماعها، أمر بالسير بها الى (قرع)، ورسم بزحف عثمان بك الى (قياخور) . فوصلت البطاريات (قرع) في ٢٥ فبراير . وشرع عثمان بك في تنفيذ الأمر المعطى اليه .

غير أن العدوّ شرع يهدّد الخطوط ما بين (عدى راسو) و(قياخور)؛ وكان راتب ولورنج معا يظنان في بادئ الأمر أن "البلوك هوس" الذى أقيم بالقرب من هنالك كاف للدفاع عن المضيق . ولكن لورنج مالبث أن أدرك أن "البلوك هوس" لا قيمة له في الدفاع عن المؤن والذخيرة المارّة بسهل (حالة) . فما زال براتب حتى حمله على إرسال قوة في ٢٤ فبراير الى وادى (قياخور) لمراقبة الطرق المؤدّية من الغرب الى ذلك السهل . ولما وصل هنالك عثمان بك في ٢٦ منه بفرقته، وضعت القوة كلها التي اجتمعت هنالك تحت إمرته؛ وكلف بالمحافظة على الوارد من (عدى راسو) .

فطفق يحسن التحسينات التى أقامها هناك رائف بك ؛ ووضع المدافع بحيث تحمى مدخل الوادى من الغرب ؛ واستخدم فرسانه فى سهل (حالة) لمنع نزول العدو على وسائل النقل الخاصة بالجيش .

أما النجاشى، فانه مع بقائه فى (أبامتى) أمر جيشه بالارتداد الى (ترامنى)، كأنه يرغب فى تضليل أفكار خصومه ؛ ثم عاد فتقدّم فى أوّل مارس لغاية (تزاتزيجا)، وشرع يهدّد بالهجوم تهديدا جدّيا . فخاف راتب أن يحدق الخطر به من كل جانب، وأراد الانسحاب لينجو . فعارضه لورنج فى ذلك ، وطلب اليـه إجراء إستطلاع آخر على شكل مظاهرة ، والقيام بمناورة تهديدية لحركات الملك ، يكون الغرض منها حشد الجيش كله فى (قرع) .

ولكن راتبا لم ينصع الى طلبه، وترك يوحنا يقوم بنفاذ الخطة التى رسمها لنفسه، بدون معاكسة — الأمر الذى جعـل كل الخط من مصوّع الى (قرع) مضطربا متزلزلا ؛ وأدّى الى عود قيام النزاع بين الجيش وهيئة أركان الحرب . فطفق رشـيد باشا وعثمان بك ، على اختلافهما مع بعضهما ، لا يطيعان أمرا يرد لهما من الجنرال لورنج؛ واشتدّت مضايقة السردار لهذا القائد الأمريكى الى حدّ لم يعد يستطيع معـه إرسال أى كتابة أو أمر إلا عن طريق رفعت افندى رئيس كتّاب القيادة . ولم يكتف رشـيد باشا باحتقار الأوامر الواردة من لورنج ، بل أخذ يوجد كل ما استطاع إيجاده من العراقيل فى سبيل الميجر لوشى رئيس قسم النقل ؛ غير مبال بالمضارّ التى تعود على الجيش برمته من جراء ذلك .

وكانوا قد سلموا القيادة (ببعرزة) الى الميجر فيلد، لتكون عينه ساهرة على المهمات؛ ولكن لورنج، بعد ما اشتدّت الأخطار حولها بسبب حركات النجاشى، رأى أن يعزز

نقلها بجنود تحافظ عليها أثناء اجتيازها سهل (حالة) . فأصدر أمره لذلك . ولكن (راتبا) أبى الموافقة لئلا ينقص عدد الجنود الموجودين معه فى الحصن .

وبينما القوّاد المصريون فى هذا الاختلاف وهذه المنازعة، كان النجاشى يتقدّم نحو الجيش المنكود الحظ المسلمة أزمته اليهم، بخطى الثعالب، وعزم الأسود، حتى أصبح على بعد بضع ساعات من (قياخور) و (عدى راسو) . ولما علم راتب بذلك زادت مخاوفه، فبادر الى عقد مجلس حربى سرى، أبعد عنه كل الضباط الغربيين، للمداولة فى الأمر، فلم يقرّ ذلك المجلس على رأى . وكان العدو، الزاحف باستمرار فى تلك الأثناء، قد أضحى على بعد ثلاث ساعات من (قياخور) .

والنجاشى، والربوع حوله كلها عيون وآذان ترى وتسمع، وتحيطه علما بماجريات الأمور عند أعدائه، قد تمكن من الوقوف على تشتت فرق المصريين، مابين (بعرزه) و (عدى راسو) و (قياخور) و (قرع)، فعزم على الانقضاض بغتة على قوتهم الكبرى فى (قرع) وسحقها، لتبيت باقى الفرق تحت رحمته: فاما أنها تسلم وإما أنه يبيدها، وليس لها من بين يديه مفرّ . وما صمم على ذلك إلا وشرع فى تنفيذه .

فكان من الواجب، والحالة هذه، على قائد الجيش المصرى أن يترك فى حصن (قرع) قوّة كافيـة للدفاع عنه، دفاعا مؤقتا، ويزحف بمعظم قوّته الى (قياخور) فينضم الى الفرق المقيمة فيها، ويخرج بجيشه كله لمقابلة الملك، فيقضى الله ما يشاء بينهما .

بذلك أشار الضباط الأمريكيون، ولكن رشيد بك وعثمان باشا رفقى قاوما رأيهم وعاكساه، وهما، لجهلهما الأصول الحربيـة، لا يشعران بالضرر الذى يسببانه،

وما أبى راتب عمله ، أقدم النجاشي عليه ؛ فانه بعث يستدعى اليه كل القوات التى كانت قد انفصلت عنه لمهمات كلفت بالقيام بها ؛ واجتهد فى حمل المصريين على الاعتقاد بأن مهاجمته لهم ستكون يوم ٦ مارس ، ليغرّر بهم ، ويمنعهم عن الافتكار فى حشـد جموعهم كلها فى صعيد واحد ، بسبب ضيق الوقت؛ ونجح فى خداعه ، لدرجة أن لورنج نفسه ، فى الليلة ما بين الخامس والسادس من شهر مارس ، أبى أن يقلع ملابسه ، ونام بها على سرج حصانه ؛ وما بزغ الفجر إلا واحتذى بجزمة القتال وأخذ له أهبته . وتقدّم الدچاش ، والراس (ولدا ميخائيل) الى السردار بالاذن لهما فى الخروج الى مقاتلة الملك . فأبى راتب أن يسمح لهما : إمّا لقلة وثوق منه بهما ، وإمّا احتقارامنه لشأنهما الحربى . فانسحبا .

وكان المصريون ، حينما أنشأوا الحصن فى (قرع) ، قد أقاموا أمامه بضعة استحكامات غير محكمة ، تحول دون مرمى المدافع ، وتقصر حتما من مداها . فطالب لورنج (راتبا) مرارا بازالتها ، وذهبت مطالبته دائما سدى ، لاعتقاد السردار الفائدة كلها فى تلك الاستحكامات ، لما فيها من الوقاية للجنود . كذلك كانوا قد وضعوا مخازن المهمات فى تلك الاستحكامات ، اتقاء لشر قد يقع بسببها فى الحصن عينه ، فيصيب من فيه من كبار الضباط والأمير نفسه ، لا سمح الله . فما فتئ لورنج يحض السردار على نقلها الى داخل الحصن لتكون المحافظة عليها أنجع ، والاستفادة منها أضمن ؛ وما فتئ السردار يمهل ويهمل لغاية اليوم الرابع من مارس ، إذ ظهرت جليا مضارّ إبقائها ، بحيث لو استولى الأحباش على الاستحكامات الخارجية ، لاضطرت القوّة المصرية كلها الى التسليم . فأمر بنقلها ؛ وأضيع فى نفاذ ذلك الأمر وقت كان يمكن الاستفادة منه فى عمل مفيد من الأعمال التى يحتم دنوّ ساعة القتال القيام بها

ولما أن انقضت الساعات الأولى من النهار السادس من مارس دون أن تظهر للعدو طلائع (بقرع)، أسرع القوّاد الى عقد مجلس حربى جمع اليه كل الضباط الكبار من شرقيين وغربيين ما عدا الميجر درهلز . فكان فيه راتب باشا، والجنرال لورنج، وعثمان رفقى باشا، وعثمان بك، والأميرالاى دريك، ودراى . فتداولوا معا فى الأمر وفى الواجب عمله . فذهب الأمريكيون مرة أخرى الى لزوم الخروج من الحصن (بقرع)، وحشد الجيش الى الأمام، فالانضمام الى القوات المعسكرة فى (قياخور)، فتغطية هذا الممر، والزحف بكل الجيش المصرى، المتجمع على ذلك المنوال، الى مصادمة الملك والايقاع به . وبذلوا أقصى جهودهم لاقناع زملائهم الشرقيين بصوابية رأيهم هذا . ولكن السردار والقوّاد الشرقيين أبوا الموافقة على ذلك، لاسيما أن الوقت أصبح ضيقا، والحركات العسكرية باتت عرضة لمقاطعة الأعداء إياها، فى أثناء تطورها؛ وفضلوا بقاء كل قوة فى موقفها تدافع عنه بنفسها، ولو أن فى ذلك البقاء المنفرد تعريضا للفرق الى أن تسحق كل منها بعد الأخرى بالتتابع، بدون أن تتمكن الواحدة من إنجاد الثانية . وانفض المجلس وكل من الفريقين متشبث برأيه؛ وانقضى اليوم على غير جدوى وبدون استطلاع .

فلما كان صباح النهار التالى، ولم يظهر شئ يدل على رغبة الحبوش فى القتال، اعتقد المصريون أن المعركة أجلت من جديد؛ ولم يتخذوا أهبتهم لها . ولكنه ما وافت الساعة العاشرة إلا وظهر العدو آتيا من ناحية دنجل وامهور، من الجنوب والشمال والغرب معا؛ وسمعت أصوات طبوله وزموره مالئة الفضاء .

وقعة (قرع)
٧ مارس
سنة ١٨٧٦

فخرج الجيش المصرى من الحصن، بتسرع، بعد أن أبقى السردار فيه ٢٥٠٠ جندى للدفاع عنه، ومائتى ناقة . واجتهد قائد كل جماعة وفرقة فى اختيار الموقف

الموافق له . فاشتبك الخصمان معا، وأحدهما ـــ وهو الحبشى ـــ يحاول الإحداق بالثانى من كل جانب ؛ والثـانى ـــ وهو المصرى ـــ قلما يدرى كيف يوفق بين جهود جماعاته . فصعد صبرى افندى بالبطارية التى كانت تحت قيادته الى قمة تل يحمى جانب الجيش الأيمن ؛ وأصلى الأحباش المتسلقين ذلك التل، للتدفق من أعلاه على المصريين، نارا حاميـة . وأسرع داى بأورطة كاملة الى تعضـيده . فصرت ترى صفوف الأحباش تتسلق الأكمة متدافعة كأمواج البحر الزاخر . فما تبلغ الى مرمى نيران البطارية إلا وتحصدها تلك النيران حصـدا ؛ حتى لقد رؤى ساروخ واحد يقلب صفا بأكمله . وصعد الأميرالاى محمد بك جابر بآلايه الى القمة عينها ، ولكن من جانبها الآخر. وقاتل هناك قتال الأبطال، صادا الأمواج الحبشية المرتطمة عليها حوله . ولو أرسل راتب باشا قوة كافية لحماية مؤخرة هذا الآلاى وتلك الأورطة، لقضى على الأحباش قضاء مبرما . ولكنه كان حاصرا كل انتباهه فيما كان يعتقد انها مسئوليته الكبرى، وأعنى بها المحافظة على سلامة الأمير . لذلك، حينما رأى صفوف الأحباش تتكاثف بالرغم من النيران المصرية التى كانت تحصـدها ، وتتقدّم تقدّما خطرا، على بطئه، أشار على الأمير حسن باشا بالتوجه الى الحصن والاعتصام فيه ، ريثما تنجلى المعركة عن نتيجة واضحة ؛ وحتم عليه الانصياع الى اشارته، متسلحا لإلزامه بطاعته ، بأوامر الخديو أبيه الموجبـة المحافظة عليه . فما وسع الأمير إلا الاذعان ؛ فحوّل رأس جواده وجهة الحصن، وانطلق يعـدو نحوه . فما كان من جانب عظيم من العسكر إلا وتبعه، لظنهم أن الأوامر تقضى بذلك . واتفق فى الوقت نفسه أن الصفوف الحبشية المهاجمة جانبى التـل من الوراء تمكنت من تسلقها خلف الآلاى والأورطة المدافعين عنـه فى طرفيه الآخرين . فبات صبرى افندى ومحمد بك جابر

بين عدوّين يفوقانهما عددا بما لا يحصى . فدافعا عن مركزيهما دفاع الأبطال، بل دفاع الليوث الكاسرة . ولكن الكثرة تغلب الشجاعة . فان الأحباش تدفقوا من كل صوب عليهما بصياح وصلصلة سلاح مزعجين؛ وأطبقوا عليهما اطباقا . فقتل محمد بك جابر؛ وبادت أورطة داى بأسرها ؛ ووقع الميجر صبرى افندى فى أيدى الأعداء أسيرا .

ولما بات جانب الجيش الأيمن لا شئ يحميه، نزل الأحباش من الأعالى عليه بصيحات عظيمة، ونفخ غير منقطع فى الأصوار — وكان مصريو ذلك الجناح يقاتلون الأعداء المواجهين لهم . فلما رأوا الأعالى تلق عليهم بسحب أعداء آخرين، ذعروا وسقطوا فى أيديهم، وطفقوا يجرون بسرعة، وراء الذين اتبعوا الأمير، عساهم ينجون معهم بالاعتصام فى الحصن . ولكن القائد العام كان، لسوء حظهم، قد جعل فى سيره الى قتال العدو واديا بين ذلك الحصن و بينهم؛ فلما أرادوا اجتيازه ازدحمت أقدامهم فيه ازدحاما مروعا، مكن الأحباش المقتفين أثرهم، بسيوف ورماح تقطر دما، من الفتك بجموعهم فتكا ذريعا، حتى غطوا بجثث قتلاهم أرض ذلك الوادى المشئوم وسدّوه بها .

على أن الذعر لم يتمكن من جمهور الجيش برمته؛ فان فرقا منه ما لبثت تقاتل فى مكانها، ملتفة حول غير الهيابين من قوّادها ؛ ولم تتبدد إلا بعد أن أردى الموت أولئك القوّاد . وكان أحسنها بلاء فرقة رشيد باشا . فان هذا الضابط، النافخة فى جسمه روح الشراكسة الأقدمين، شراكسة العصور الوسطى البطلية، لم يتزحزح من مكانه قيد خطوة، وما انفك سيفه عاملا فى أجسام الأحباش الملتفين حوله حتى اتخذ صاحبه، من جثثهم المكدسة، متراسا تترس به هو ومراسلته؛ ولولا أن

السهام تناولتهما من بعيد، وألقتهما قتيلين فوق ذلك الكوم، لاستمرّ حساماهما يرديان الأعداء الى المنتهى . ومما يذكر بالعار لأولئك الأحباش أن فروسية رشيد باشا لم تثر فيهم شعور الاعجاب والاحترام؛ فما سقط الرجل مضرجا بدمائه إلا وانقض عليه أولئك الهمجيون، وجردوه من ثيابه، واقتسموها بينهم؛ ثم خصوه وذهبوا للفتك بغيره.

وكان الجيش المصرى الذى خرج مع راتب من الحصن وواقع النجاشى ٥٢٠٠ فقتل منهم ألف، وأسر ألفان ومائتان، وتمكن من الرجوع الى الحصن ٤٠٠ سليم بسلاحه، و١٦٠٠ جريح؛ وكان ممن أسروا، غير صبرى افندى قائد المدفعية، الدكتور بدر افندى، والدكتور چونسن، والميجر درهلز، ورفعت افندى رئيس الكتاب . وممن قتلوا، غير محمد بك جابر ورشيد باشا، النائب محمد والدكتور محمد على باشا البقلى. أما الدكتور بدر افندى والقائمقام صبرى افندى فانهما تمكنا من العود الى الجيش بمساعدة امرأتين حبشيتين من نساء آسريهما، أحبتاهما فأنقذتاهما، كما هى عادة نساء الحبش على ما يقال . كذلك وقع للدكتور چونسن، بعد حوادث مؤلمة غريبة لا داعى لايرادها هنا . وأما الدكتور محمد على باشا البقلى فانه كان فى مصوّع؛ ولكنه حالما علم بتحرك الجيش للقتال، رغب الى القيادة العليا، بالرغم من بلوغه سنّ الشيخوخة الفانية، أن تستدعيه الى مواقع الطعان، عساه يحظى بنعمة الاستشهاد. فدعته؛ فنال مناه. ولكن لا بسلاح الأعداء، بل على يد سودانى من الجيش المصرى أسر معه، وأمر بقتله، على زعمه من ذات الحبشى آسرهما النافر من بطء سير البقلى، ومن اضطراره الى إطعامه . وقد حوكم هذا السودانى فيما بعد بمصوّع، ولم يصدّق قضاته روايته؛ بل استفظعوا عمله لما كان لمحمد على باشا البقلى من المكانة فى النفوس، وحكموا على ذلك الوغد بالإعدام .

الدكتور محمد على باشا البقلى

وبعد أن استولى الأحباش على ثلاثة عشر مدفعا، وعلى كل سلاح المقتولين، وجميع الذخيرة التى لم تطلق فى القتال، تقدموا نحو الحصن بقصد القضاء على الحامية التى فيه وتخريبه . فأصلتهم الجنود نارا حامية، لم يستطيعوا عليها ثباتا . فجددوا هجومهم مرتين ولكنهم صدوا بخسائر جسيمة ؛ فارتدوا على أعقابهم حانقين .
وفى يوم الجمعة، العاشر من شهر مارس، أقدموا، لشدة غيظهم، على ذبح ألف أسير مصرى من المنكودى الحظ الذين وقعوا بين أيديهم ؛ وشرعوا، فى الأيام التالية، يعذبون الباقين ثم يذبحونهم، حتى أفنوهم كلهم ما عدا مائة وثلاثين تمكنوا من العود الى الحصن .

ومع أن على الروبى افندى، المتولى إدارة المستشفيات، بذل أقصى جهده فى الاعتناء بالجرحى ؛ وأن بدر افندى الطبيب لم يأل جهدا فى معالجتهم، وأبدى من صنوف الاخلاص وتضحية الذات ما استحق عليه ثناء الجميع، فان مائتين من الجرحى ماتوا أيضا ! فكأن نتيجة المعركة فى (قرع) كانت كالآتى : ٣٢٧٣ مقتولا ومجروحا جرحا قاتلا، و١٤١٦ جريحا، و٥٣٠ سالما فقط، وبما أن القتلى المدفونين فى الوادى ومجرى السيل — وأناف عددهم على ألفين — لم يدفنوا دفنا أصوليا، فان الأمطار ما لبثت أن كشفت التراب عن جثثهم، فأكلت الضوارى رممهم .

غير أنه اذا بكت مصر دمعا سخينا على أولادها الذين ضحى بهم فى تلك الأودية السحيقة جهل قوادهم الأتراك والشراكسة، فان الحبشة، وان تغنت بالفوز فى (قرع)، لم تجد بدا من البكاء بدل الدمع دما : فان عدد قتلاها لغاية ١٠ مارس بلغ خمسة آلاف ؛ ناهيك بالجرحى، والذين فروا، فلم يبلغوا ديارهم إلا معطوبين .

على أن ذات التغنى بالنصر لم يكن فى محله فى (قرع) بل ولا فى (قوندت) عينها . فان الجيش الحبشى الذى فتك بأرندروب وحملته كان يزيد على سبعين ألف مقاتل منهم ١٥ ألفا مسلحون بأسلحة نارية؛ ولم يقل الجيش الحبشى الذى قاتل فى (قرع) عن خمسين ألفا . فان كركهام كان يقول : ان النجاشى يستطيع حشد من ١٥ الى ٢٠ ألف فارس و٢٠ ألف بندقلى ، ومن ٥٠ الى ١٠٠ ألف بيـاده . ويذهب درهلز — وقد مكث فى أسر الأحباش خمسة وأربعين يوما ، ووقف على كثير من أسرارهم — أن عدد الذين داهموا القوّة المصرية الصغيرة فى (قرع) كان يربو على أربعمائة ألف .

ولا أدل على مقدار الخسائر التى أصابتهم أكثر من انسحابهم بعـد تلك المعركة بدون أن ينالوا من حامية الحصن مأربا ، مع أنها كانت تحت رحمتهم ؛ ولو صبروا على حصرها فقط ، بدون الحمل عليها ومقاتلتها ، لقطعوا عنهـا الزاد واضطروها الى التسليم . ويروى الخبيرون أن الذى أجبر النجاشى على الانسحاب إنمـا هو خسارته نصف جيشه وأكثر، بسبب الفارّين عنه بعد المعركة . وكانت خسارته هذه تكون أكبر بكثير لو أن عثمان بك قائد القوّة المصرية فى (قياخور) لم يظهر من الجهل والغباوة والحمق مظهرها الأقصى؛ ولم يحجم عن الاشتراك فى المعركة ، بالرغم من أن العدوّ كان ضمن دائرة مرمى مدافعه بل ذات بنادقه . وهو لو اشترك فيها لفل بمقذوفاته ورصاصـه شمل الأحباش المهاجمين التـل القائم عليه آلاى جابر بك وأورطة داى ومدفعية صبرى افندى ، من الوراء ، ولصعقهم صعقا، فمكن بذلك أولئك الأبطال من الاستمرار على حماية جناح الجيش ، حماية ربمـا أدّت الى فوز . والأدهش من إحجام ذلك الضابط ومخالفته للمبـدأ الحربى النابليونى ، الذى يحتم على كل قائد فرقة

أن يسرع نحو النار حالما يسمع دويها، لنجدة رفاقه المشتبكين فى قتال مع العدوّ، هو تهنئته نفسه فيما بعد على عدم اشتراكه فى تلك المعركة . وهو لو كان قائدا فى أمة غير أمتنا المصرية هذه، لجيء به، بسبب ذلك، أمام مجلس حربى ولحوكم محاكمة صارمة .

ومما يثبت أن النجاشى، بالرغم من بقائه سيد ميدان معركة (قرع)، لم يعتبر نفسه فائزا فوزا حقيقيا، هو أنه بادر فى ١٢ مارس الى ارسال رسول يعرض الصلح على السردار، ويلتمسه منه . وقفاه بمندوب خاص يدعى ليكو منكروس وركى، قدم المعسكر بصحبة ١٠ أو ١٢ ذات حيثية من ضمنهم پركنس زوج ابنته، المشهور عنه أنه ابن اللورد پركنس . فاستقبله السردار والأمير استقبالا شائقا، وقدّما له هدايا فاخرة من ضمنها جواد أبيض من كرام الخيل؛ وقاما بواجبات ضيافته بكيفية سنية . وما لبثت المخابرات فى شأن الصلح أن دارت بين الخديو والنجاشى، بواسطة السردار وذلك المندوب .

فطلب الخديو ردّ كل السلاح المأخوذ من المصريين، فى الحرب، اليهم، مقدّمة لفتح أى مفاوضات تكون . ولكنه عاد فتنازل عن هذا الطلب؛ وأذن لراتب بالتفاوض مع مندوب النجاشى . فتفاوض معه أياما؛ ثم بعد أن أهدى اليه ٥٠٠ ريال وأوانى فضية، وأهدى أتباعه ٣٠٠ ريال ومائة صليب، أعاده الى يوحنا لكى يخبره بما وصلت اليه المفاوضات، ويأتى من لدنه بتعليمات جديدة .

عود الأمير حسن الى مصر

وفى ٣ أبريل وردت اشارة برقية الى الأمير حسن تصرح له بالرجوع الى مصر، فترك الحصن فى ثانى غد من ورودها، وبلغ مصوّع، بفرقة من الخيالة فى صباح اليوم السادس من الشهر . فوجد "المحروسة" فى انتظاره هناك . فاستقلها وعاد الى

أحضان أبيــه . ولم يمض على وصوله يومان إلا وصدرت الأوامر الى راتب باشا بعقد الصلح بأحسن ما يمكن من الشروط والجلاء عن البلد .

ولمــا كان الفصح الحبشي مقتربا ، اغتنمها السردار فرصة جيدة ومناسبة لاخلاء حصن (قرع) ، والسير بقوته الى الحصن الذى ابتناه الكرنيل لوكت فى ممرّ (قياخور) . فما وصله واستقر فيه إلا وأقدم على عملين يذكرهما له التاريخ بمداد الاشمئزاز ، ويدلان على مقدار تعسف العنصر التركى الشركسى فى تلك الأيام بالمصريين ، بل بذات الضباط منهم ؛ واليك بيانهما :

مثلان على تعسف الشراكسة والأتراك بالمصريين

(١) كان قد اتفق لملازم أوّل مصرى والجيش معسكر فى (قرع) ، قبل واقعة ٧ مارس ، أن عثمان بك أمير آلايه الشركسى ضربه ذات يوم بدون سبب ، وبدون ذنب ؛ فرفع الملازم شكواه من ذلك الى السردار راتب باشا و بينها بيــانا مفصلا . فلم يلتفت السردار اليها ، وضرب بها عرض الحائط . فرأى الملازم أن ضربه ، وهو ملازم ، لا يتفق مع الكرامة المطلوبة له ، والتى تطالبه نفسه بها ؛ ولا مع هيئته فى نظر مرءوسيه . فتخلى عن وظيفته ، ورجع الى الصف بصفته جنديا بسيطا . وأظهر ، فى حاله هــذه الجديدة ، من الطاعة والامتثال وحسن السلوك ، وأبدى من ضروب الشجاعة ما جعله موضع اشارة البنان ، وأعلى منزلته فى أعين العسكر على العموم . ولكن أمير آلايه الشركسى عدّ عمله هــذا خارجا عن حدود الأدب العسكرى ومستوجبا عقابا صارما يردع غيره عن الاقتداء به . وشاطره راتب باشا رأيه . فما استقر فى حصن ممرّ (قياخور) إلا وأمر بذلك الرجل الأبىّ ، فسيق أمام مجلس حربى ، وحوكم محاكمة أصولية على زعمهم . فحكم المجلس عليه بالموت تحت الرصاص ونفذ الحكم فيه .[1]

(١) أنظر : "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى ص ٤٤٩ و ٤٥٠

(٢) كان قد قام من (مصوّع) الى (قرع) مدد تحت قيادة اسماعيل باشا الشركسى؛ فوصلها حوالى أواسط مارس، أى بعد الواقعة بأيام؛ ولكنه حدث، لما بلغ المدد (قياخور)، أن قائمقاما مصريا شعر بتوعك فى مزاجه، والتمس من اسماعيل باشا التصريح له بالبقاء فى هـذا الحصن حتى يشفى. فأبى عليه ذلك زاعما أن مرضه ليس مما يستوجب الإمهال! فألحّ القائمقام، لا سيما أن الرفض الصادر عن رئيسه زاد فعلا فى وطأة الداء على جسـمه. فأمر اسماعيل باشا طبيب الفرقة بالكشف عليه؛ واستعمل فى أمره ألفاظا أدرك الطبيب منها أن الباشا يرتاح الى تقرير لا يكون موافقا للمريض. فكشف عليه؛ وقرر أن المرض ليس ذا بال. فما كان من الباشا إلا أنه ذهب بنفسه الى خيمة ذلك القائمقام، وأمر باقتلاعها، وقلبها على رأسه؛ وحتم أن يسير الرجل مع أورطته مشيا على قدميه. فازداد المرض ثقلا على المسكين، وحال دون تمكنه من الاستمرار على المشى. فتأخر عن أورطته. فأمر اسماعيل باشا الشركسى بتجريده من رتبته وتنزيله الى الصف نفرا بسيطا! ففعل. ولكن ذلك لم يشف غليله، كأنه كان بينه وبين ذلك القائمقام ثأر قديم. فلما استقر الجيش العائد من (قرع) فى (قياخور)، طلب محاكمته أمام مجلس عسكرى. فحوكم، وحكم المجلس عليه بالاعدام. فأخذوه وأجلسوه على أرض، موثق الركبتين، مغلول الكوعين، وراء كتفيه. وأطلقوا عليه الرصاص. فجرح جروحا عدّة، ولكنه لم يمت. فكلف باشجاويش بالاجهاز عليه. فقتله صبرا[1]!

واننا لدى مطالعتنا هذين الحادثين، ووقوفنا على ما أجمع عليه المؤرّخون من غربيين ومصريين، من أن كبار الضباط الشراكسة كانوا شديدى القسوة والجبروت

(١) أنظر: "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداي ص ٤٥٠ و ٤٥١.

على الضباط المصريين، لا سيما الصغار منهم؛ وأنهم كانوا يؤاخذونهم بالعنف والشدّة على أصغر الصغائر، لكيلا يفشلوا على زعمهم؛ ويلقونهم فى أضيق السجون، عند أقل حادثة، نفهم بجلاء لماذا قام أحمد عرابى بثورته؛ وندرك بسهولة أنه كان لابد منها مادامت روح القيادة العليا هى عينها التى تولت زمام حملة سنة ١٨٧٦ المشئومة .

وكان السردار، منذ قيامه من (قرع)، قد كلف أورطة بالسير أمام الجيش لتمهد له الطريق وتجهزها فيما بعد (قياخور)؛ وتهيئ له أسباب الراحة والاطمئنان. فانطلقت تلك الأورطة، وقامت بمهمتها، حتى بلغت حصن (أمباتقان) المقام فى وسط المسافة بين (قياخور) و(ينجس). وكان المنظور أن الذين ابتنوه، وقضوا عدّة أسابيع يشتغلون فى حفر آبار بجواره قد أوجدوا منها العدد الكافى، واعتنوا بحرص تام بحفظ الماء فيها. ولكن قلة الصيانة — وهى النقص الأكبر فى أخلاقنا الفردية والقومية على العموم — أدّت الى إهمال شأن تلك الآبار حتى طمرها التراب وعفى آثارها. فلما لم تجد الأورطة المتقدّمة أثرا للماء فيها، اجتازتها الى (ينجس)، بدلا من تنظيف الآبار وتطهيرها لإعادة الماء اليها، أو حفر غيرها تفى بحاجة الجيش القادم .

فنجمت عن ذلك نكبة أخرى أصيب الجيش بها؛ لأنه، اذ لم يجد ماء بعد سير حثيث متعب، فلّ، وتبعثر، وتشتت أيدى سبا. ولما أنهك الرجال النصب فى تلك الفلوات المجهولة، شرعوا يركبون خمسة وستة على البهيم الواحد؛ فأدّى ذلك الى إنهاظ حيوانات النقل، إنهاظا أودى بحياة معظمها؛ وبات الذاهب من (قرع) — وما كاد المصريون يخلون حصنها إلا واحتله الأحباش ودمروه — الى

مصوّع يرى الطريق مغطاة بجثث الرجال والبهائم ، وقد اجتمعت عليهـا الطيور الكاسرة ، والوحوش الضارية ، متبارية فى نهشها ، كأنها دعيت الى وليمة لم تكن فى الحسبان !

على تلك الحالة الرديئـة ، وصلت بقية الحمـلة الى مصوع ، حيث أقامت أياما فى انتظار ورود الأوامر اليها بالعودة الى مصر . فلما جاء المرسوم بذلك ، نزل السردار بمن معه فى إحدى السفن الخديوية ، وأنزلوا ما بقى من المدافع والأسلحة والمهمات فى ثلاث سفن كبيرة أخرى ، وأقلعوا قاصـدين السويس ، وكأن النحس أبى إلا مرافقة ألوية راتب الى النهـاية ؛ فحمل سفينة منها تدعى "دنقلة" على الارتطام بصخر فى المـاء ، فغرقت بما عليها ، ولم ينج منها غير الرجال . ولمـا وصل العساكر الى السويس ، سيروا على الأثر الى رأس الوادى ، حيث أقاموا أياما ، ثم سرحوا . فعادوا الى أوطانهم يحملون أنباء البؤس والشقاء اللذين حلا بهم ، والنكبات التى احتملوها .

انتهاء الحروب مع الحبشة

هكذا انتهت الحروب مع الحبشة ، بعد أن كلفت الخزينة المصرية نيفا ومليونين من الجنيهات . ولولا أن سوء طالع البلاد حال دون رغبة الخديو فى تسليم قيادتها الى الأكفاء من موظفيـه ، بضرب الصفح عن كونهم غربيين أو شرقيين ؛ وأن العنصر الشركسى المتغلب فى المراجع العليا على دوائر المشورة أبى إلا مقاطعة الغربيين ، واحتقار كفاءتهم ، اعتدادا منه بكفاءته المعدومة ، لمـا آلت جهود (اسماعيل) الى تلك النتيجة الوخيمة ، ولمـا باتت نكبة الحبشة من أقوى عوامل ضياع الثقة الغربية بمصر ومقدرتها .

لذلك قلنا بحق ان تحديد التخوم بين الأملاك المصرية والحبشية أصبح من أهم المشاغل والأمور ، لأن النجاشى ، بعد الفوز الأدبى الذى أوتيه بانسحاب الجيش

المصرى بخفى حنين، أصبح شديد المراس فى طلباته، بعيدا عن حدود التسامح والتساهل فى التسليم بالمطالب الخديوية . فقضى جوردون مدّة ولايته كلها على السودان، مشتغلا فى تسوية الخلاف، عاملا على اعادة المياه الى مجاريها بين الدولتين .

وكان أوّل أمر باشره، عند توليه الحكمدارية، أنه ذهب الى مصوّع لعقد وفاق مع النجاشى بشأن الحدود؛ لكنه وجد (ولدا ميخائيل) شاهرا العصيان على يوحنا؛ ووجد أن يوحنا يلقى تبعة عصيانه على تحريضات سرية تأتيه من مصر . فأجل النظر فى الأمر الى فرصة أخرى؛ وذهب الى دارفور للنظر فى إخماد ثورة الأمير هارون الرشيد كما مرّ . ثم عاد الى (سنهيت)، فوجد (ولدا ميخائيل) لا يزال على عصيانه . فلكى يبرهن للنجاشى على أن مصر لا يد لها فى تمرّده، طلب اليه أن يتحد معه على سحقه . فلم يجبه يوحنا الى طلبه . فعاد الى الخرطوم ومصر؛ ثم رجع بطريق البحر الأحمر الى هرر فوصلها فى ابريل سنة ١٨٧٨؛ فوجد رؤوف باشا مشغولا عن الرعية بشئون تجارته، وقد كثر ظلمه، فعزله .

وأما الحبشة فلم يتوصل الى الاتفاق معها .

الى هنا تقف حركة الفتح والتوسع فى أيام (اسماعيل). ويؤخذ منها، بصفة اجمالية، أن السير صموئيل بيكر، فيما بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧٣، احتل وادى النيل الأبيض الأعلى لغاية (جندوكورو)؛ وأن الزبير فتح بلاد بحر الغزال فدارفور؛ وأن جوردون كمل عمل بيكر، فأسس نقطا حربيـة لغاية (مرولى) على نهر السمرست؛ واحتل ماسندى عاصمة مملكة يونيورو، ووضع حدّا للمنازعات التى كانت قائمة منـذ دهر، بين قباريجا وآنفينا وريونقه، سليلى أوّل ملوك اليونيورو، على تقسيم هذه المملكة ! فأجبر قباريجا على الامتثال لارادته؛ وعين الاثنين الآخرين حاكمين على (ماجونجو)

و (مرولى) ، تحت ولاء الخديو ، وأن حملة عسكرية أخرى بلغت بحيرة ڤكتوريا ، وأقامت على بعد قليل من شلال ريبون العظيم نقطة عسكرية عند الدرجة ٠,٣٠ شمالى خط الاستواء ، وأن الجنود المصرية احتلت فى الوقت عينه بربرة ، وعهدت اليها مهمة التقدّم بالتدريج على طول حدود الحبشة الجنوبية الشرقية ، للاحاطة بهذه البلاد ، باخضاع عموم المقاطعات الممتدّة ما بين البحر وينابيع النيل ؛ وأن توسع السيادة المصرية على ساحل آفريقيا الشرقى سار بخطوات متساوية مع سير الفتوح فى داخلية القارة ؛ وأن مصر وضعت قدميها بثبات وعزم على خليج عدن فى سنة ١٨٧٣ ؛ وأن منزنجر ، بصفته محافظ مصوّع والحاكم العام للسودان الشرقى ، مافتئ يوسع دائرة ولايته حتى مدّها رويدا رويدا على ساحل الصومال فيما وراء بربرة ؛ وأن الخديو استخدم ذلك الثغر قاعدة لتسيير حملات متتابعة ضدّ قبائل الصومال المجاورة ، لا سيما قبائل القالا ، فقهرها على أمرها ؛ وأنه استولى على هرر بدعوة من أهلها ؛ وأنه لما لم يعد فى سبيل تجمع أملاكه بعضها الى بعض سوى الحبشة ، أراد كنسها من سبيله ، فأوقف دفاعها عن نفسها ، وسوء اختيار القوّاد الذين نيطت بهم محاربتها ، سير جنوده الفاتحة المنصورة .

فكانت نتيجة هذه الفتوحات كلها أنه أضيف خمسون ألف ميل مربع الى مساحة الدولة المصرية ونيف وثلاثة عشر مليونا ونصف مليون الى عدد سكانها .

الفصـــل الثـانى[1]

العناية بالعلوم وتوســيع دائرتهـا

أبدو فيخضع من بالسوء يذكرنى * كأننى فوق أعنـاق العـدى علم

«أحمد بن شاهين الدمشقى»

غير أنّ أهم نتائج تلك الفتوح تمكن (اسماعيل) من إرسال عدّة بعثات علمية الى أواسط أفريقيا ومجاهلها، وأقاصى سواحل المحيط الهندى الشرقية، للقيام باستكشافات شتى، فى أبواب مختلفة، أثرت العـلوم من ورائها وزادت دائرتها اتساعا؛ ورفع فى الوقت عينه شأن دولته رفعا باهرا .

وذلك علاوة على ما سبق لنا ذكره فى الفصل الخامس من الباب الأوّل، من مظاهر عنايته الفائقة بالمعارف والتعليم والحركة الفكرية؛ وما بذله لأربابها والقائمين بها من صنوف الاكرام والترغيب مالم يرو عن عاهل شرقى غيره، منذ أيام كبار العباسيين وكبار الفاطميين .

ولما كان تفصيل وقائع تلك البعثات، على ما فيه من لذة وتشويق للطالعـة، يستدعى كتابا على حدته، يحسن بالمجمع العلمى المصرى أن يكلف بوضعه أحد أعضائه الأفاضل، ولو على سبيل الاعتراف بما كان (لاسماعيل) عليه من أياد، نرانا

(١) أهم مصادر هـذا الفصل : التعليق المشار اليه بحرف F فى كتاب ادون دى ليون المعنون ''مصر الخديوى'' ص ٤٢٩

مضطرين ، لئلا يطول هـذا المؤلف بين أيدينا طولا منتقدا ، الى الاكتفاء بنبذة وجيزة عنها والاشارة اليها فقط .

على أننا لسنا بذاكرين هنا إلا البعثات المرسلة من (اسماعيل) على نفقة حكومته الخاصــة، مغضين النظر عن البعثات التى شجع على ارسالها المجامع العلمية الغربية ، من نوع الشركة الجغرافية الملكية بلندن وغيرها ، أو قام بها أفراد كالسير صموئيل بيكر، بمساعدته الفعالة .

ومرجع الفضل فى تمكين (اسماعيل) من الإقدام على إرسال تلك البعثات انما هو لاستقدامه الضباط الأمريكيين، وانشائه مدرسة خاصة لتخريج أركان حرب ، واعتنائه اعتناء فائقا بتربية ضباطها ، ثم لاحتياطه برجال ذوى عزم وشجاعة من الغربيين والمصريين على السواء ، رأوا لذة كبرى فى إيقاف حياتهم على الرحلات والاستكشافات العلمية .

الرحلات العلميــة والاستكشافات

والبك بيان تلك الرحلات والاستكشافات مأخوذا عن كتاب "مصر الخديو" للستر ادوين دى ليون القنصل الأمريكانى السابق لنا ذكره مرارا :

(١) رحلة جوردون من جندوكورو الى بحيرة ألبرت نيانزا ، برفقة واطسون وتشيندال وچيسى ، لمعرفة مجرى النيل الأبيض فى تلك الجهات ، والوقوف على أحوال البلاد الممتدّة على ضفافه ، الجوية والطبيعية والزراعية وغيرها .

(٢) رحلة واطسون وتشيندال ، بأمر من جوردون ، من الخرطوم الى جندوكورو للغرض والمهمة عينها .

(٣) رحلة واطسون وتشيندال أيضا فى ديسمبر سنة ١٨٧٤ الى رجاف بالقرب من جندوكورو ، ليرصدا انتقال الزهرة و يضعا تقريرا عنه للمراصد الفلكية بمصر والغرب .

(٤) رحلة چيسى ، بأمر من جوردون ، الى بحيرة ألبرت نيانزا ، وطوافه فيها للوقوف على اتساعها ، وعلى مقدار المنصب من مياهها فى النيل سنويا ، ولمعرفة أحوال القبائل القاطنة على سواحلها وغير ذلك .

(٥) رحلة لونج ، تحت إمرة جوردون ، لارتياد مجرى النيل واختباره بين بحيرة فكتوريا نيانزا ، ومرولى ، اختبارا شاملا ، واستكشافه بحيرة ابراهيم ، المسماة كذلك ، على اسم أبى الخديو ووصفه إياها وصفا وافيا .

(٦) رحلة لينان وچيسى وپياچيا ، تحت إمرة جوردون ، لتحقيق مجرى النيل ، ودرسه درسا دقيقا ، ما بين شلالات كما ، وبحيرة ألبرت نيانزا .

(٧) استكشاف چيسى الفرع الخارج من النيل بالقرب من بحيرة ألبرت نيانزا ، والسائر نحو الشمال الغربى .

(٨) استكشاف پياچيا الفرع الخارج من بحيرة ابراهيم ، والسائر نحو الشمال .

(٩) رحلة جوردون بين فويرا ، ومرولى ، لدرس مجرى النيل بينهما .

(١٠) رحلة لونج ومانيو الى البلاد مابين النيل الأبيض ، بالقرب من جندوكورو وبحر الغزال ، لاختبارها ودرس أحوالها وطبائعها ، واستطلاع بلاد ماكا كا ونيام نيام (النمانم) .

(١١) رحلة الكرنيل كلستون ومعه خمسة من ضباط أركان الحرب ، لاستكشاف وتخطيط الطريق ما بين الدبة ومتول ، والدبة واتيل .

(١٢) تجول الكرنيل كلستون فى الجزء الشمالى من إقليم كردوفان ، لوضع تقرير واف عنه ، وقضاؤه عدة شهور فى تلك المهمة .

(١٣) رحلة الميجر پراوت لارتياد اقليم الكردوفان، عامة، والوقوف على دقائقه؛ ووضعه خريطة شاملة مفصلة لغاية الدرجة الثانية عشرة من العرض الشمالى؛ وتجواله، ومعه الخمسة الضباط البادى ذكرهم من ضباط أركان الحرب فى تلك الأصقاع، تجوالا قطع فيه نيفا وستة آلاف كيلو متر؛ وتحديده سبعة عشر موقعا تحديدا فلكيا .

(١٤) قيام الدكتور پفند، تحت ادارة كلستون و پراوت، باجراء اختبارات نباتية، لمعرفة نباتات وأزهار اقليم الكردوفان، والعود بمجموعة نباتية، من تلك البلاد، كان لها شأن يذكر عند علماء التاريخ الطبيعى .

(١٥) قيام الكرنيل پردى واللفتننت كرنيل ميسون وخمسة من ضباط أركان الحرب المصريين بارتياد الطريق وسيره، مابين دنقلة والفاشر، عقب استيلاء الجنود المصرية على دارفور .

(١٦) رحلة الكرنيل پردى واللفتننت كرنيل ميسون والميجر پراوت وتسعة من ضباط أركان الحرب المصريين الى دارفور، ودار فرتيت، وحفوة النحاس، واستطلاعهم أحوال تلك البلاد الجوية والطبيعية والزراعية والمعدنية؛ وسيرهم من جبل ميروب شمالا الى السكا جنوبا، ووداى غربا؛ ووضعهم خريطة عامة شاملة لجميع هاتيك لأصقاع، بعد اجتيازهم ٦٥٠٠ كيلو متر؛ وتعيينهم ٢٢ مركزا تعيينا فلكيا دقيقا .

(١٧) قيام الدكتور پفند، تحت ادارة الكرنيل پردى، باجراء اختبارات نباتية لمعرفة نباتات اقليم دارفور المفتتح، وأزهاره؛ والعود منه بمجموعة نباتية كان لها شأن المجموعة التى جاء بها الدكتور عينه من كردوفان .

(١٨) رحلة متشل الجيولوجى، وأميليانو ، وضابط من ضباط أركان الحرب المصريين من قنا الى البحر الأحمر، بالقرب من القصير، ووضع خريطة لتلك الجهات وتقرير علمى عنها .

(١٩) رحلة متشل عينه بمن معه الى البلاد الواقعة فى شمال زيلع الغربى، وبالقرب من فرضة تجورا ، للوقوف على حالها من الوجهة العلمية على العموم ، والجيولوجية على الأخص .

(٢٠) قيام القائمقام مختار والمساعد القائمقام فوزى باستطلاع الأرض مابين زيلع وهرر، وتخطيطها؛ ووضع خريطة لها وللبلاد الواقعة فى جيرتها من جميع الجهات .

(٢١) بعثة الكرنيـــل لكيت والكرنيل فيلد واللفتننت كرنيل دريك والضابط بليغ افندى والميجرات ديوليو ودنيش ودبوهولى ، والكبتن إرجنس ، وعدّة من ضباط أركان الحرب الآخرين الى جوار مصوّع وهضبة الحبشة ، لدرس طبيعــة الأرض وطوبوغرافيتها ، ومناخ البــلاد ووسائل معيشتها؛ ولوضع خريطة مفصلة لها؛ وذلك قبيل الحمل عليها عسكريا .

(٢٢) بعثة متشل بعد اكتشافه منجمى ذهب قديمين وأميليانو من مصوّع الى هضبة الحبشة لاجراء أبحاث جيولوجية. وهى البعثة التعيسة التى أسر فيها الأحباش متشل ورجاله وأذاقوهم العذاب ألوانا وصنوفا . وقد بين ذلك الأمريكى الفاضل والمنكود الحظ معا تفاصيل حوادثها فى الكتاب الخاص الذى وضعه عنها للجنرال ستون؛ والذي يدخل قارئه فى كنه أسرار المعيشة الحبشية وأخلاق أولئك الأقوام الهمجيين[1] .

---

(١) تقرير عن استيلاء الحبشان على البعثة الاكتشافية الجيولوجية والميترالوجية المرسلة من أركان حرب الجيش المصرى "للستر متشل ل . هـ" .

(٢٣) رحلة الضابط عبد الرزاق نظمى وبعض زملائه من أركان الحرب المصريين، من بربرة الى جبل دوبار، للوقوف على حال البلاد الواقعة بينهما، ووضع خريطة تبينها وتشرحها .

(٢٤) رحلة الكرنيل وورد واليوزباشى صدقى الى سواحل المحيط الهندى الافريقية الشرقية، لدرس طبيعتها ومعرفة مواقعها، ووضع خريطة تفصيلية لها .

(٢٥) رحلة الميجر ديوهولى، صحبة ضابط من ضباط أركان الحرب، لاستطلاع الطريق بين أسيوط وعين العجية ووضع خريطة لها تسهل على القوافل السير فيها .

(٢٦) رحلة الضابط محمد هدايت، من ضباط أركان الحرب، تحت ادارة متزنجر، للاستطلاع ما بين فرضة تجورة وبحيرة اعوسا .

(٢٧ و٢٨ و٢٩) بعثات مختلفة الى كردوفان ودارفور وخط الاستواء، لإجراء اختبارات واستطلاعات بارومترية وترمومترية متنوعة .

(٣٠) بعثة برتن الى أرض مدين للوقوف على معادنها وغلاتها . وبرتن رحالة مشهور جال المعمور بأسره تقريبا ؛ ووضع كتبا ترغب فى مطالعتها، وصف فيها أسفاره وصفا حيا .

مقارنة مفيدة

وإن الانسان ليقف مبهوتا حائرا أمام انبعاثات هذه الهمم الاسماعيلية الفائقة فى ميدان لم يخطر لأحد من أسلاف صاحبها العمل فيه، مع أن المدّة المنصرمة بين ملكهم وملكه قصيرة؛ ويكاد العقل لا يتصوّرها كافية لنضوج مثل هذا التقدّم الرائع، فى العقلية العلمية، وتقدير العلم حق قدره لمجرّد ذاته .

وفى الحقيقة، فاننا نعلم أن (محمد على)، الرجل العظيم، على سعة عقله، وقوّة بداهته، وصفاء ذهنه، لم يكن يقدر أن يفهم مطلقا ما هى الفائدة من صنع الخرط،

حتى انهـــم يروون عنه أن سليمان باشا الفرنساوى، بينما كانت الحرب قائمة على قدم وساق فى سوريا ، بعث يطلب من ادارة الأشغال العمومية بمصر ارسال فرقة من المهندسين اليه لكى يضعوا خريطة لتلك البلاد، لا سيما لبعض أجزاء منها كان يشعر باحتياجه الى معرفة طوبوغرافيتها بالدقة، لأعماله الحربيــة ؛ فلما كونت الفرقة ، ووضعت الأدوات اللازمة لهــا تحت تصرفها ، التمس من (محمد على) التصريح لها بالسفر . ولكن الباشا حينما علم أنها مسافرة لغرض عمل خريطة فقط ! رفض قائلا : « وما الفائدة من عمل خريطة ، مادامت البلاد فى أيدينا[1] ! » ؛ وإننا نعلم أن الخرط المساحية التى صنعها الايطالى المدعو (مازى) مع بضعة شــبان مصريين متخرجين من القصر العينى لبعض أجزاء مصر السفلى ، حينما مسحت عموم الأطيان المصرية فى سنة ١٨٢٢ تحت ادارة المعلم غالى كبير القبط وملاحظته ،قد بعثرت كلها ودثرت بالرغم من نفاستها وشدّة الحاجة اليها[2] ؛وإننا نعلم أيضا أن الرجال الذين أحاطوا بالباشا العظيم فى حياته وساعدوه على نفاذ مشروعاته لم يكونوا ، اذا استثنينا منهـــم بعض غربيين، سوى أفراد ذوى همم عالية ومخلصين ، لم يكونوا من العلم بحيث يفهمون فائدة هــذا العمل النافع الجليل ؛ فان لينان باشا حينما تعين باشمهندسا للوجه القبلى وأحيط بزمرة من المهندسين المتخرجين من مدرسة هندســة القاهرة ، طالب كلا منهم بعمل خريطة للجهة الكائنة تحت ادارته ليقدر مقدار كفاءته ؛وطلب من حكومة (محمد على) الآلات اللازمة لذلك ؛فأجابته عن لسان محمد بك المنسترلى ،وكان شيخا يكاد يكون أميا : «ان الطلب المقدّم منك طلب صائب ؛ونقرّ لك أن ما تريد أن تعمله

(١) أنظر : كتاب لينان دى بلفون المعنون " بيان أهم الأعمال التى تمت فى القطر المصرى منــذ أيام الفراعنة الى اليوم " .

(٢) أنظر : الكتاب عينه ص ٤٩٠

عمل مفيد؛ ولكن حيث انا لا نعلم ما هى هذه الخرط ولا ندرى ما اذا كان فى وسع المهندسين أن يصنعوها ، فانا نودّ أن نرى أوّلا بعضا منها من ذات صنعهم ، فاذا أعجبتنا أسرعنا الى اعطائك الالات والأوراق التى طلبتها[١] » ؛ ونحن نعلم كذلك ان لينان باشا نفسه فى سنة ١٨٤٠ — وكان إذ ذاك بيكا — وضع ، بعد متاعب جمة ، خريطة عامة لمصر السفلى ورسمها وكملها ؛ ثم اقترح على الباشا العظيم أن ينشرها لتعم فائدتها ، لا سيما بمصر ، حيث يهم الكل وعلى الأخص الحكومة معرفة الترع والجسور والأشغال الخاصة بالرى ؛ فأعرض (محمد على) عنه ، ولم يجبه لا بنعم ولا بلا[٢] ؛ ونعلم أن لينان هـذا أيضا وضع بناء على أمر (محمد على) نفسه خريطة لمديرية الفيوم ، راقب صنعها أدهم باشا — وكان رئيس ديوان الأشغال العمومية — مراقبة دقيقة . فبرزت خريطة جميلة جدا مقياسها $\frac{1}{10000}$ ؛ فصنعوا منها واحدة أخرى مقياسها $\frac{1}{20000}$ وأعطوها للأمير تنفيذا لرغبته ؛ فأهملتا مع ذلك ، فضاع أثرهما بل ذكرهما[٣] ؛ ونعلم أن عناية حكومة (عباس الأوّل) بدفترخانات الأشغال وتصميماتها ورسومها وخرطها وملفات أوراقها تمثلت فى هذا العمل المادى وهو : انهم وضعوها كلها فى زكائب كبيرة كزكائب القطن ، ورموها تحت دوس الأقدام فى مخازن ملآى رطوبة وعفونة وجرذانا ؛ فأكلتها تلك الرطوبة وهـذه الحيوانات[٤] ؛ ونعلم أخيرا أن صدور أمر (محمد سعيد) الى مصرىّ يقال له محمود بك (محمود باشا الفلكى) — أقام

(١) أنظر : كتاب لينان دى بلفون المعنون "بيان أهم الأعمال التى تمت فى القطر المصرى منذ أيام الفراعنة الى اليوم" ص ٤٨٩ و ٤٩٠

(٢) أنظر : الكتاب عينه ص ٤٩١

(٣) أنظر : الكتاب عينه ص ٤٩٢

(٤) أنظر : الكتاب عينه .

مدّة بفرنسا ، يتعلم فى مرصد باريس — بعمل خريطة عامة لمصر على قاعدة نقط مثلثية تحـدّد بملاحظة خطوط الطول والعرض ، (فرجع محمود بك فى وضع تلك الخريطة الى عموم ما صنع من قبيلها ، لاسيما خرط الحملة الفرنساوية ، وخرط لينان السابق ذكرها ، والرسوم المساحية التى صـنعها بيهض باشا لمديريات بنى سويف والمنوفية والغربية ؛ واسـتفاد من ذلك كله لصنع خريطته التى لمـا تمت كانت خير ما أخرج من نوعها فى القطر المصرى) ، قد عدّ من أجل الأعمال العامّة المفيدة فى عهد (محمد سعيد باشا)[1] .

فلا يسعنا ، ونحن نعلم ذلك جميعه ، ونرى — إزاءه — المجهودات المتنوعة المبذولة من (اسماعيل) فى زيادة كنوز العلم المجرد ، وعدم احجامه عن أية نفقة وأية مشـقة تستدعيها تلك الجهود ، إلا أن نعتقد بأن قرنا ، على الأقل ، انقضى بين ملك (سعيد) وملكه ، ونكاد نأبى التصديق بأن مثل ذلك التطوّر العقلى المدهش ، فى الوسط المصرى بأكمله ، قد أمكن أن يتم بمجرّد ظهور رجل واحد على مسرح الحياة العمومية .

لذلك كان اعجاب الأوساط المتمدينة فى الشرق والغرب بما امتاز به عهد (اسماعيل) من حركة فكرية خصيبة ، وبعناية الخديو الفخيم بالعلوم وزيادة كنوزها ، ورغبته فى توسيع دائرتها ، اعجابا عاما لا تشوبه شائبة . ولذلك استحق (اسماعيل) عن جدارة أن يجلسه احترام الانسانية لكل من عنى بالعلوم فى مصاف الاكارم مَن النوع البشرى : كبريكليس ، وأغسطس قيصر ، وعمانوئيل السعيد البرتغالى ، وليو العاشر ، ولويس الرابع عشر ، الذين امتازوا بتنشيط العلماء ، وترغيب ذوى المعرفة والإقدام فى الرحلات العلمية والاستكشافات العمرانية ! ألا فليبق جالسا هناك الى أن تدق الساعة !

---

(١) أنظر : كتاب لينان دى بلفون المتقدم ص ٤٥٩

الفصل الثالث[1]

أبهة الملك وجلاله
لا سيما في المواسم والرسميات والأعياد والأفراح

رأت مصر على ممر القرون من مظاهر العظمة ومجاليها ، وأبهة الملك وجلاله ، ونفخة الرسميات وجمالها ، ما لا تحسد معه قطرا في الوجود على ما أحرزه من ذلك ؛ ولكنه لم تتوال تحت قبة سمائها الصافية ، وعلى ضفاف نيلها السعيد ، سلسلة أعوام أخذت نصيبها الأوفر من الجلال والمهابة ، والبهجة والأبهة ، والجمال والفخامة ، واللذات ، مثل أعوام ملك (اسماعيل) الستة عشرة . فقد كانت حلما في مخيلة التاريخ لم يتحقق إلا مرّة واحدة في دائرة عصوره ! لا تكلمني عن جلال حفلات الفراعنة الأقدمين ؛ ولا عن أبهة الاحتفال البطليموسي المهيب بالمجئ برفات الاسكندر الأكبر من بابل الى مقرّه الأبدي في الاسكندرية ؛ لا تذكر لي «الحياة التي لا يقتدى بها» التي قضاها أنطونيوس وكليوباترا ، ما بين كانوب وفارو ، قبل أن يميد البحر والأرض بهما ؛ لا تحدّثني بأيام أحمد بن طولون وخمارويه ، وموكبهما السني ، وابتهاجات قران قطر الندى بالخليفة العباسي ، المالك على ضفاف الدجلة في بغداد ؛ لا تخبرني بزهو الأعياد والرسميات في أيام الفاطميين التي لن تنسى ، وبجلال جلوس أولئك الخلفاء

---

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "تذكارات عن أميرة شابة مصرية" للس تشنلر مربيتها ، والفصل العشرون من كتاب "مصر الخديوي" لادون دي ليون والفصل السابع من كتاب "باريسي في القاهرة" لكارل دي بريير ، و "حياة البلاط بمصر" لبتلر .

البذاخين ، ونخامة مواكبهم فى الأعيـاد والمواسم ؛ لا تطنطن لى بفخفخة رجوع البندقدارى وقلاوون وفرج والناصر و برقوق والمؤيد و برسباى وقايتباى الى عاصمتهم المصرية ، عقب انتصاراتهم فى الشرق ، وشقهم شوارعها بالقبة والطير ؛ ولا تذكر لى دخول بونابرت القاهرة على رأس جيشه الفائز من تحت قبة باب الفتوح ، بين عزف الموسيقات ، ودق الطبول ؛ فان هذا جميعه ، على ما فيه من سنا وسطوع ، وأخذ بمجامع القـلوب ، ينكسف تماما أمام الأشـعة المنبعثة الى صفحات الأساطير عن أبهة الأيام وجلالها وأعيادها فى عهد (اسماعيل) .

وانا بعد ما تقدّم لنا ذكره عن الأعياد التى أقيمت احتفالا بقدوم السلطان عبد العزيز ، واللورد پاچيت أمير الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض ، والامبراطورة أوچونى ، امبراطورة الفرنساويين ، والامبراطور فرنتز يوسف امبراطور النمسا والمجر ، والبرنس فردريك ، ولى عهد الدولة البروسية ، وزمرة العواهل والأمراء الذين حضروا حفلات فتـح « ترعة السويس » ؛ — وقد أنفق فيها وحدها ما أنفقته أسرة برمتها من الأسر السابقة فى أعياد مئات من السنين ؛ بعــد ما سبق لنا وصفه من مظاهر الضيافة التى بذلت فى تلك الأعياد للألوف من الوافدين ، تباعا ، أياما بل أسابيع متواليـة ، وامتازت بأطعمتها اللذيذة ومشروباتها الفاخرة ونزهها النيلية الجميـلة ، والضيافة التى كانت تبذل بسخاء لا يعرف حدا ، وتفنن لا يعبر عنه وصف لكل عالم وأديب ، ورجل سياسة أو مال ، كان يقدم زائرا على العاهل المصرى البهى المكارم ؛ بعد ما شرحناه من اقامة الأعياد والمراقص الشتائية ، الآخذة ببهجتها بمجامع الألباب ، فى كل سنة من سنى ذلك العهد العديم المثيل ؛ وما بيناه من استقدام المليك الحاتمى الكف طوائف الممثلين والممثلات ، وعلى رأسهـا نوابغ الفن وملوكه وملكاته ، منذ

أنشأ المسارح الفخمة للتمثيل فى عاصمتى بلاده ؛ بعــد ما ذكرناه من اقامة حفلات السباق فى مصر والاسكندرية على نظام لم تعهده القرون السالفة مطلقا ، وأزرى بحفلات لعب القبق ، فى أيام السلاطين المماليك ؛ وما ذكرناه عن مظهر (اسماعيل) الخلاب فى معرض باريس سنة ١٨٦٧ ، وفى زياراته المتعددة للعواصم الأوروبية لا سيما فى ســنة ١٨٦٩ ؛ وفى الحفلات التى أقامها فى قصره ببيركون على البوسفور للسلطان عبد العزيز وكبراء دولة بنى عثمان ، لا نزال فى احتياج الى التوسع فى هــذا الباب ، ولكنا ، لايفاء الموضوع حقه ، نقول ان أبهة الملك وجلاله تمثلا فى أيام (اسماعيل) علاوة على ما ذكرناه من مظاهرهما : (أولا) فى الأعياد والرسميات ؛ (ثانيا) فى الأفراح والأعراس ؛ (ثالثا) فى القصور والسرايات وما اشتملت عليه .

أما الأعياد — وهى الاسلامية الكبرى ، والقومية العامة ، كعيد وفاء النيــل ، وتذكار يوم الجلوس السنوى — فانك كنت ترى فيها العــاصمة قائمة قاعدة ؛ تجتاز شوارعها المواكب الفخمة والعربات الفاخرة ، والرايات والأشاير ، والطبول والزمور وجماعات أصحــاب الرتب والنياشين بملابسهم الذهبية الساطعة ونياشينهم المتلألئة ، وأوسمتهم الفاخرة ؛ يفــدون على سراى عابدين زرافات ، ووحدانا ؛ وكنت تســمع الموسيقات تصدح بأنغامها الشجية فى كل حى من الأحيــاء ، وتدوى المدافع دويا متعاقبا ، وتجرى الاستعراضات الجميلة : إما فى ساحة عابدين الفسيحة ، وإما بالعباسية ، مكان المولد النبوى ، الممتاز من بين تلك الأعياد بإحياء الليالى السابقة لحلوله ، إحياء بديعا ؛ فتنتشر فى الفضاء الواسع السرادقات الفخمة المزدانة بأفخر الرياش ، لا سيما سرادق الخديو وسرادقات رجال حكومته ؛ وتتلى الصلوات وتقام الأذكار فى الخيام والصواوين ، وتعم الفيوضات الخديوية المعوزين والفقراء . فتمدّ لهم الاسمطة ليلا ؛

فيأكلون ما طاب ولذ ؛ وتشعل السواريخ والألعاب النارية على أبدع الأشكال وأتم الأنواع .

وأما عيد الجلوس ، فانه كان يمتاز بمرور عشرة آلاف درويش ، بأشايرهم وراياتهم ، أمام شرفة القصر بعابدين بضجة وعجة عجيبتين ، تستمران ساعتين ؛ وباستعراض فخم يقام بالعباسية ، وتؤمه جماهير العالمين من كل فج عميق . .

ناهيك بما كان يقام فى تلك الأعياد من الولائم ، وما ينحر من النحائر ، وما يوزع من الصدقات ، وينعم به من النعم ، ويجاد به من العطايا ؛ فما من مستخدم فى القصور مهما كان حقيرا إلا وتخرج له الهدايا الثمينة المتنوعة ؛ للكبراء ، تمنح القصور والأطيان ، والجوارى الحسان ، والجواهر الثمينة ، والجياد المطهمة ؛ وللتوسطين تهدى صرر النقود ، أو السيوف المرصعة ، والآنية الفاخرة ، والرياش الوثير ؛ وللأصاغر ، تعطى الجوائز من الخواتم والساعات ، والملابس والحذريات . فكنت ترى الأقوام ، على اختلاف مراكزهم الاجتماعية ، ينتظرون حلول الأعياد بمطامع مفتوحة وأعين مرفوعة ، مركزها ولى النعم وآل بيته . فتجود أيدى (اسماعيل) وأزواجه وبناته بما يشبع تلك المطامع ويقرّ تلك العيون[1] .

وأما الرسميات ، وأهمها استقبال القناصل عند تعيينهم ، فان أخص ما كان يستوقف الأنظار فيها العربات الخديوية الخاصة تجرها أجاويد الجياد ، تارة ستة ، وطورا ثمانية ، وكلها من لون واحد ، وتحف بها كوكبات الفرسان بسيوف مشهرة ؛ فتذهب بمعتمدى الدول الى حيث يستقبلهم العاهل المصرى وهو فى وسط حلقة من وزرائه وأخصائه ، يأخذ سنا ملابسهم بالأبصار ، وتبهر جواهر النياشين المتلألئة على

(١) أنظر : "حياة البلاط بمصر" لبتلر ، ص ٢٣٠

صدورهم الأنظار، فبعد أن تتبادل الخطب المعتادة، وتتصافح الأيدى، كان يصدر الأمر الكريم بالإنعام على الوافد بسيف من السيوف المرصعة الثمينة، وحصان من أجاويد خيل الاسطبلات الخديوية العامرة.

الأفراح بزواج الأنجال

وأما الأفراح والأعراس، فلا أوقع فى تقريبها الى دائرة المخيلة من وصف الأعياد التى أقيمت احتفالا بزواج الأمراء الثلاثة: توفيق وحسين وحسن، أبناء (اسماعيل)، من الأميرات أمينة هانم بنت إلهامى باشا بن (عباس الأوّل)، والأميرة عين الحياة هانم بنت الأمير أحمد باشا بن (ابراهيم الأوّل)، والأميرة خديجة هانم بنت الأمير محمد على الصغير بن (محمد على) الباشا العظيم؛ وزواج أختهم الأميرة فاطمة هانم بالأمير طوسون بن (محمد سعيد) — تلك الأعياد، وقد أقيمت ابتداء من ١٥ يناير سنة ١٨٧٣، دامت أربعين يوما كاملة باعتبار عشرة أيام لكل فرح منها؛ ولا يزال ذكرها الى يومنا هذا يبهر تصور الذين رأوها وعاشوا أيامها اللامنسية.

فان شوارع العاصمة المهمة، وعلى الأخص ما كان منها مؤدّيا الى القصر العالى مقرّ والدة (اسماعيل)، وإلى سراى الجزيرة، مقرّ حفلات (اسماعيل) المفضل، وسراى القبة، مقرّ ولىّ العهد، زينت بالنجف والفوانيس المختلفة الألوان على مسافات بضعة آلاف من الكيلومترات؛ ووضع فى نهايتها أقواس نصر مختلفة الأنوار، جعلوا فى أعاليها طرقات رصعت بالشموع.

فسطعت ملايين الأضواء، تتلألأ فى الليل كأنها نجوم سطعت بغتة فقلبت الظلام نهارا؛ أو جعلت المتفرّجين يتصوّرون، مدّة ستة أسابيع متوالية، أنهم ينتقلون فى الليل من منطقة مدار الشمال الى منطقة أحد القطبين صيفا، حيث لا تغيب الشمس عن الآفاق أشهرا متعدّدة.

وأقيمت فى أهم الميادين ، هنا جوقات موسيقية — وأهمها التى اتخذت موقفها فى الطرقة بعالى قوس النصر تجاه القصر العالى — وهناك تخوت آلاتية — وأهمها تخت عبده الحمولى ، بلبل الأفراح ورب الطرب الشرقى على العموم . فأخذت تلك تصدح وتعزف ، وأخذت هذه تشنف الأسماع بألحان بديعة وأصوات رخيمة تجعل سامعيها يتخيلون أنهم انتقلوا الى جنـة الخلد البهية ؛ وأنهم يسمعون ترانيم الملائكة المختارين حول عرش الرحمن .

ونصبت فى كل جانب المسارح المرتجلة ، ليمثل عليها غواة الفن وجوقات كراكوز ، فيحضر من شاء تمثيلها مجانا ويعود الى منزله مرتاحا مبتهجا . ومدّت الحبال فى الساحات العموميـة ، لا سيما جهة القصر العالى ، ليلعب عليها « البهلوانيون » ألعابهم المدهشة المحيرة الألباب ؛ فشبكت بصوارى عالية جدّا ، ملفوفة عليها أقمشة ملونة ، تعلوها مراء فاخرة ، وتتخللها مناور ساطعة .

ورتبت السواريخ بتفنن غريب ، فى تلك الجهة عينها ؛ وأخذوا يشعلون كل ليلة جانبا منها ؛ فتدوى طلقاتها فى آفاق العاصمة كلها ؛ وتتناثر نجومها وأهلتها فى جميع الأحياء ست ساعات متوالية ، ناشرة فيها أنباء الأفراح القائمة ، وداعية الأهالى على اختلاف طبقاتهم الى الاشتراك فيها .

ففى اليوم الخامس عشر من شهر يناير ، على ما نظنّ ، بدأ خروج الهدايا المهداة من سمو الأميرة والدة (اسماعيل) وزوجاته الفخيمات الى العرائس من القصر العالى ، وشوارهنّ . وكان شوار الأميرة أمينة هانم ، زوجة ولىّ العهد ، أوّل ما خرج من ذلك النوع . فسير به الى قصر القبة ، تخفره صفوف الفرسان ، بزى عربى بديع ، وآلاى بيادة بأسره ، بملابس بيضاء ناصعة كالثلج ، تتقدّمه جوقة موسيقية من أمهر

العازفين . وكانت الهدايا موضوعة فى اسبتة مكشوفة ، فوق عربات مكسوّة بالقصب ، على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والمـاس ، يغطيها شاش فاخر ، يمسك بأطرافه أربعة عساكر فى كل عربة ، ويتبعهم ضباط بملابسهم الرسمية ، والسيوف مشهرة فى أيديهم .

وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات سنية ، وقلائد ماس ساطعة ، من النوع المعروف عامة باسم "البرلنتى" ، ومناطق من الذهب الخالص ، وأقمشة مطرزة باللؤلؤ العديم المثيل ، وزمرد فى حجم البيض ، وملابس بيضاء مطرز عليها رقم الأميرة باللآلئ والحجارة الكريمة ، وآنية متنوعة من الفضة الصب الخالصة بكمية عظيمة . وثمن ذلك جميعه يفوق الحصر والعدّ . وكان بين الهدايا المقدّمة من (اسماعيل) لأكبر أبنائه سرير من الفضة الصب الخالصة ، شبيه بالذى أهداه الى الامبراطورة أوجونى أثناء اقامتها بمصر ، محلى بمـاء الذهب الابريز ، وعواميده الضخمة مرصعة بالمـاس والياقوت الأحمر النادر والزمرد والفيروز . فاجتاز الموكب المهيب شوارع العاصمة ، بين سياج حىّ من العساكر الشاكى السلاح ، وتقدّم يتهادى فى سيره ، مختالا كأنه طرب بذاته ، شاعر بقيمته .

ولمْ يختلف شوار الأميرات عين الحياة هانم وخديجة هانم وفاطمة هانم ، والهدايا المهداة اليهنّ ، عن شوار أمينة هانم ، وما أهدى اليها مما تقدّم وصفه .

وفى اليوم السادس عشر ، أحيى فى العباسية السباق الأوحد الذى سبق لنا الكلام عنه فى غير هذا المكان ، وكان منظم (چوكيه) من السود اللابسين لباسا من الحرير الأحمر ، ومدّ فيـه ، على نفقة الخديو الخاصة ، مقصف للمدعوين فاقت أصناف

مأكولاته ومشروباته ، فى التنوع واللذة ، كل ما ظهر من نوعها على المقاصــف الخديوية الى ذلك الحين .

مرقص الجزيرة

وفى اليوم السابع عشر، أقيم مرقص فخم فى سراى الجزيرة، دعى اليه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف ذات من الأجانب وأعيان البلاد ووجوهها . فتورت الطريق كلها من عابدين الى منفذ كوبرى قصر النيل فى الجزيرة بفوانيس من الورق الزاهر الألوان ، ونشر عدد عديد من هذه الفوانيس عينها فى جميع طرقات البستان الجميل المحيط بتلك السراى البديعة، وبين أغصان أشجاره، وعلى الأخص فى البهو الواسع الممتد طول دورها الأرضى . فكان منظر تلك الأنوار لا سيما بسبب تنسيقها وترتيبها من ألطف ما تقر له العيون وتنشرح الصدور .

وامتاز ذلك المرقص بأنهم هيأوا فيــه وليمة عظيمة للمدعوين بدلا من المقاصف العادية، فبعد أن ماجت بجموعهم الراقصة، القاعة الفسيحة، حيث كنت ترى الأنوار المختلفة الألوان المنبعثة عن حلىّ عقيلات المدعوين تقترن بسطوع أكتافهن ونحورهن العارية، ويمتزج وقار الاسطمبوليات والملابس السوداء بأبهة ملابس كبار الموظفين الرسمية، الساطعة الأوسمة المتحلية بها صدورهم على قصبها وذهبها الوهاجين، وبجلال ملابس الضباط العسكرية، اللامع ذهبها حول وجوه أصحابها، الملفوحة من الشمس فى فيافى السودان ومجاهله ، أو فى مفاوز اليمن، أو فى وهاد جزيرة كريت وبين مضايق جبالها؛ بعد أن ماجت، بجموعهم الراقصة ، القاعة الفسيحة . بينما الشيوخ المسلمون من علماء وأعيان وموظفين، اللابسون قفازات بيضاء والملتحفون بوقارهم، ينظرون الى قصفهم بأعين تستغرب أن يقبل على الرقص الكهول ، وتهزأ بهم هزءا ساكتا؛ بعــد أن ماجت بجموعهم الراقصة القاعة الفسيحة، وقد حركت الحركة شهياتهم الى

الأكل ، جلسوا حول الموائد الفاخرة الممدودة ، حيث أقبل يخدمهم نيف وأربعمائة غلام (جارسون) ورئيس طهاة (ميتردوتيل) .

وفي التاسع عشر منه ، بدأت أعياد القصر العالي . فنصبت حول الساحة الممتدّة أمامه الصواوين والسرادقات وعليها أسماء أصحابها وبيان الغرض المعدّ كل منها لأجله ، وفرشت بالطنافس العجمية الفاخرة ، وأقبل أرباب اليازرجة يقيمون ألعابهم اللطيفة في وسط تلك الساحة الواسعة ، ومن ضمنهم بهلوان كان يصعد على حبله بخروف ويجزره فوقه ، ثم تفرّق لحومه على الفقراء . ورتب مقصفان للعموم : أحدهما على النمط الغربي ، وما فتئ مزدحما بقاصديه ، الراغبين على الأخص في أنبذته العتيقة الجيدة ، والآخر على النمط الشرقي ، وما فتئ هادئا بالمقبلين عليه . وأقيمت صواوين خاصة للقناصل ، وغيرها للتجار وأخرى للعلماء ، وسرادق لمحافظ العاصمة ، علاوة على الصواوين التي أقامها الأعيان على نفقتهم لأنفسهم ، ليتمتعوا بمشاهدة الأعياد — وكنت تراهم جالسين فيها يدخنون شبكاتهم — والصواوين العمومية المتخذة قهوات للرقص والغناء .

على أن الرقص والغناء لم يكونا قاصرين على الخارج ، بل ما كان منهما في داخل القصر وفي سرّ دور الحريم كان أهم وأشهى منظرا : هناك كنت ترى أشهر الراقصات مزاحمات صفية وعائشة الطويلة وغيرهما من ربات الفن السابقات ، على الابداع فيه . هناك كنت تسمع (ألمظ) التي كانت اذا غنت أخذت بمجامع القلوب واستولت على الأسماع برنين صوتها الرخيم ، وتوقيع أناشيدها الفتانة . هناك كنت تنظر مشاهير البهلوانية من الانجليز يأتون من صنوف الألعاب ما يخلب العقول ويدهش الألباب ،

وأساتذة الكار من أهل اليازرجة والسياء يأتون من الملاعيب ما يحير الأبالسة أنفسهم؛ وذلك لبهجة سا كنات تلك الدور وانشراح عيونهن وأفئدتهن .

وفى ظهر الثالث والعشرين من يناير، خرجت العروس الأميرة أمينة هانم، بصحبة سمو الوالدة باشا من سراى الحلمية، وتوجهت باحتفال عظيم الى قصر سمو ولى العهد بالقبة؛ يتقدّمها ويحف بهـا موكب مهيب مؤلف من ثلاثة آلايات من الخيالة : (الأول) آلاى ذوى الرماح، وراياتهم المرفرفة من رماحهم خضراء وحمراء، ورؤوسهم مغطاة بخوذات الدراجون؛ و(الثانى) آلاى ذوى الدروع، ودروعهم تسطع عليها الشمس فيتلألأ كل منها كأنه قرصها المنعكس، ويتدلى من خوذاتهم شاش جميل أصفر وأبيض يلعب الهواء به حول وجوههم السمراء الهيجائية؛ و(الثالث) آلاى ذوى الزرد، وسلاحهم كسلاح الغز أيام الصليبيين، وخوذاتهم الصغيرة يتدلى منها قناع على وجوههم من الأمام، وأكتافهم من الوراء، وهم فى كسوتهم الفولاذية جامدون، كأنهم قدّوا من جلمد أو من حديد، قطعة واحدة، كفرسان شاهين شاه وصلاح الدين والظاهر بيبرس. وسارت وراءهم العربات، وأهمها عربات التشريفة يجرها الستة والثمانية من الخيول ذات اللون الواحد؛ أبيض كالنور، أو أشهب كالذهب، أو أسود كالليل؛ ويقودها حوذيون بملابس حمراء تخططها شرائب القصب والفضة، بجوارب حريرية تصعد لغاية ركبهم، وبجدائل شعور مستعارة مرشوشة بالبودرة على رؤوسهم، كأنهـم غلمان أحد اللويسات، الرابع عشر أو الخامس عشر أو السادس عشر، ملوك فرنسا، أعيدوا الى الوجود؛ ويسير بجانبها مشيا على الأقدام خدم باللباس عينه، أيديهم على عضاضات أبوابها؛ وعلى رؤوس الجميع، من حوذيين وخدم، برانيط واسعة من ذوات القرون! وسار وراء العربات : الأغوات،

بلباس فرنجى وبنطلونات ملونة فرايحية ، يمتطون صهوات خيول قلما يدركون كيف يحكمونها ؛ وكانت العين ترى فى وسطهم شيخا جليلا وقورا مهيبا ؛ وتسمع الأذن همسا أنه أمين بك آخر المماليك ، وصاحب الوثبة المشهورة . على أنه إنما كان رئيس ادارة بيت دولة الوالدة .

وعلى هذا النمط بعينه ، وبالأبهة والجلال ذاتيهما ، خرجت عروسا الأميرين حسين وحسن الى قصرى زوجيهما ؛ وأما الأميرة فاطمة هانم فقد كانت زفتها أبهى وأجمل . وقد وصف إدون دى ليون كيفية الاحتفال بفرحها فى داخل القصر العالى عينه ، كما نقلته اليه عقيلته ، فقال :

اجتازت المدعوات بستانا فسيحا منارا ، كأنهم أرادوا أن يبقوا فيه نور النهار ، بملايين المصابيح المتعددة الألوان ؛ وسرن فوق طرقة رخامية تحف بجانبيها الأشجار والمغروسات الغريبة . فبلغن مدخل سراى الوالدة ، حيث كان الأغاوات فى انتظارهن ، يوصلوهن الى قاعة واسعة ذات رياش فاخر . فوجدن هناك جوارى الحريم ، ونصفهن مرتديات لباس رجال من أفخر الملابس الشرقية ، وواقفات بصفة حجاب ؛ وبعضهن لابسات لبسا بسيطا ، بطرابيش حمراء على رؤوسهن ، وشاهرات فى أيديهن سيوفا لامعة ؛ وبعضهن لابسات لبسا عسكريا ساطعا ، وواقفات وقفة عسكرية ، بمظهر عسكرى حربى لا بأس به ، كأنهن وصيفات الملكة زبيدة زوجة أمير المؤمنين هارون الرشيد . فأدخلن الضيفات الى حجرة كانت «العوالم» ترقص فيها بالساجات ! بينما كانت موسيقى نسائية تعزف ألحانا شجية . تلك الحجرة كانت تفتح على حجر أخرى ، يتناول النظر أطرافها ، وفيها جوار عديدات يرقصن رقصا غريبا بعصى وسيوف ودرقات فى أيديهن .

ثم اجتازت الضيفات عدّة بلوكات أو صالات ، قدّمت لهنّ فيهـا جميع أنواع الشربات ، والمشروبات والحلوى المصنوعة على الطريقتين الغربية والشرقية ، معروضة على موائد جمعت كل ما لذ وطاب ، وترأست أميرات الأسرة المـالكة المـائدة الخصيصة بزوجات الخديو وقرينات القناصل ، وغيرهن من قرينات كبار النزالة ؛ فبينما هنّ يأكلن ويشربن ، جعلت الموسيقى تصدح صدحا مفرحا .

ثم قدّمت الضيفات الى دولة (الوالدة) فى قاعة ذات رياش لا نظير له ، وواسعة سعة لا تضيق بمئات الجالسين ؛ فكن يسرن وراء الجوارى المسلحات ، وتقدّم السيدة الفرنجية التشريفاتية كلا منهنّ باسمها الى دولة (الوالدة) ؛ ثم تجلسها فى المحل المعدّ لها على آرائك ممدودة فى طول الحائط ، يغطيها الحرير الثمين .

ولمـا انتظم العقد بجميع المدعوات ، دخلت الراقصات والمغنيات وأطربنهنّ مدّة ؛ ثم قدّمت اليهنّ الهدايا الفاخرة ، من لدن الأميرات وأزواج الباشوات أصحاب المقامات الرفيعـة فى الحكومة المصرية . فتغنين بمديح الهـاديات ، بعد استئذان دولة (الوالدة) ، والهاديات شكرنهنّ — وهى عادة "الشوبش" المعروفة بيننا حتى يومنا هذا .

بعد ذلك استجليت العروس : فأمسك كل من أغاوات السيدات المدعوّات شمعدانا فيه شموع مختلفة الألوان ، واصطفوا من أوّل السلالم حتى القاعة العظمى ، حيث كان عقد المدعوات منتظما . وفرش على الأرض منسوج من ذهب لتخطر العروس عليه . وانصرفت الراقصات ليعدن بمعيتها . وما هى إلا برهة قصيرة حتى تجلت الأميرة فاطمة هانم تستند على ذراع الأميرة أمّها ، فى وسط جمهور أميرات البيت الخديوى الكريم . فتقدّمت بخطوات بطيئة ، و بوقفة بعد كل خطوة ، كأنها تقول

للناظرات : هاأنا فأعجبوا بى ! واجتازت، وعيناها مطرقتان ، صفى الأغاوات على النسيج الحريرى، بين أغانى المغنيات، والراقصات يتقدّمنها .

فلما وقعت أعين المدعوات عليها نهضن . وبينما هى تتقدم كالهة من آلهات الأزمنة الماضية نحوهن، بمعيتها وجواريها ، صعدت كواعب كالبدور على كراسى وراءهن، وأخذت تنثر عليهن خيريات ذهبية ، ضربت لتلك المناسبة ، فتعلق برؤوسهن وملابسهن . فامتلأت القاعة على سعتها بالأميرات والسيدات والجوارى والراقصات والمغنيات، وتألقت كلها بالديباج الساطع والذهب الوهاج، وبثت فى كل مكان منها زهور البرتقال والورود، ونثرت فوق الملابس اللامعة البراقة .

وكانوا قد أقاموا فى صدر تلك القاعة، فوق منصة مرتفعة، ثلاثة عروش مكسوة بالحرير الأبيض . فجلست دولة (الوالدة) على عرش اليمين، والأميرة أم العروس على عرش الشمال، وجلست العروس، وعلى رأسها تاج من الماس ثمنه أربعون ألف جنيه، على عرش الوسط . وكان لباسها من الحرير الأبيض الفرنساوى الأغلى ثمنا، كله مرصع بأنفس أنواع اللؤلؤ والماس ، وله ذيل طوله خمسة عشر مترا، رفعته الجوارى وراءها وهنّ راكعات . فتقدّمت المدعوّات وهنأنها . وبعد أن جلست معهنّ برهة، عادت الى حجرها، واستمر الفرح حتى مطلع الفجر[1] .

لطيفة للأميرة خديجة هانم

ومما يحسن ذكره بمناسبة تزويج الأمير حسن من الأميرة خديجة أن (اسماعيل) — وقد أعجب بملامح الذكاء المرتسمة على محياها — لما أدخلها المدرسة التى أنشأها لأميرات البيت العلوى خصيصا، وعدها بتزويجها من أحد أولاده، اذا هى أظهرت

(١) أنظر : "مصر الخديوى" لادون دى ليون من ص ٣٣٢ الى ٣٣٦

اجتهادا فى تعلمها . ثم مضى على ذلك زمن . وعنّ (لاسماعيل) يوما أن يزور تلك المدرسة، ويتفقد حال الطالبات فيها . فلما وصل الى الأميرة خديجة سألها : « الى أين بلغت من تعلم القرآن، يابنيتى؟ » فأجابت من فورها : الى «واذكر فى الكتاب اسماعيل إنه كان صادق الوعد! » .

فسر الخديو بجوابها جدا، وقال : «أجل، أجل» . ثم برّ لها بوعده .

ومن أفضل مايحسن ذكره بمناسبة أفراح الانجال أن طه باشا الشمسى ناظر الخاصة الخديوية فى ذلك الحين — وهو حمو حضرة صاحب المعالى أحمد طلعت باشا رئيس محكمة الاستئناف الأهليه الآن — كلف عدة محال تجارية بتقديم مناقصات لتوريد كل مايلزم من فرش وبياضات ودنتلات ورياش لجهاز كل من الأميرات العرائس .

فلما قدمت، وقع اختيار طه باشا على مناقصة محل پاسكال الفرنساوى — ويعرفه كل من زار مصر القاهرة حتى سنة ١٨٩٢ — لأنها، على جودة البضاعة المقدمة نماذج منها، كانت على رخص فى الاثمان يرغب فيه .

ولكنه لما عرض ما وقع اختياره عليه على (اسماعيل) سأله الخديو : « ألم يتقدم فى هذه المناقصة محل مصرى وطنى مطلقا؟ » فأجاب طه باشا : «نعم يامولاى، فقد تقدم، ضمن آخرين، محل مذكور . ولكن الاثمان التى عرضها مبالغ فيها ولا توافق، لأنها تزيد خمسة وعشرين فى المائة على الأثمان التى يطلبها محل پاسكال» . فقال اسماعيل : «أرنى مناقصته والنماذج المرفقة بها» . فقدمها طه باشا له . فوجد (اسماعيل) أن الأثمان المكتوبة على تلك النماذج تزيد، حقيقة، خمسة وعشرين فى المائة على ما يطلبه محل پاسكال . ولكنه وجد أن نوع البضاعة واحد عند

الاثنين . فضرب بمناقصة محل پاسكال عرض الحائط ، وقال لطه باشا : « خذ كل ما نحن فى حاجة اليه من محل مدكور، وادفع له خمسة وعشرين فى المـائة فوق ما يطلب ! » فبدا فى عينى طه باشا استغراب، بالرغم من أن فمه نطق بعبارات الامتثال . فقـال اسماعيل له : « ياطه باشا، اذا كانت المحـال التجارية المصرية لاتنتفع ولا تستفيد من أفراح أولادى، فمن أفراح من تريد أن تستفيد وتنتفع؟ »

فاغتنمها محل مدكور، وهى طائرة، وزاد على أثمان كل ما قدّمه ما أمكنته زيادته . فكان ذلك من أسباب الثروة التى أحرزها[1] .

أما القصور والسرايات ، فان ما بناه منهـا (اسماعيل) وحده يفوق كل ما بناه أسلافه العلويون معا، بل كل مابناه أى عاهل من العواهل المصريين على ممر الأيام، اذا استثنينا منهم فراعنة الدولة الجديدة المجيدة، دولة احمس وطوطمس ورمسيس . فهو الذى أقام فى الاسكندرية قصور الرمل الشاهقة ، بجهة سيدى جابر ومصطفى باشا، وهو الذى بنى سرايات عابدين والجزيرة والجيزة والقبة وحلوان الأنيقة الجميلة، علاوة على ما جدد بناءه فى سرايات رأس التين وقصر النيل والقلعة والنزهة وشبرا . وهو الذى بنى للأمراء أولاده وللأميرات بناته القصور الباذخة التى تزدان بهـا العاصمتان، وأقام فى كل بندر من البنادر الصعيدية التى كان له فيها أملاك خاصة ، كبندر المنيا، السرايات الفاخرة، والقصور الباذخة، ولو شئنا وصفها كلها لاضطررنا الى توسيع نطاق تاريخنا هذا توسيعا ربما أدّى الى الملل . يكفينا القول أن مصر، منذ عصر (قبة الهواء) وقصر (خمارويه) وبستانه وهودج (الآمر باحكام الله) ومناظر (الخلفاء الفاطميين) ، ومنذ عصور (مبانى القلعة) وسراياتها على أيدى الأيوبيين

(١) روى لى هذه اللطيفة ثقة، حضر عصر الافراح الخديوية .

والبحريين والبرجيين، لم تعهد أياما كثر فيها فوق أرضها تشييد السرايات والقصور، وتجميلها بالبساتين النادرة المثال، مثل أيام (اسماعيل) .

غير أن الابهة والبذخ لم يظهرا فى المبانى بعشر مقدار ما تجليا فى تنسيقها وتجميلها من الداخل، وفى تأثيثها بالرياش الفاخر . فالرخام وحده الذى استعمل فى تمنيق تلك السرايات وتزيينها كلف عدة ملايين من الفرنكات؛ وبلغت نفقة النقوش والرسوم الداخلية فى سرايات الجيزة والجزيرة وعابدين نيفا ومليونين من الجنيهات؛ واستنفدت البساتين التى أنشئت حولها، وكثرت فيهـا أنواع الأشجار الغريبة الثمينة وأجناس الأزهار والرياحين والورد والجبلايات الصناعية والفساقى والبحيرات بأسماكها المتعددة الأنواع، نيفا وأربعين مليونا من الفرنكات .

وأما الرياش والفرش فحدّث عن البذخ والترف فيهما ولا حرج! فقد بلغت تكاليف الستارة الواحدة نيفا وألف جنيه؛ فمـا بالك بالطنافس النادرة، والأبسطة الثمينة، والأرائك الذهبية، والمرايات البلورية الصافية، ببراويزها الغالية، والزهريات النفيسة، والكراسى العاجية، والمقاعد المطعمة بالصدف والمحلاة باللؤلؤ والمرجان، والطاولات الفضية الخالصة، والنجف الفخم الضخم ذى الخمسمائة والألف فنيار، والذى كان، اذا ما لعب النسيم بين بلوره المتدلى، فصدم بعضـه بعضا، رنّ رنينا لذيذا شبيها برنين تمثال ”ممنون“ فى خرائب طيبة القديمة، عند ما كانت تسطع عليه أشعة الشمس المشرقة! وما بالك بالآنية الفاخرة الكثيرة والمختلفة، الذهبية والفضية، والخزفية البديعة الصنع، والمرقوم عليها كلها بماء الذهب حرف I وهو الحرف الأول من اسم (اسماعيل) بالفرنجية؛ وبالمجوهرات العديمة المثال من ماس ودرر وياقوت، وزمرد وزبرجد، وفيروز، وخلافها ممـا كان يقدر ثمنه بنيف وأربعـة ملايين

من الجنيهات ؛ ما بالك بالتحف والأسلحة المتنوعة قديمها وحديثها ؛ ومنها التاريخية ، التي لا يقدر لها ثمن ؛ والفريدة في نوعها ، التي لا سبيل الى الحصول على مثلها ، ولو بذل فيها مال قارون !

وماذا نقول عن عدد سكان تلك القصور ، وعما كانوا يستنفدونه يوميا من المآكل والمشارب ؟ يكفينا ، في تحويل قوة المخيلة الى تصوره ، ذكر أنهم بعد صيرورة العرش الى (توفيق الأول) عدّوا الذين كان يخرج لهم الغذاء من سراى عابدين وحدها ، فاذا بهم عشرة آلاف ! !

وماذا نقول عن عدد الجوارى من بيض وسود وحبشيات ، اللواتى كان (اسماعيل) يزوّجهن سنويا من ضباطه ورجاله وموظفى حكومته ، فلا يكتفى بامهار الواحدة منهنّ المال الوفير ، بل يقطعها الطين الواسع ، ويرتب لها على خزينته الخصوصية المصروف الشهرى الوافى ، أو المعاش الكافى — على أن كثيرات منهن طلقن بعد سقوطه .

ألا قد صدق حقا من قال : «إن ملك (اسماعيل) — وكل مظهره سلسلة أعياد وأفراح غير منقطعة — انما كان حلما من الأحلام ، حققته الأيام ؛ ورواية فى أسفار التاريخ قد لا تصدّق صحتها الأحلام !»[1] .

---

(١) قال الخديو توفيق الأول ، متكلما عن أبيه ، لامستر بتلر أستاذ ولديه (عباس) و(محمد على) فى تعلم اللغة الانجليزية : «لن يأتى أحد مثله ، على ممرّ الدهور ، فى أبهة الملك ، ونخفخته السنية ؛ فان ذلك لا يمكن !» (أنظر : "حياة البلاط بمصر" لبتلر ، ص ٢٠٣) .

الباب الرابع

المساعدون على نفاذ الخطة

فصل فذ [(١)]

دعانى أخى والخيل بينى وبينه * فلما دعانى لم يجدنى بقعدد

وزراء اسماعيل :

على أن (اسماعيل)، مهما كان متفوقا على الوسط المحيط به، ومهما كانت رغبته فى الاصلاح قوية وثابتة، بين قوم لا رغبة لهم مطلقا فى الاصلاح، فانه ما كان ليقوم بكل الأعمال التى عملها فى بلد، كان يجب أن ينشأ كل شئ فيه، لولا ان الأقدار وضعت بجانبه رجالا خصصوا جميع قوى عقولهم وأجسامهم لمساعدته على نفاذ تلك الأعمال، وما انفكوا واقفين بجانبه، عاملين على نفاذها. أولئك الرجال هم : نوبار باشا، وشريف باشا، وعلى مبارك باشا، ومصطفى رياض باشا.

ومن جهة اخرى، فلولا أن (اسماعيل) بلى بصداقته لاسماعيل صديق باشا، أخيه فى الرضاعة، فانقاد كثيرا الى مشورته السيئة، وتغاضى أكثر أيضا عن تصرفاته

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "نوبار باشا" لهولنسكى، و"نوبار باشا" مجموعة الخطب التى القيت ساعة كشف الستار عن التمثال الذى أقيم له فى الحديقة المدعوة باسمه فى الاسكندرية، و"انجلترا فى مصر" للورد ملنر، و"مصر الحديثة" للورد كرومر، و"شريف باشا" للسيو دى بوف، و"وصف رياض باشا" فى المقتطف، و"تأبين رياض باشا" لأحمد زكى باشا، و"الخطط التوفيقية" لعلى مبارك باشا، و"خديويون وباشاوات" لموبرلى بل.

الرديئة ، لما آل أمره الى الاضمحلال والسقوط ! فيجدر بنا ، والحالة هذه ، أن نأتى هنا على بيان وجيز ، نوضح فيه لقرائنا نبذة من حياة كل من أولئك الرجال ، ليكونوا على بينة منها .

نوبار باشا

فنوبار باشا (١) — وهو الشخصية الأكبر ظهورا فى تاريخ مصر فى ذلك العهد ، ورجل الدولة الأوحد الذى جاد به الشرق ، منذ توارت الأسرة الكپرولية السنية عن عالم الوجود — أرمنى مسيحى ولد بأزمير فى سنة ١٨٢٤ أو سنة ١٨٢٥ ؛ وما كادت ترفع عنه التمائم ، إلا وأرسل الى (سوريز) ليتعلم فى مدرستها . فقضى فيها عدّة سنوات ؛ ثم انتقل لتتميم دروسه فى مدرسة بروتستانتية فى سويسرا الفرنساوية ؛ ولما كان ذا ذاكرة عجيبة وتصوّر سريع ، فانه استطاع ، وهو فى السادسة عشرة من عمره ، أن يفرغ من تلقن دروسه ، والتعمق فى معرفة اللغة الفرنساوية وآدابها ، والادب القديم على العموم ؛ ولكنه لم يتعلم العلوم الطبيعية والرياضيات إلا تعلما سطحيا وما اقتبسه منها فيما بعد ، فانما اقتبسه فى محادثاته مع أساتذتها أكثر منه فى مطالعة الكتب الموضوعة فيها . فانه ، وهو فى الحياة العملية ، كان ، كالبرنس (پوتمكن) وزير كاترينا الثانية الكبيرة ، يوجه الاسئلة الى زائريه فى خير ما يعرفونه ، ويحملهم على التوسع فى الكلام والايضاح والشرح ؛ فتكونت لديه بذلك دائرة معارف لا بأس بها ، جعلته ذا اطلاع عام لا يشعر معه أنه غريب عن المحادثة ، مهما تنوعت مواضيعها .

ولما غادر المدرسة ، وقع فى خلده التطوّع فى الجندية الفرنساوية بأن ينضم الى الفرقة الأجنبية . ولكن مساعيه فى ذلك قوبلت برفض ؛ واستدعاه بوغوص بك خاله ، وزير (محمد على الأمين) ، الى مصر ليدخله فى خدمة مصالحها المدنية . فقدم

(١) أخذنا معظم ما كتبناه عن نوبار عن الكتاب المعنون "نوبار باشا أمام التاريخ" لاسكندر هولنسكى .

الشـاب نوبار الى ضفاف النيـل والآمال ترقص أمام مخيلته رقصا بهيا . فأحبـه بوغوص بك حالمـا وتعت عينه عليه ، وقال له : «سأدخلك فى قلم المترجمين ، ولكنى أنصحك أن تنتبه قبل كل شئ الى تعلم اللغة التركية ،لأن تعلمها شرط لا بد منه لنجاحك فى المستقبل» . فأكب نوبار على تعلمها بكل قواه ، وما مضت عليه مدّة إلا وأصبح يمتلكها ، فهما وكتابة وينطق بها — والنطق الصحيح أصعب شئ فى كل لغة — كأنه تركى صميم . وليت خاله نصحه أيضا بتعلم العربية ! ولكن الأيام لم تكن لتسمح بقيام فكرة ناضجة كهذه فى عقلية الشيخ بوغوص . (فمحمد على) ، بالرغم من كل ماعمله لإحياء مصر والرقى بها ، بقى كما سبق لنا القول فى غير هذا الموضع تركيا بحتا . فلم يتنازل مطلقا للتكلم بالعربيـة ، ولو أن اقامته الطويلة فى البلاد علمته شيئا منها ؛ ولا عمل على إزالة الاشمئزاز الذى كان العنصر التركى يشعر به من لغة « الفلاحين » واحتقاره إياها ؛ ولا اهتم البتة بتعليم أولاده العربية تعليما جدّيا أو غير جدّى .

فلم يكن يمكن أن يقع فى خلد أحد ، والحالة هذه ، فى سنة ١٨٤١ أن سيأتى يوم ، ينقم فيه (سعيد باشا) ، ثالث خلفاء الباشا العظيم ، على الأتراك والتركية والشراكسة الى حدّ يقول معه : «انى أودّ أن أعرف ماهى العروق والشرايين التركية والشركسية فىّ لأفتحها ، فأتخلص من آخر نقطة من هذا الدم الممقوت ! » ويقبل ، نكاية فى التركية والأتراك ، على عزل التركية عن العرش الذى كانت قد استولت عليه منذ زوال الدولة الأيوبية ، ويجعل اللغة العربية لغة البلاد الرسمية ؛ فيحيي مواتها ، ويعيد اليها بهجتها .

لذلك لم يتعلمها نوبار ؛ وبقى طول عمره يجهلها ولا يعرف منها إلا قليلا من لغة «العوام» ، ولا شك فى أن ذلك ، اذا أضفنا اليه غربته عن الدين الاسلامى ، كان

سببا فى عدم امتزاج روحه بروح الأمة المصرية، على شدّة حبه لها، وللعناصر البائسة منها على الأخص؛ وبقاء هذه الأمة غريبة عنه، بالرغم من أنه ربما كان أحسن خدامها؛ وأنه كان بلا شك أقوى الناس على السير بسفينتها الى مرافئ السلام، لا سيما أثناء الأعاصير التى هبت عليها فى أوائل ملك (محمد توفيق الأوّل). فانه كان، أكثر من كل قائل، يقول بوجوب صيرورة مصر للمصريين؛ ولكن على شرط ألا يعنى ذلك اتخاذ الدين حجة للعمل على عكس مايقتضيه العلم والعمران، وسلاحا فى يد الجهل والتعصب !

وامتاز نوبار، وهو فى زمرة المترجمين، بمواظبته على عمله، وسلوكه الأمثل وانكبابه على الدرس والتعلم، وبأنه شاب لا تستهويه الملاذ النسائية والأباطيل.

فعينه (محمد على) سكرتيرا خاصا لابنه (ابراهيم). فما انفك نوبار ملازما له فى حله وترحاله، أينما أقام وحيثما سافر. وبالرغم من أن الوظيفة لم تكن هينة، وأن الأخطار المحيقة بها كانت جمة — لأن (ابراهيم) كان ذا طباع حادّة جدا، وله فرقعات غضب مرعبة — فان نوبار بما أوتيه من طلاقة اللسان وحلاوته، وسعة الاطلاع وتنوّعه، تمكن من التقرّب الى قلب مولاه، تقرّبا أصبح (ابراهيم) معه لا يرى فى ساعات ضجره وإبان ثورة غضبه، من تسلية أو تسرية، إلا فى محادثة الشاب نوبار له؛ ولطالما تمكن الحدث الأرمنى من إسداء خدمات جلى الى الغير بسبب ميل مولاه اليه؛ أهمها انقاذه أعمار ضباط الباخرة التى عاد (ابراهيم) عليها من الأستانة الى مصر فى سنة ١٨٤٨، اذ هاج بطء سيرها، المسبب عن اشتداد الأنواء حولها، غضب الأمير المصرى، فطفق يهدّد ضباطها بتغريقهم جميعا، لولا أن نوبار لازمه ملازمة كلية، وأنساه بحلاوة حديثه الضيق المحيق بنفسه.[1]

(١) أنظر: "مصر الحديثة" للورد كرومر، ج ١ ص ١٩

وتعرّف نوبار، وهو فى الأستانة مع الأمير (ابراهيم)، بأسرة أراميان السرية ؛ وما لبث أن تزوج وهو فى الرابعة والعشرين من عمره بابنة عميدها، كيفورك بك، أحد وجوه الأستانة وذواتها ؛ فأصبح صهرا لابرام أراميان، المعدّة له رتبة الباشوية الرفيعة، والمزمع أن يكون أقرب الناس من قلب السلطان عبد العزيز وموضع ثقته الكلية ؛ وساعدته هذه المصاهرة فيما بعد على قضاء أكثر من لبانة فى مساعيه المصرية لدى الحكومة العثمانيـــة .

وكان قرانه موفقا ؛ لأنه وجد فى زوجته المتعلمة مثله، والمتكلمة عدّة لغات مثله، رفيقة حياة بأجمل معانى هذه الكلمة ؛ وما فتئت قائمة بجانبه، مسلية، معزية، مفكرة إياه بما يقتضيه الفضل والنبل كلما أثارت فيه المصاعب أو الدسائس أو الوشايات انفعالات التضجر أو الغضب، ورغبته فى التخلى عن الاشتغال بالمصالح العامّة .

ولمـا انتقل الملك الى (عباس الأوّل)، اتخذه هـذا العاهل سكرتيرا له كذلك . فحاز نوبار لديه القبول عينه الذى كان من نصيبه بجانب (ابراهيم) . ومما ساعده على الفوز برضى ذلك الوالى، الكثير الوساوس والظنون، مصادقة المستر مرّى قنصل انجلترا العام له — وقد كان من اخصاء (عباس) ومستشاره فى مشاكله وأكبر أنصاره فى مساعيــه التى رمى بها الى تغيير مجـارى الوراثة على العرش المصرى وحصرها فى (الهامى باشا) ابنه وفى ذرّيته من بعده — وقد ساعد نوبار تلك المساعى بما كان له من العلاقات بالأستانة العلية .

ولكن طباعه التى كان فيها من حب الصراحة والأنفة والتعالى أكثر مما يصح أن يكون من هـذا جميعه فى أخلاق ندماء الملوك مالبثت، بالرغم من كل حلاوة شمائله وسحر محادثته، ان جلبت عليه سخط (عباس) . وذلك انه رأى ذات يوم مانعا من

ضميره عن أداء عمل طالبه ذلك الوالى بأدائه ؛ فأظهر (عباس) له استياءه بشكل لا يقبل التأويل . فأسرع نوبار وقدّم له استقالته من وظيفته؛ ولزم فى الحال منزله .

ولم يكن قد سمع فى الشرق لغاية ذلك الحين أن موظفا وقع فى خلده الاستعفاء من منصبه؛ فاما انه كان يقال منه بأمر، أو يقتل وهو فيه . فعدّ الرأى العام استقالة نوبار، والحالة هذه، ضربا من ضروب الجسارة المتناهية، وتحدّيا لسخط (عباس) .

وخشى نوبار نفسه أن يعده (عباس) كذلك ، فيبطش به . فبعث يستأذنه بالنزوح عن القطر . فأذن له وهو متململ ؛ لأنه استاء فى الواقع منه جدّا بسبب تجاسره على تقديم استقالته ، كما كان المظنون؛ ولكنه تكدر منه على مغادرته خدمته ، لأن (عباسا) كان يرى نفسه فى حاجة اليها ؛ ويودّ لو عاد نوبار اليه مستسمحا مستغفرا، وكان ينتظر ذلك منه ، ولو أنه يتعالى عن إظهار رغبته هذه له .

فحالما وصل نوبار التصريح بالسفر، هب وباع الزائد من أمتعته ورياش منزله ، واستأجر مركبا واسعة وشحنها بالنفيس الذى احتفظ به من تلك الامتعة والرياش ، ونزل فيها مع قرينته وآله ، وسافر فى النيل قاصدا الاسكندرية .

ولكنه ما كاد يبتعد عن شبرا بضعة أميال إلا وقابل مركبه رفاص بخارى فيه (عباس) عينه . فحياه نوبار من فوق ظهر مركبه تحية رعية مخلصة، واستمر فى سيره؛ واذا بقارب بخارى قد انفصل عن الرفاص ودنا من المركب، ودعا نوبار الى المثول بحضرة الأمير .

فاعتقد من فى المركب وقرينة نوبار ونوبار نفسه أن ساعته الأخيرة دقت، وأن (عباسا) ملق به فى قاع اليم طعاما للأسماك . غير أنه تجلد وذهب رابط الجأش باسم الوجه ، وصعد الى الرفاص وقصد توا الى (عباس) وحياه بكل احترام .

فسرّ (عباس) لشجاعته الأدبية وانشرح صدره له ؛ فابتسم فى وجهه وقال : «انك اذًا قد صممت نهائيا على ترك خدمتنا !» فأجاب نوبار : «إنى خادم الأمير ما حييت ما دام للأمير رغبة فى خدمتى له !» .

فسرى عن (عباس) بالمرة وقال : «إنى يا نوبار افندى لا أستغنى عن خدمتك ؛ وبما أنى فى حاجة الى ثقة أرسله الى ڤيينا فى مهمة تخصنى فاستمر على سفرك ، واذهب الى ڤيينا رأسا وانتظر هناك أوامرى !» .

فشكر نوبار وعاد الى مركبه وصدع بما أمر به عن طيب خاطر . فأقام فى ڤيينا مدّة اكتسب فيها عطف البرنس دى مترنيخ الذى كان فى ذلك العهد عميد السياسة الأوروبية .

وبينما هو فى انتظار الأوامر التى وعده بها (عباس) اذ وافاه نبأ قتله ؛ وأتاه استدعاء من خلفه بالعودة الى مصر . فعاد اليها ليشغل لدى الأمير الجديد منصب كاتم أسراره . فما لبث (سعيد) أن أنعم عليه بلقب "بك" وجعله مدير مصلحة السكك الحديدية .

فوقعت كارثة كفر الزيات ونوبار فى هذا المنصب ؛ فذهب فريق من الألسنة النمامة فى تلك الأيام الى أن تلك النكبة إنما دبرت باتفاق بين ولى العهد الجديد ومدير السكة الحديد لازالة الأمير أحمد باشا من سبيل العرش الرامية اليه مطامع (اسماعيل) . وذهب فريق آخر الى أن الذى دبر تلك المكيدة بالاتفاق مع نوبار انما هو (سعيد باشا) نفسه لرغبته فى التخلص من أحمد باشا ابن أخيه ومن حليم باشا أخيه .

ولسنا نرى أنفسنا فى حاجة الى تكذيب الاشاعتين معا بعد أن كذبهما التاريخ على لسان أشهر الثقات من الرواة ، فعلاوة على أن (سعيدا) و (اسماعيل) لم يكونا بالرجلين

اللذين يقع فى خلدهما ارتكاب مثل هذه الفظيعة — وقد قال (سعيد) بحزن، لما علم بالنميمة، لادون دى ليون قنصل أمريكا : «هل عبدك كلب لاقتراف مثل هذا الجرم؟»[1] مردّدا فى ذلك صدى قول وارد فى التوراة — فان نوبار كان آخر انسان يطاوعه ضميره على المساعدة فى اقترافها. ناهيك بأنه لم يكن كثير الاختلاط (باسماعيل)، ولا من ذوى القبول عند (سعيد)، ولو أنه كان مسيطرا بتفوقه العقلى على هذا الأمير؛ ولم يكن يجهل حقيقة شعور (سعيد) نحوه . فانه قد اتفق له يوما وهو ذاهب الى السبراى أن خيل عربته جمحت ، فألقت بالحوذى على الأرض وقلبت العربة، وما نجا نوبار إلا بمشقة ؛ فقال له أحد رجال البلاط حينما انتشر فيه خبر الحادثة : «ما ألطف نعمة الله بنا جميعا بأن حفظك سالما سليما !» فأجابه نوبار على الفور : «لا تقل بنا جميعا ! فانى أعرف واحدا هنا كان يفضل أن يرانى مكان حوذيّى، فيما لو كان مقدّرا له أن يموت من جراحه !»[2] .

وفى الواقع فان نوبار بطباعه الجدّية وأخلاقه المتطلبة العمل لم يكن ليعجب أميرا مغرما باللهو وخلو البال والتنكيت (كسعيد)؛ ومع أنه لم يكن ليتعب فى إيجاد الكلمة اللطيفة التى تضحك ، والتعبير الدقيق الذى يطرب ، فانه ما كان مثل كوشيلسكى (سيفر باشا) ميالا للتنكيت والمجون فى كل لحظة ؛ ولا راغبا فى تفتيق ذهنه لهزار وفصول ورواية حكايات ملحة توقظ روح الوالى الى الجذل والسرور كلما ساورته السآمة وصارعه الضجر . فبينما (سيفر باشا) أصاب من مقدرته على النكات والأقوال المجونية ثروة طائلة، لم ينل نوبار غير المحافظة على مركزه وشئ من نفوذه .

(١) أنظر : "مصر الخديوى" لادون دى ليون ص ١٥٦

(٢) أنظر : "نوبار باشا" لهولنسكى ص ٣١

وفى سنة ١٨٦٢ أرسله (سعيد) الى أوروبا لعقد القرض الوحيد الذى أقدم على اقتراضه فى حياته ، ويقرب قدره من ثلاثة ملايين من الجنيهات . ففضـل نوبار عقـده بواسطة مصرف تجارى فرنساوى على عقده بواسطة مصرف انجليزى لمـا فى ذلك من المصلحة لمصر، ولكن حساده أشاعوا عنـه .أنه إنمـا أقبل على ذلك التفضيل لأن ما قدّمه له البيت المـالى الفرنساوى من جعل لوساطته فاق ما قدّمه المحل المـالى الانجليزى . ولو أن مندوب (سعيد) فضـل المصرف الانجليزى على الفرنساوى لعكس عذاله الآية .

ولم يمض على عقد ذلك القرض قليل حتى توارى (سـعيد) عن عالم الوجود ، وخلفه (اسماعيل) . فتمسك بنوبار فى بادئ أمره أيما تمسك . وقد رأينا أنه أوفده لحل المعضلات من مهماته ، وأن نوبار تمكن من قضائها كلها . فاتخذ أعداؤه ذلك ذريعة للطعن عليه طعنا مرا . وأهمّ ما سلقه لأجله الفرنساويون منهم بألسنة حداد موقفه فى مسألة ترعة السويس ، ومقاومته مشروع انشائها . وفات ثالبيه أن الوزير المصرى انمـا كان يجب عليه أن ينظر الى ذلك العمل من وجهة ما فيـه من خير عائد الى مصر، لا من وجهة ما فيه لمصالح الغربيين من الفائدة . وان فكرة إنشـاء الترعة انما جادت بها فى النصف الأول من القرن التاسع عشر قريحة الأب انفنتين، المعلوم عنها ميلها الى إبراز أحلام الى الوجود يصعب تحقيقها ؛ وان الرأى القائل بعدم امكان تحقيق تلك الفكرة لم يكن رأى اللورد بلمرستن ، والمهندس الانجليزى ستيفنس وحدهما، بل كان يشاركهما فيه الكثيرون من أرباب الخبرة والفن — ومنهم المسيو دى منتو المهندس الفرنساوى الذى باشر البدء فى الأعمال ، وكان فى سـنة ١٨٦٠ ذاتها يقول : «كل هذا لن يؤدّي الى نتيجة ،لأنه يستحيل حفظ منسوب المياه الكافى

فى الترعة لتتمكن المراكب من السير فيها ، فلسوف تضيع على المساهمين رؤوس أموالهم . ويضطر المسيو دى لسبس فى قهره وخجله من خيبته فى مشروعه الى الانتحار! » وأن هـذا المهندس لم يطاوعه ضميره على البقاء فى تأدية عمل كان يعتقد خيبته ، فقدّم استقالته منه بالرغم من أنه كان مثابا عليه بأجر جزيل ؛ وأن المسيو دى لسبس نفسه كان يقول : « لو كنت مهندسا لما تجاسرت مطلقا على مباشرة حفر الترعة ؛ ولو باشرت ذلك لوقفت فى الطريق أمام صعوبات الأوّل » ؛ وان (اسماعيل) ، القائل : «لولا رغبتى فى المحافظة على شرف امضاء سلفى لألغيت الامتياز الممنوح منه للمسيو دى لسبس ولباشرت حفر الترعة بنفسى ؛ فما كان ذلك ليكلف مصر أكثر مما كلفها ، ولعادت فوائد الترعة عليها وحدها » ، كان يهمه أن يتخلى المسيو دى لسبس عن العمل لتتولاه الحكومة المصرية ؛ فكان من أوجب واجبات وزير مصرى أن يساعده على تحقيق أمنيته .

على أن أعضل المعضلات التى كلف (اسماعيل) وزيره الكبير بحلها انما كانت ، كما رأينا ، معضلة وضع حدّ معقول لتجاوزات الامتيازات الأجنبية باجراء اصلاح قضائى يضمن توزيع العدالة بين الأهالى والأجانب على السواء . فبذل نوبار ، على ما سبق لنا شرحه ، جهودا عظيمة مدّة ثمان سنوات متوالية للبلوغ الى تحقيق تلك الأمنية دون أن تثبط همته العراقيل المتتابعة بلا انقطاع والمتجدّدة فى كل حين ؛ دون أن يعتريه ملل من اضطراره مائة مرة بدل المرة الواحدة الى دحض الاعتراضات البيزنطية التى ما فتئ الرجال المعاكسون لمشروعه يهاجمونه بها مهاجمة تدعوه الى تفتيق ذهنه بحجج و براهين جديدة يكون وقعها على تلك الاعتراضات أقضى من سابقاتها ، حتى تمكن بثباته المدهش من التغلب على نفور الباب العالى ، وعلى سوء إرادة

المتمسكين بدرع تلك الامتيازات الجائرة من رجال الحكومات الأجنبية ، وعلى الدسائس القائمة حوله فى السراى الخديوية ذاتها ، بفعل الرجعيين الذين لم يكونوا يرون فى مجهودات نوبار باشا السياسية والاجتماعية على العموم ، وفى الاصـلاح القضائى الجديد المرغوب فيه على الأخص شططا عن الدين والعادات فحسب ؛ بل بدعة منقوما عليها ومؤدّية الى ضياع البلاد ؛ والدين ، لولا أن العاهل كان (اسماعيل) المتنوّر الشغف بكل رقى ، والمقتنع بوجوب إجراء الاصلاح ، اقتناع وزيره الأكبر ، لخسفوا الأرض تحت قدميه ، وقضوا على كل آماله وجهوده . فلا (كانن) فى جهاده الطيب لتحرير كاثوليك إرلندا من النير الذى ألقاه على عواهنهم الفتح البروتستانتى ؛ ولا (كوبدن) فى سـعيه المبرور لحمل البرلمـان الانجليزى على إلغاء القوانين الخاصة بالغلال لأجل تخفيض أثمـان الخبز فى المملكة المتحدة ؛ ولا (بسمرك) فى عمله على إدراك الوحدة الألمـانية وتأسيس الامبراطورية الجرمانية على انقاض الدانمرك والنمسا وفرنسا الملطخة بدم الألوف ، أظهروا من الهمة والثبات أكثر مما أبدى نوبار منهما فى القيام بحل معضلة إبدال النظام القضائى الامتيازى المضطرب المشوّش الأركان فى مصر بقضاء غيره يتمشى أكثر منه بكثير مع روح الحضارة والعمران العصريين . وانا اذا التفتنا الى أن الرأى العام فى بلاد (كانن) و(كوبدن) و(بسمرك) كان يعضد هؤلاء الرجال فى مساعيهم ، ويشدّ أزرهم ، ويقويهم ، ويحضهم على الثبات والعمل ؛ وان نوبار الشرقى لم يكن يعضده فى جهاده سوى (اسماعيل) وزمرة قليلة من ذوى الحصافة والنظر الصحيح ؛ وان الرأى العام كان ضدّه بمصر وفى الخارج على السواء ، يسفه أحلامه ، ويحط من كرامته ويصغر من قدره ، ما تأخرنا عن الحكم بأن فضل

نوبار يفوق فضل أولئك الرجال بقـدر ما يفوق عمله فى صعوبته وخشونته وفائدته الأدبية — بالرغم من صغر مقياسه — عملهم المشهور !

وقد وصف هو نفسه فى بضع صفحات نشرها فى باريس سـنة ١٨٨١ ما نجم عن عمله هذا من فوائد، فقال: «ان المحاكم المختلطة، ولو أن بلاطى الأستانة ومصر حالا دون أن يتناول اختصاصها كل المنازعات القضائية على العموم، سواء أكانت قائمة بين الأهالى والأجانب، أم بين الأهالى والأهالى، أم بين الأجانب والأجانب، عملت عملا عاد على مصر بالخير والاحسان . فانها هذبت أخلاق الجاليات الأجنبية تهذيبا أدبيا ؛ والدليل على ذلك أن الحكومة المهاجمة فيما مضى بدعاوى كانت تؤدّى دائما الى مطالبات من قبل رجال الهيئات الرسمية ، تنتهى بتغريم الحكومة الملايين المقنطرة من الفرنكات ، لم تعد تطالب بشئ من ذلك، ولم تعد عرضة لأية مهاجمة فى هذا الصدد من لدن الهيئات الرسمية .

وكانت الأشغال العامة قبل تأسيس هذه المحاكم، وكل الأشغال الأخرى الخاصة بالحكومة تعمل بواسطة السخرة ؛ ولم يكن فى الاستطاعة الاستعاضة عن طريقة الشغل هذه، المخربة للبلاد والمفقدة سكانها كرامتهم ، إلا بالآلات والعلوم الأدبية؛ ولكن قلة الضمانات وانعدام الطمأنينة فى صـدر الحكومة من جهة الأجانب كانا يحولان دون اقدام الحكومة على اسـتدعاء رؤوس الأموال الأوروبية والمهندسين الغربيين . فأما وقد أوجدت المحاكم تلك الضمانات والطمأنينة فان السخرة أخذت تزول شيئا فشيئا أمام علم أوروبا الميكانيكى ورؤوس أموالها .

وبالايجاز فان تلك المحاكم فتحت لمصر عهدا جديدا وأدخلت الى عقلية الشرق فكرا لم يألفه فى السابق ، ألا وهو امكان قيام قضاء مستقل ، يطبق قانونا تسـنه

الحكومة وتكون هى عينها أول الخاضعين له ؛ وأدّت الى تكوين أول حكومة منظمة رآها الشرق ، لأنها علمته أن الحكم لا يكون طبقا لهوى الحاكم وعلى كيفه ؛ وان الحكومة ليس لها حقوق فحسب، بل عليها بجانب حقوقها واجبات أيضا لا بد لها من القيام بها . ويمكن للانسان من الوجهة الأدبية أن يقول بكل جسارة : إن تنظيم القضاء المختلط قد أدّى الى ثورة حقيقية فى العقول ، لأن الأهالى رأوا لأول مرة فى حياتهم هيئة منظمة ، لديها من القوة مايكفى لمقاومة أعمال الحكام الاستبدادية ورأوها تقاومها فى الواقع ؛ ثم رأوا الأمير عينه ، على ما لديه من حول وطول ، مرغما على احترام قراراتها وملزما باعادة الأملاك التى حكمت عليه تلك الهيئة باعادتها ؛ كما أنهم رأوا الحكومة مجبرة على تنفيذ تلك الأحكام ضد نفسها ودفع المحكوم به عليها لحامليها . وهناك منظر آخر تمثل أيضا أمام أعين الأهالى ، ولو أن وقعه على نفوسهم كان أخف من السابق . فالفرنج المنتشرون فى الريف قبل تأسيس المحاكم المختلطة ورجال القنصليات من جريك وغيرهم ، كانوا يرهقون المصريين عادة ، ويستغلونهم استغلالا فاحشا ، دون أن يجد المصريون من العدالة سوى أبواب موصدة . فذلك الارهاق وهذا الاستغلال بطلا تماما منذ تشكيل المحاكم المذكورة ؛ ليس هذا فقط ، بل إن عددا غفيرا من الأهالى تحصلوا ضدّ أولئك الفرنج الأقوياء وتجارهم العتاة وضدّ رجال القنصليات عينهم على أحكام قاضية بتعويضات جمة ! وقد أدّى ذلك طبعا بالأهالى الى التفكر بأنه مذ أصبحت الشرائع والمحاكم تحميهم من الذين كانوا يستغلونهم فى الماضى ، فليس هناك ما يمنعها من حمايتهم من الحكومة أيضا ، وعلى الأخص من تصرفات موظفيها الجائرة .

وهذه الفكرة أنجبت فيما بعد المحاكم الأهلية . وكانت هي أيضا مختلطة فى بدء نشأتها؛ والمحاكم الأهلية، بتطبيقها تشريعا مدنيا بحتا، غير التشريع السابق، فتحت لأول مرة فى تاريخ مصر أمام أعين المصريين أبواب مضمار المدنيـة العصرية واسعة، بل وخولتها قوة الدخول فيـه، والتماس كل اصلاح توجبه الظروف والأيام» (١).

غير أن النزاع الذى قام فيما بعد بين (اسماعيل) والقضاء المختلط — وسيأتى بيانه فى حينه — أوجب فتور رضى الخديو عن وزيره، ذى النزعة الفرنجيـة البحتة؛ واغتنم أعداء نوبار فرصة تغير خاطر (اسماعيل) عليـه، واجتهدوا فى افهامه أن وزيره خان أمانته، وأدخل فى نصوص القوانين الجديدة ما اتخذ منه القضاء الجديد سلاحه فى الحملة الشعواء المشنونة عليه . فاضطر نوبار الى مغادرة القطر المصرى، والاقامة تارة فى فرنسا وطورا فى سويسرا؛ ولكنه بعد أن وضعت الحرب بين الترك والروس أوزارها عاد الى مصر وامتزج تاريخ حياته بتاريخ حياتهـا فى سنتى حكم (اسماعيل) الأخيرتين؛ ثم غادر القطر بعد سقوط (اسماعيل)، ولم يعد اليه إلا عقب إخماد الثورة العرابية؛ ولو كان حضرها لسارت فى غير المجارى التى سيرتها فيها روح عبد الله نديم، المؤثرة على تربية عرابى وزملائه المدنية السطحية .

فعهد اليه (محمد توفيق) برياسة الوزارة فى ٨ يناير سنة ١٨٨٤ فبقى فيها الى يوليه سنة ١٨٨٨؛ ثم توارى مدّة عن مسرح السياسة، وانزوى فى عالم تذكاراته المـاضية. ولكن (عباس الثانى) استدعاه الى رياسة الوزارة فى سنة ١٨٩٤؛ فمكث فى منصبه

(١) أنظر: بعض اعتبارات فى نظام القطر المصرى لنوبار باشا فى كتاب "نوبار باشا" لهولنسكى من ص ٦٢ الى ٦٥.

سنة وبضعة أشهر، ثم استقال بسبب اعتلال صحته، وتنحى عن السياسة بالكلية الى أن توفاه الله فى سنة ١٨٩٩

وكان نوبار ربع القامة، يميل الى الطول، قوى البنية، أسمر اللون، أسود العينين، كما أن شعر رأسه كان أسود أيضا سوادا حالكا، قبل أن يشتعل شيبا، وكانت تقاطيع وجهه منتظمة، متناسبة متناسقة، ينيرها ابتسام جذاب، يكسب صاحبه القلوب أنى شاء . وكان كلاميا، منطقيا ماهرا؛ اذا تحـدّث أروى وأشبع؛ واذا ناقش أفحم وأقنع . وامتاز كلامه فى كلتا الحالتين برشاقة التعبير وغزارة المادّة يتخللهما شئ من التهكم القاطع، أو الجزل المتدفق من ينبوع حى، طبقا لما يقتضيه الموقف . مثـال ذلك أن الحكومة الامبراطورية الفرنساوية، عقب انفضاض الخلاف على ترعة السويس مع شركتها، منحت نوبار وسام جوقة الشرف من الرتبة الأولى؛ فأراد الدوق دى مرنى — وكان قصير القامة — أن يقلده إياه بيده . فاضطر نوبار، لكى يمكنه من ذلك الى إحناء قامته كثيرا حتى كاد يركع ! ولكنه فعل ذلك بابتسام قائلا : «ليس الثمن غاليا !» وهو يشير الى النيف والمـائة مليون من الفرنكات التى دفعتها الحكومة المصرية لتتخلص من تلك الورطة المدنية التى ألقاها بها تسرع (سعيد) .

والمدهش فى محادثته أنه كان ينتقل من الوقور الى العذب، ومن المجون الى الجد، بسهولة غريبـة؛ ويزين حديثه بالمجازات الجميلة، والأمثلة المناسـبة، والقصص الموافقة، بدون تكلف وبارتجال غريب، كأنّ موردها بجانبه، وما عليه إلا أن يدلى دلو قريحته فيه ليخرج بها منه . مثال ذلك الحكاية الآتية التى أوردها فى حديث له عن الحال السياسية بمصر، وتنازع حكومتها ودائنيها على أموال فلاحيها : «عصفور

كان حاطا على شجرة، واذا بباز انقض عليه واختطفه؛ و بينما هو صاعد به اذا بنسر رآه، وأراد اغتصاب فريسته منه . فدار بين الطيرين الكاسرين قتال هائل ؛ فوقف الجمهور يتفرّج عليه ويتساءل أى الجارحين عساه يفوز على الآخر ولم يفتكر أحد فى العصفور ولا حزن على تعاسة حظه» ! وأيضا : «مصر كعظمة ثمينة كبيرة . يرغب فيها كلبان (فرنسا وانجلترا)؛ فيتنازعان عليها ، ولا يجرؤ أحدهما على اختطافها ، لخوفه من الآخر . ولكن بينما هما يحملقان الواحد للآخر و يزمجران يتسرب سرب من النمل (الجريك — واليهود والشرقيون على العموم) الى العظمة وينهشها ويسمن منها » !

وكان ذا شمائل خلابة، وشيم ساحرة ، لا يحقد ولا يميل الى الانتقام ؛ و يقابل ذات شانئيه مقابلة تشف عن صفاء نية وحسن طوية ؛ فيحوّل بذلك مجارى العواطف فى صدورهم . فيخرجون من عنده وهم الى أن يكونوا أصدقاء له أقرب منهم الى البقاء على عداوته .

ومع أنه تعلم منذ حداثة سنه صنعة إخفاء عواطفه وأفكاره — لشدّة احتياجه اليها فى المراكز التى شغلها، على غربته فى الجنس والدين ، لدى العواهل المتعاقبين على مصر، من ذرية الباشا العظيم — فانه لم يكن من ذوى الخنوع ، أو ممن يتلمسون الحظوة عند الملوك من إذلال أنفسهم بين أيديهم ، أو من تحقيرها فى خدمات يأباها الشرف ؛ بل ما فتئ متعاليا فى شعوره ، تعاليا يظهر أثره فى مشيته واستقامة جسمه . وقد لوحظ عليه أنه فى مكاتباته الرسمية كان اذا ذكر الخديو دعاه "مليكى صاحب الجلال" متحاشيا دائما تسميته "مولاى أو سيدى الخديو صاحب الجلال" كما كان يدعوه باقى وزرائه . لذلك لا يسع الانسان إلا التعجب من كيف أمكن لمن

كانت هذه شيمه أن يستمرّ فى خدمة الملوك، ولا يسعه، من جهة أخرى، إلا تعظيم قدر العواهل الذين خدمهم نوبار من الأسرة العلوية، و إجلال عقليتهم، والاعجاب على الأخص بسعة صـدورهم؛ فلو كانوا من التعجرف، على ما ينسبه اليهم بعض الكتّاب لما استطاع الأرمنى، الأبىّ النفس، البقـاء فى خدمتهـم يوما واحدا، لا الاستمرار عليها دهرا .

غير أنه على إباء نفسه هذا، لم يكن من ذوى الخيلاء، ومحبى مظاهر الكبرياء، والفخفخة الكاذبة . فلم يجر سائسا أبدا أمام عربته؛ وكثيرا ما كان يذهب الى الديوان بعربة أجرة؛ ولم يوجد مطلقا بينه وبين زائريه حاجبا أو حجابا؛ ولا اضطر قاصدا الى الانتظار طويلا فى « منادره » . بل كان سهل المقابلة، الى حدّ، كثيرا ما جعل قليلى الذوق يتهجمون عليه فى أوقات غير مناسبة .

وقد كانت حياة نوبار الشخصية والمنزلية مثالا للكمال والصلاح والبر الى آخر يوم من أيامه . فمع أنه نادم (ابراهيم) الغضوب، و(عباسا) تيبريوس مصر، و(سعيدا) كومدّها وهنريها الثامن والثالث معا، (واسماعيل) لويسها الرابع عشر — لم يرو عنه أنه خرج مرة واحدة، عن طور الجدّ والكمال، أو بدت منه نقيصة حطت من قدره الأدبى فى أعين أولئك القياصرة المصريين . لذلك كانوا يحترمون أنفسهم أمامه . ويأبون أن يشهدوه مظهرا غير كامل من مظاهر حياتهم الفردية . فيصح القول، والحالة هذه، انه كان لحياة وزير (اسماعيل) هذا الفردية تأثير على تطوّر الأخلاق نحو الشعور بما يجب أن يراعى فيه اللائق .

وكان نوبار مغرما بالمطالعة لا سيما بمطالعة كتب التاريخ، ويحسن التكلم والكتابة باحدى عشرة لغة مختلفة . وقد ساعده ذلك مع تفتق ذهنه وسعة حيلته وقوّة تقديره

للأشخاص والأمور على احراز مركز رفيع فى اعتبار العالم السياسى الغربى ، حتى أن رجاله فكروا مرتين فى عهد منصب إمارة مستقلة اليه ، إمارة الروملى مرة ، و إمارة أرمينيا مرة أخرى ؛ ومع ميل نو بار الى القبول لا سيما إمارة أرمينيا وطنه الأصلى كان يشعر بألم نفسانى حقيقى كلما تصوّر أن ذلك قد يحول بينه وبين العود الى السكنى بمصر . فهل كان هذا الشعور تصديقا لقول القائل : «ان من شرب ماء النيل لا ينسى حلاوته» ؟ أم إقرارا من نو بار بأن مصر أصبحت دون سواها وطنه الحقيقى المحبوب؟

مهما يكن من الأمر ، وسواء أأخذنا من القول ذاته أن مصر ، لما جبل أهلها عليه من دعة ودماثة فى أخلاقهم ، وحب غريب للغريب ، وما يوجد فى مناخها وثروتها وجمال سمائها من مرغبات للأجنبى عنها فى الاقامة فيها دوما ، تصبح وطنه المفضل على سواه ، أم لم نأخذ منه إلا معناه الحرفى ، فان نو بار أبى إلا أن يموت ويدفن على ضفاف النيل .

وقد أقامت له بلدية الاسكندرية تمثالا فى إحدى حدائقها اعترافا منها بما كان له من فضل فى اقامة دعائم العدل وأسسه فى البلاد ، وإقرارا بأن العدل أساس الملك حقا وقاعدته فى كل رقى وتقدم ، كما أنه روح كل مدنية حقة .

وقد أكد لنا صاحب العزة وهران نو بار بك ، حفيده ، أن جدّه ترك مذكرات تاريخية تقع فى أربعة مجلدات ، شرح فيها ما حضره شخصيا من الحوادث والوقائع فى عهد الأمراء السبعة من البيت العلوى الذين خدمهم : فحبذا لو يسرع ابنه بوغوص نو بار باشا الى نشرها ، فيخدم الأدب التاريخى خدمة هو فى أشدّ الاحتياج اليها ؛ لا سيما أن تلك المذكرات هى الوحيدة من نوعها ؛ وأن عموم الرجال الذين كانت لهم يد فى حوادث القرن الماضى من أمراء مصر ووزرائها وغيرهم أبوا أن

يحملوا أنفسهم عناء ترك مذكرات شخصية ، كما نستنير بالنور المنبعث عنها فى اطلاعنا على تاريخ أيامهم . وانه لجدير بنوبار أن يشذ عنهم .

شريف باشا

وأما شريف باشا[1] — ويلى نوبار فى أهميته السياسية ، ويفوقه فى نظر الكثيرين من المصريين ، ولو أنهم لا يبنون تقديرهم له هذا إلا على ما عهدوه فيه من إباء ، وعلو نفس ، وكرم أخلاق ، فهم يصفونه لذلك "بصاحب الهمة العلية ، والنفس الأبية ، والمروءة الوفية ، والشرف الكامل ، أخى المعالى ، وخدن المفاخر ، وزينة الرياسة ، ونموذج العفة والاستقامة ، وحليف الخير والمكارم" — فقد كان ابن محمد شريف افندى الشركسى العثمانى . ولد بمصر القاهرة فى شهر نوفمبر سنة ١٨٢٦ إذ كان أبوه قاضى القضاة فيها ؛ ولكنه فارقها الى الأستانة العلية ، وهو لا يتجاوز بعض الأشهر سنا حينما انقضت مدّة السنة المعينة لوظيفة أبيه — كما كانت العادة فى تنصيب قضاة الولايات العثمانيـة — ثم بعد ذلك ببضع سنين تعين أبوه لمنصب قضاء الحجاز ؛ وفى ذهابه الى الأقطار المشرقة للقيام بما عهد به اليه ، مرّ على مصر بعائلته ، وتقابل (بمحمد على) أميرها العظيم فقابله بالترحاب والتكريم ، وفرح لمشاهدة نجله ، حيث تفرّس فيه العلاء والنجابة ، وسأله أن لا يأخذه معه الى الحجاز ، وهو يقوم بشأنه وتربيته ويحسن مثواه ، ويعوله كما يعول أولاده . فقبل هذه النعمة بالشكر ، لعلمه بأن ولده يكون فى مصر كما لو كان معه أو أحسن . فتركه فيها وسافر الى محل مأموريته .

أما ولده فكان فى ذلك الوقت فى سن قابل للتعليم . فانتظم بأمر ساكن الجنان (محمد على) فى سلك تلاميذ مدرسـة "الخانقاه" — وهى المدرسـة التى أنشئت

(١) أخذنا معظم ما كتبناه عن شريف باشا عن كتاب "شريف باشا" للوسيو دى روف وكتاب "خديويون و باشاوات" لمو برلى بل .

فى سنة ١٨٢٦ — لتعليم العلوم العسكرية ، وناظرها المرحوم عثمان نور الدين افندى ؛ ومن تلاميذها أنجال الباشا العظيم ، محمد سعيد وحسين وحليم ، وأنجال أنجاله ، وأولاد الأمراء .

وقد كان انتشر فى أوروبا خبر تأسيس هذه المدرسة بمصر قبل أن يشرع (محمد على) فى تأسيسها ، إذ قد صادف وجود ناظرها عثمان نورالدين افندى فى باريس سنة ١٨٢٥ ، ومقابلته بالمسيو چومار أحد مشاهير الفرنساويين الذين دخلوا مصر أيام الاحتلال الفرنساوى ، فتكلم معه فى شأنها ، وفى شأن تأسيس مدرسة أخرى فى باريس لتعليم من ينتخب من تلاميذ مدرسة "الخانقاه" . فلما عاد أخبر (محمد على) بهذا الرأى ، فاستصوبه ، وفتحت فى باريس مدرسة الرسالة المصرية ، بشارع ريجار ، بقسم لوجزمبرج ؛ وبعد سنة أرسل اليها أربعة وأربعون تلميذا ، وتعين لهم ناظران وهما المسيو چومار واستفان بك دمرچيان (الذى تولى فيما بعد نظارة الخارجية ، ورياسة مجلس الدواوين فى عهد سعيد باشا . وكان انتخاب هذا العدد من مدرسة "الخانقاه" بمعرفة (محمد على) . ثم سافرت رسالة أخرى وفى مقدمتها سعيد وحليم وحسين (المتوفى فى باريس) أولاد العزيز ، واسماعيل وأحمد ابنا ابنه ابراهيم ، وشريف باشا وعلى مبارك باشا وعلى شريف باشا ومراد حلمى باشا ، عديل شريف باشا ، وغيرهم من نجباء مدرسة "الخانقاه" .

فاشتغل كل منهم بحسب لياقته وذوقه وميله بالعلوم التى اختارها لنفسه . فكان ميل شريف باشا الى تعلم الفنون الحربية ، والعلوم العسكرية ؛ ثم استعدّ للدّخول فى مدرسة سانسير ، الشهيرة بتعليم الضباط العسكريين ، وأدّى الامتحان اللازم ، وانتظم فى سلك تلاميذها سنة ١٨٤٣ ؛ فتقدّم فى علومها ووصل الى أعلى فرقها . ثم انتقل منها

الى مدرســة تطبيق العلوم الحربية فى ســنة ١٨٤٥ ؛ فمكث فيها سنتين كاملتين . ولما كانت أحكام هذه المدرســة تقضى على تلاميذها بالاستخدام سنتين بالجيش الفرنساوى تحت التمرين ، دخل فى الآلاى الواحد والعشرين ، الذى كان فى پرپنيان من مدن فرنسا تحت قيادة الأميرالاى ميراند، المتوفى فى حرب القرم برتبة چنرال .

وفى آخر هـذه المدّة توفى (محمد على) ، وتولى (عباس الأوّل) . فأمر باسترجاع تلاميذ الرسالة المصرية بفرنسا ســنة ١٨٤٩ فعادوا ، ورجع شريف باشا مكتسبا من الحكومة الفرنساوية رتبة يوزباشى أركان حرب، لابسا ملابسها الرسمية . فألحق بالجيش المصرى بهذه الرتبة أيضا . ولم يلبث فى الجيش إلا قليلا حتى تعين من جملة ياوران سليمان باشا الفرنساوى، سردار الجيش المصرى، بناء على طلب سليمان باشا عينه وإلحاحه على (عباس الأوّل) . ولكن هذا التعيين لم يزده شيئا على رتبته، مع تكرار الطلب من رئيسه سليمان باشا؛ وبقى فى هـذه الوظيفة لغاية ســنة ١٨٥٢ فتمكنت محبته من قلب رئيسه لحسن قيامه بأعماله ، ونباهته واستقامته وخبرته . ولكنه لم يتقدّم، ولم ينل رتبة من (عباس) على مهارته ومساعدة رئيسه إياه . فقام بفكره أن يترك الوظيفة، وتركها . واستخدمه الأمير حليم فى دائرته، بوظيفة كاتب يده فى سنة ١٨٥٣؛ وبقى فى هذه الوظيفة سنة واحدة الى أن توفى (عباس)، وتولى بعده (سعيد) . فكانت باكورة أعماله ترقية شريف، رفيقه فى التلمذة قديما والجدير بالالتفات ، الى رتبة أميرالاى الحرس الخصوصى . فبقى فى هذه الوظيفة سنتين، والقلوب راضية عنه، والأمير ملتفت اليه حق الالتفات . وبعدها أنعم عليه برتبــة لواء (باشا) ، وعين لقيادة آلاى بيادة وآلاى الحرس الخصوصى . ثم كمل ســعده

بعد هــذه الترقية بسنة واحدة، ســنة ١٨٥٦ : فتزوج ابنة سليمان باشا الفرنساوى السردار البادى ذكره . فازداد بقرانه هذا تمسكا بميوله الفرنساوية الأصلية .

وبقربه من (سعيد) زاد قدره لديه ؛ وظهرت فيه علامات الأهلية التامة والجدارة العظمى والعفة وسداد الرأى . فرقاه الى رتبة فريق ؛ ثم خطر بباله أن يعينه فى وظيفة ادارية ، فكان ذلك ؛ وعينه ناظرا للأمور الخارجيــة المصرية ؛ فقام بها حق القيام الى انقضاء أيام (سعيد) . ومن عهد توظفه للخارجية ظهر فى الوجود السياسى ظهورا بينا . ولبث كذلك نحو ثلاثين سنة ، لا تحدث حادثة سياسية إلا وله فيها الاسم الطيب الشريف . وانقضت مدّة (اسماعيل) وأوائل مدّة (توفيق) وشريف فى منزلته السياسية، وعلو مكانته، وارتقائه فى الاسم والصيت .

وبعد أن توفى (سعيد) لم يتزحزح مركز شريف ، بل زاد فى عهد (اسماعيل) الذى كان هو أيضا لا يفتأ يذكر أيام تلمذتهما معا فى باريس وساعاتها الحلوة . فولاه نظارة الداخلية مع نظارة الخارجية ؛ فقام بالوظيفتين حق القيام ، بالأمانة وحسن الادارة والاخلاص ، الى أن سافر (اسماعيل) الى الأستانة فى يوليه ســنة ١٨٦٥ ؛ فعهد اليه بالشرف الرفيع الذى لا يعدله شرف، وهو جعله قائمقام مصر ، لمـا عهده فيــه من حسن الرياسة والذكاء والكياسة والمهابة والامارة . وهذه هى أوّل مرة تعين فيها نائبا عن خديو مصر، رجل ليس من العائلة الخديوية . فكان ذلك أكبر دليل على ماكان لشريف من المنزلة العليا فى النفوس .

ثم لمـا عاد (اسماعيل) الى مصر أبقاه فى الخارجية ، وألقى اليــه مقاليد المعارف العمومية؛ وعهد بالداخلية الى راغب باشا ؛ وفى سنة ١٨٦٧ اختاره لرياسة المجلس الخصوصى الذى كان بمنزلة مجلس النظار . ومن هذا التاريخ الى آخر حكم (اسماعيل)

تقلب فى الوظائف العالية . فتقلد نظارة الداخلية من سنة ١٨٦٨ الى سنة ١٨٦٩ ؛ والخارجية فى سنة ١٨٧٠ وسنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٧٥ وسنة ١٨٧٦ وسنة ١٨٧٩ ؛ والحقانية أيضا فى سنة ١٨٧٤ وسنة ١٨٧٥ ؛ وأحيلت عليـه نظارة التجارة كذلك فى سنة ١٨٧٥ ؛ وفى سنة ١٨٧٩ كان آخر رئيس نظار (اسماعيل) وأوّل رئيس نظار (توفيق) ؛ ولكنه اعتزل المناصب فى أوائل (توفيق)؛ وما زال بعيدا عنها الى أن تحرّكت الثورة العرابيـة . فعهدت اليـه رياسة مجلس النظار سنة ١٨٨١ ؛ فأسس فى مدّته هذه مجلس نوّاب للبلاد . ولمـا ثبت له أن الثورة انقلبت الى حركة مؤدّية حتما الى جلب ضرر على البلاد ، استقال ، والكل راضون عنه . و بعد تدمير الاسكندرية عاد فألف وزارة كانت آخر الوزارات التى ترأسها ، وتقلد فيهـا منصب الخارجية فى ذلك الحين . ولمـا اشتدّ أوار المسألة السودانية تنحى ، وترك المناصب ؛ ثم سافر الى أوروبا حيث أدركته الوفاة سنة ١٨٨٧

فصدر أمر (توفيق) باحضار رفاته ، وتشييع جنازته على نفقة الحكومة ، اعترافا بفضله وخدماته الجليلة ، ونعاه نوبار — وكان إذ ذاك رئيس الوزارة — الى عموم المصالح ، بعبارات مؤثرة ، دلت على ما كان بين الرجلين من أواصر المحبة والاحترام ، بالرغم من اختلاف مشاربهما .

فان نوبار كان فى طباعه وأخلاقه وشمائله يشبه الانجليز . وشريفا كان فرنساويا بحتا فى مظهره وملبسه ، لاسيما بعد اقترانه بابنة سليمان باشا ، الى حدّ جعل معاصريه يسمونه "شريف باشا الفرنساوى" . وبينما نوبار ربمـا كان لا أدريا ، فان شريفا كان مسلما صحيح الاعتقاد ، ولو أنه لم يكن يعمل بدقة بكل مقتضيات الحياة والدين الاسلاميين . وكان شريف عكس نوبار أيضا فى المظهر الطبيعى ، كما كان

عكسه فى العقلية والخلق . فبينما نوبار أسمر اللون، أسود الشعر والعينين، فان شريفا كان أشقر اللون والشعر، عسلى العينين . وبينما كان الأول يحسن إخفاء عواطفه وأفكاره ، كان الثانى لا يستطيع ذلك مطلقا ، لما جبل عليه من الصراحة الكلية فى قلبه وكلامه . فكان الى أنه جندى أقرب منه الى أنه رجل سياسة ؛ ولو حاول اخفاء عاطفة لخانته شيمه الصريحة ، وسحنته المفتوحة . وبالرغم من ذلك فانه كان محبوبا من الجميع ، ولا أعداء له ، لوقوف الكل على سلامة ضميره واخلاص قلبه ؛ بخلاف نوبار، فان خلقه الشديد كان ينفر منه من الناس بقدر ما كان يدنى اليه منهم .

على أن كلا الرجلين كانا متشابهين فى الذكاء، وسرعة الخاطر، وحلاوة الحديث ، وحسن المعاشرة والمجالسة ، وسعة الضيافة وكرمها ، تشابههما فى وقار النفس وكمالها ، فى الأنفة من الدنايا والترفع عنها ، وفى علو الهمة ، وحب المبرات ، وحرية الفكر والضمير . وكان أحدهما يحترم الآخر؛ فالاحترام متبادل بينهما لهذه الفضائل والكمالات .

غير أنه بينما كان نوبار يرى المطالعة من أكبر اللذات فى هذه الحياة الدنيا ، كان شريف يرى أن الصيد والقنص هما أكبر ملاذها . فكان شديد الغرام بهما ، اذا ، كأنه نمرود ثان . لذلك وصفهما (اسماعيل) بقوله : «لست أرى سفيرا أرسله الى بلاد الانجليز خيرا من شريف : فانه صياد، مولع بالصيد، لايبالى باخطاره؛ وهذا يعجب القوم هناك ، ويستميل قلوبهم؛ كما انى لست أرى سفيرا أرسله الى الأستانة خيرا من نوبار : فانه أمهر الناس فى تزويق الحديث وتنميقه ، ولو كان مبالغا فيه ؛ وأحذقهم فى حمل المحدّث على القهقهة ، وهو ساكن لا يضحك . وليس شئ يعجب الأتراك أكثر من هذا ! » .

وكلا الرجلين كان يميــل الى التلاهى عن الأشغال الجدية بالألعاب الاجتماعية ؛ ولكن نو بار كان يفضــل لعبة البزيج على كل لعبة خلافها ؛ وكثيرا ما كنت ، اذا زرته ، تجده يتعاطاه مع خصيص من أخصائه أو زائر من زائريه الغربيين . وأما شريف فانه لم يكن يفضل على البلياردو لعبــة فى الوجود ؛ وكان غرامه به يكاد يضاهى ولعه بالقنص والصيد ، ويبلغ حدّا يجعله يتصوّر معه كل كفاءة لأى نوع من أنواع الأعمال والأشغال فى الرجل المتقن لعبه .

وان الناظر الى تداول وزارتى الخارجية والتجارة بين هذين الوزيرين، الى بقائهما فى منصبيهما فى الادارة المصرية المدد الطويلة، مع أن الحكم كان فرديا واستبداديا على ما يقولون، لايسعه إلا مقارنة ذلك بسرعة زوال الوزارات، وسرعة تغير المظاهر الادارية ، فى الدول السائد عليها نظام الدستور . فلا يجد من يصح له أن يقارنه بهما من رجال الدول ، معاصريهما ، سوى دزرائيلى وجلادستون . ومع ذلك فان هذين الانجليزيين تواليا على المناصب، ولم يتعاصرا عليها . فأمكن الواحد منهــما فى أوقات اعتزاله أن يؤلف الروايات أو يخطب فى الغابات . وهذا ما لم يسمح به لنو بار وشريف لا سيما لهذا الأخير ، مطلقا، طوال حكم (اسماعيل) .

على مبارك باشا

وأما على مبارك باشا[1]، أبو التعليم المصرى الحقيقى ، فانه بخلاف الوزيرين السابقين، مصرى بحت . وانا ، لمــا فى حياته من عبر بليغة، نرى أن نتوسع فى شرحها فنقول : ولد فى قرية برنبال الجديدة، من أسرة كانت تعرف فيها بعائلة المشايخ سنة ١٢٣٩ هـ وسنة ١٨٢٤ م . ولمــا بلغ السادسة من عمره، اضطر والده، بعد أن بذل ما بيــده و باع مواشيه وأثاث بيته، الى الفرار من القرية بسبب أموال انكسرت عليه للديوان ؛

(١) مأخوذ عن مذكرات على مبارك باشا نفسه .

ونزل بقرية يقال لها الحماديين من أعمال الشرقية . ولكنه لم يلبث فيها إلا قليلا ، لقلة إكرام أهلها له ؛ وارتحل بعياله الى عرب السماعنة بالشرقية ؛ ولم يكن عندهم فقهاء . فأنزلوه منزل الإكرام والاجلال ؛ وانتفعوا منه ، وانتفع منهم انتفاعا كبيرا ، ارتاح له خاطره وانزاحت عنه الشدائد . فالتفت الى تربية ابنه علي . فعلمه أولا بنفسه ؛ ثم سلمه لمعلم اسمه الشيخ أحمد أبو خضر ؛ وكان مقيما فى قرية صغيرة قريبة من مساكن أولئك العرب . فأقام عنده نحو سنتين ختم فيهما القرآن بداية . ثم لكثرة ضرب الشيخ له ، تركه وجعل يقرأ عند والده . وكان والده منشغلا عنه فى شغله . فمال الولد الى اللعب والتفريط . فهم أبوه يجبره على الذهاب الى معلمه ؛ فتعاصى ونوى الهرب . وكان له اخوة من غير والدته . فأشفقوا عليه ، وسألوه عن مرغوبه فى التربية . فاختار أن لا يكون فقيها ؛ بل يكون كاتبا ؛ لما كان يراه للكتاب من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام . فسلمه أبوه الى كاتب قسم بناحية الاخيوة كان صديقا له ؛ وجعل له مرتبا يكفيه . فأقام عليّ عنده مدة ، وخالط عياله ؛ فاذا هو مجمل الظاهر ولكنه فقير فى بيته — كمعظم الكتاب والموظفين بكل أسف ! — فكان الولد ، فى غالب أيامه ، يبيت اذا طاويا من الجوع ؛ وليت ذلك كان كل ماهنالك ! ولكن الرجل — على قلة تعليمه له — كان يخدمه كثيرا ويؤذيه أكثر . فحدث ذات يوم أنهما كانا فى قرية المناجاة ؛ فسأله الكاتب أمام ناظر القسم وجماعة حضور عن الواحد فى الواحد ! فقال عليّ «باثنين» ! فضربه بمقلاة بن ؛ فشجه فى رأسه ؛ فلامه الحاضرون . وذهب عليّ الى والده يشكو اليه ؛ فما نال منه إلا الأذى . وكان يومئذ مولد سيدى أحمد البدوى . فهرب عليّ ، مع الناس ، قاصدا المطرية ، جهة المنزلة ، ليلحق بخالة له هناك . ولكنه مرض بالكوليرا فى طريقه بقرية صالجر . فأخذه

رجل من أهلها ، وعاده أربعين يوما . وكان والده ، فى تلك المدّة ، وأحد اخوته يفتشان عليه فى البلاد . فاستدل عليه فى صالجر . فلما رآه علىّ هرب ، ونزل بمنية طريف . فأخذه رجل عربى ؛ ولكنه لم يقم عنده إلا قليلا ، وهرب منه أيضا ، ولحق بأخ له فى برنبال . وبعد أيام قدم اليها أخوه الذى كان يفتش عليه ، وما زال به حتى أخذه بالحيلة الى والدهما . وقد أشكل على أهله أمره ؛ فعرضوا عليه القرّاء والكتّاب ، فلم يقبل بحجة أن المعلم لا يستفيد منه إلا الضرب ؛ والكاتب إلا الضياع والأذى ، علاوة على أنه يخدّمه . فعرض عليه والده أن يلحقه بصاحب له من كتبة المساحين ؛ فرضى بذلك . فلما عاشره ، زاد رغبة فى عشرته ، لما كان يناله فى صحبته من النقود التى كان يأخذها من الأهالى . فأقام عنـده ثلاثة أشهر ؛ ولكنه ، لصغر سنه وعدم معرفته بما ينفع وما يضر ، كان يفشى سرّه ، ويخبر عن أخذه من الناس ؛ فطرده . فبقى فى بيت أبيه يقرأ عليـه ، ويصحبه فى قبض الأموال الأميرية التى على العرب — وكان منوطا بذلك — ويباشر الكتّابة وبعض المحاسبات . ثم بعد نحو سنة واحدة جعله أبوه مساعدا عند كاتب فى مأمورية أبى كبير ، بماهية قدرها خمسون قرشا يبيض له الدفاتر . فأقام عنده نحو ثلاثة أشهر ، وقد خلقت ثيابه ، وساء حاله ، ولم يقبض شيئا من المـاهية إلا الأكل فى بيته . ثم عينه يوما لقبض حاصل أبى كبير ، فقبضه ، وأمسك عنده منه قدر ماهيته ، وكتب له علما بالواصل ، ووضعه فى كيس النقـدية . فلما وقف على ذلك ، اغتاظ منـه ، وأسرها فى نفسه ، وأغرى مأمور أبى كبير عليه ، واتفق معه على الحاقه بالجهادية ، بدل شخص كان مطلوبا للعسكرية . فناداياه على حين غفلته ، وأمره المأمور بالذهاب الى السجن ، لكتّابة المسجونين ، وأصحبه رجلا من أغوات المأمورية . فلما دخل السجن ، أحضروا باشا من الحديد ،

ووضعوه فى رقبته، وتركوه مسجونا . فلبث فى السجن، وهو على ما لا مزيد عليه من الخوف، بضعة وعشرين يوما فى أوساخ المسجونين وقاذوراتهم؛ ينتحب آناء الليل وأطراف النهار . فرق له السجان لصغر سنه؛ومكنه من مخابرة أبيه فى أمره. فذهب أبوه الى العزيز— وكان بناحية (منية القمح) — وقدم له قصة ابنه فى عرضحال فكتب باخلاء سبيله؛ وأخذ الوالد الأمر بيده؛ ولكن قبل حضوره اليه، أتى الى السجان صاحب له من خدمة مأمور زراعة القطن بنواحى أبى كبير، وأخبره ان المأمور محتاج الى كاتب يكون معه بماهية . فدله السجان على علىّ، ووصفه له بالنجابة وحسن الخط! فمال الخادم اليه وطلب منه أن يكتب خطه فى ورقة ليراها المأمور. فكتب علىّ عريضة واعتنى فيها؛ وناولها له مع غازى ذهب قيمته عشرون قرشا، ليسلك له الطريق عند مخدومه؛ ووعده بأكثر من ذلك أيضا . فأخذها؛ وبعد قليل حضر بأمر الافراج عنه، وأخذه معه حتى قرب من المأمور، وكان يدعى عنبر افندى . فنظر اليه، فاذا هو أسود حبشى، لكنه سمح، جليل، مهيب؛ ورأى مشايخ البلاد والحكام وقوفا بين يديه، وهو يلقى عليهم التنبيهات . فتأخر حتى انصرفوا. فدخل عليه وقبل يده . فكلمه بكلام رقيق عربى فصيح، وقال له : « أتريد أن تكون معى كاتبا، ولك عندى جراية كل يوم، وخمسة وسبعون قرشا ماهية، كل شهر؟ » فقال نعم؛ ثم انصرف من أمامه، وجلس مع الخدامين . وكان يعرف من المشايخ الذين كانوا بين يديه جماعة من مشاهير البلاد، أصحاب الثروة والخدم والحشم والعبيد . فاستغرب ما رآه من وقوفهم بين يديه وامتثالهم أوامره . وكان لم ير مثل ذلك قبل، ولم يسمع به! بل كان يعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك، على حسب ما جرت به العادة فى تلك الأزمان . وبقى متعجبا، متحيرا فى السبب الذى

جعل السادة يقفون أمام العبيد، ويقبلون أيديهم؛ وحرص كل الحرص على الوقوف على هذا السبب . فكان ذلك من دواعى ملازمته لعنبر افندى .

وفى ثانى يوم حضر والد علىّ بأمر العزيز . فسلم علىّ عليـه وأدخله على المأمور وعرفه إياه؛ فبش فى وجهه ، وأجلسه وأكرمه . وكان والد علىّ جميـل الهيئة ، أبيض اللون، فصيحا، متأدبا . فكلم المأمور فى شأن ابنه . فقال له المأمور : « انى قد اخترته ليكون معى، وجعلت له مرتبا. فان أحببت، فذاك» . فشكر له، ورضى أن يكون ابنه معه، وانصرف من مجلسه مسرورا

فلما كان الليل وسهر علىّ مع أبيه، جعل كلامه معه فى المأمور ! فقال : « هذا المأمور ليس من الأتراك، لأنه أسود» . فأجابه : «يمكن أن يكون عبدا عتيقا» . قال : « هل يكون العبد حاكما ؟ مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاما ، فضـلا عن العبيد ؟ » فأجابه أبوه بأجوبة لم تقنعه . وبعـد يومين سافر عنه وتركه عنـد المأمور . فجعل علىّ يقول فى نفسه : « ان الكتابة والمـاهية كانتا السبب فى سجنى ووضع الحديد فى رقبتى . وقد وجدت هذا المأمور خلصنى من ذلك . فلو فعل هو معى مثل ما فعل الكاتب فمن يخلصنى ؟ » .

وأخذ يودّ أن يكون بحالة لا ذل فيها ، ولا تخشى غوائلها . واصطحب بفراش لعنبر افندى، ما لبث أن علم منه أن سيّده مشترى ست من الستات الكبار، مرعيات الخواطر، أدخلته مدرسة القصر العينى لمـا فتح العزيز المدارس، وأدخل فيها الولدان . وأخبره ذلك الفراش أن التلاميـذ فى القصر العينى يتعلمون الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك، وان الحكام انما يؤخذون من المدارس !

فجال حينئذ فى صدر علىّ أن يدخل المدارس ؛ وسأل الفراش : « هل يدخلها أحد من الفلاحين ؟ » فأفاده : « أنه يدخلها صاحب الواسطة » . فشغل ذلك باله زيادة . وما زال بالفراش يستفهم منه عن طريق القصر، وكيفية الاقامة فيه . فأخبره عن ذلك كله ؛ وأثنى على حسن اقامة التلاميذ به ومأكولهم وملبوسهم واكرامهم ؛ فازداد علىّ شوقا . وكان يكتب عنده كل ما يخبره به من بيان الطريق وقدر المسافة ، وأسماء البلاد التى فى الطريق ؛ وقامت بنفسه فكرة التخلص ، والتوصل الى المدارس . فطلب الاذن فى زيارة أهله ؛ فأذن له بخمسة عشر يوما ؛ فسافر . وبينما هو يجتاز قرية بنى عياط ، تقابل مع جملة أطفال تحت قيادة رجل خياط ، مع كل واحد دواة وأقلام . فجلس معهم تحت شجرة ، وتحادثوا . فظهر له أنهم تلامذة من مكتب منية العز ، ورأوا ، هم ، خطه ؛ فوجدوه أحسن من خط الباشجاويش . فجعل علىّ يستفهم منهم عن مكتبهم وصفته ؛ وجعل الخياط يحسن له أوصافه ، ويغريه على دخوله ، مفهما إياه أن نجباء المكاتب ينتقلون الى المدارس بلا واسطة . فرأى علىّ أن ذلك غاية مرغوب به ؛ فلم يتأخر عن الذهاب معهم والدخول الى مكتبهم . ولكن ناظره — وكان من معارف أبيه — أراد أن يمنعه من الانتظام فى عقد التلامذة ؛ فلم يفلح ؛ وبقى علىّ فى المكتب خمسة عشرة يوما . ثم أتى أبوه ، بتدبير من الناظر ، وانتظر خروجه للفسحة والأكل فى وقت الظهر ، واختطفه الى البلد ، وحبسه فى البيت نحو عشرة أيام ، ما برحت أمه فى خلالها تبكى منه وعليه ، وتستعطفه للرجوع عما يوجب فراقهم ، وتحلفه أن يرجع عن تلك النية ؛ فوعدها بالرجوع عن ذلك ، إرضاء لخاطرها .

فأطلقوه . وكان لهم غنيمات ، أخذ يرعاها . وأبعدوه عن حرفة الكتابة . فبقى كذلك مدة ، حتى اطمأن خاطرهم ، وظنوا أن فكرته ذهبت عنه ؛ مع أنها لم تفارقه

وانمـا كان يخفيها الى أن انتهز فرصة فى ليلة من الليالى ؛ فصبر الى أن ناموا جميعا ، وأخذ دواته وأدواته ، وخرج من عنـدهم خائفا يترقب ؛ وتوجه تلقاء منية العز . وكان ذلك آخر عهـده بسكناه بين أبو يه ؛ وكانت ليلة مقمرة . فمشى حتى أصبح . فدخل منية العز ضحى ؛ ولم يره النـاظر إلا وهو مع الأطفال فى داخل المكتب . والتزم أن لا يخرج منـه ليلا ولا نهارا مخافة اختطافه . ثم حضر والده وعمل طرق التحيل عليـه ، هو والناظر ، فلم ينجح فى ذلك ؛ حتى جاء ناظر مكتب الخانقاه ، عصمت افندى ، لفرز نجباء التلامذة الى القصر العينى ؛ فكان علىّ ممن اختير لذلك . ولكن والده حضر واشتكى لعصمت افندى . فقال له : « هذا ابنك أمامك ، وهو مخير » . فخيروه ؛ فاختار المدارس . فعنـد ذلك بكى والده كثيرا ؛ وأغرى عليه جماعة من المعلمين وغيرهم ليستميلوه ؛ فلم يصغ لكلامهم ؛ وكان ماقدّر الله . فدخل مدرسة القصر العينى فى سنة ١٢٥١ ، وهو يومئذ فى سنّ المراهقة . فوجد المدارس على خلاف ما كان يظن . بل بسبب تجدّد أمرها ، كانت واجبات الوظائف مجهولة فيها ؛ والتربية والتعليمات غير معتنى بها . بل كان جل اعتنائهم بتعليم المشى العسكرى ؛ فكان ذلك فى وقت الصبح والظهر وبعد الأكل وفى أماكن النوم . وكان جميع رؤساء التلامذة ومعلميهم يؤذونهم بالضرب وأنواع السب والإهانة من غير حساب ولا حرج ، مع كثرة الأغراض ، والإعراض عن الاعتناء بشؤونهم من مأكولات وخلافها . وكانت مفروشاتهـم حصر الحلفا ، وأحرمة الصوف الغليظ من شـغل بولاق . ومن كراهة علىّ للطبيخ المرتب لهم ، جعـل يأتدم الجبن والزيتون . وكان برعى افندى أستاذ فرقته يراعيه بالنسبة لغيره .

وكان مع الشاب قليل من النقود جعلها أمانة تحت يد أستاذه . فلما رأى هـذه الحالة ، ضاق ذرعا ؛ وظن أنه جنى على نفسه فى دخوله المدارس التى بهذه المثابة . ثم لتغير الهواء المعتاد ، وكثرة ماقام به من الأفكار ، اعترته الأمراض ؛ وطفح الجرب على جسمه . فأدخلوه المستشفى . فتراكمت عليه الأمراض ، حتى يئسوا من حياته . ولكن الله سلم .

وفى أثناء ذلك حضر والده . فلم يمكنوه من الدخول . فجعل لبعض التمارجية خمسين محبوبا من الذهب ، على أن يخرج ابنه من "الاسبتالية" سرّا ، ليخلصه مما هو فيه . فلم يشعر علىّ إلا والتمارجى قد كسر شباك الحديد من المحل الذى هو فيه ؛ وأخبره بمرغوب والده ؛ وأنه واقف ينتظره خارج المدرسة . وأراد أن ينزله من الشباك ، ويوصله اليه ليأخذ جعله . فمالت نفس علىّ لاجابته والذهاب مع والده ، وترك المدارس وأهلها ، لما رآه من الشدائد وعدم التعليم ، وما لحقه من الجوع فى "الاسبتالية" ، حتى كان يمص العظم الذى كان يلقيه الآكلون .

لكنه فكر فى عاقبة الهروب . فانهم كانوا يطلبون من يهرب من التلامذة ، ويقبضون على أهله ، ويقيدونهم ويهينونهم . فامتنع عن الخروج معه . فاجتهد فى التحيل عليه ، وتسهيل الأمر لديه . فأبى ، وقال : « أصبر على قضاء الله ، وأنا الجانى على نفسى ! فبلغ والدى السلام ، وسله أن يدعو لى ، وأن يبلغ والدتى عنى السلام ! » .

ثم ان والده توسط حتى دخل عنده ، ورأى كل منهما الآخر . فقبل كل الآخر ، وبكيا ؛ ثم ودعه ومضى لسبيله ، وكله زفرات . ثم شفى الشاب ؛ وخرج الى المدرسة ؛ واشتغل بدروسه ؛ ولم يمرض بعد ذلك .

وفى أواخر سنة ١٢٥٢ نقلوهم الى مدرسة أبى زعبل، وجعلوا القصر العينى لمدرسة الطب خاصة، كما هو الآن . فكانت ادارة المدارس فى أبى زعبل كما كانت فى القصر العينى . إلا أنه اعتنى بالتعليم شيئا، بسبب جعل نظرها لابراهيم رأفت بك .

وكان أثقل الفنون على الشاب علىّ وأصعبها الهندسة والحساب والنحو . فكان يراها كالطلاسم، ويرى كلام المعلمين فيها ككلام السحرة . وبقى كذلك مدة، الى أن جمع ابراهيم رأفت بك متأخرى التلامذة فى آخر السنة الثالثة من انتقالهم الى مدرسة أبى زعبل، وجعلهم فرقة مستقلة — فكان علىّ منهم، بل آخرهم — وجعل نفسه هو المعلم لهذه الفرقة .

ففى أول درس ألقاه عليهم، أفصح عن الغرض المقصود من الهندسة، بمعنى واضح، وألفاظ وجيزة، وبين أهمية الحدود والتعريفات الموضوعة فى أوائل الفنون، وأن هذه الحروف التى اصطلحوا عليها انما تستعمل فى أسماء الأشكال وأجزائها، كاستعمال الأسماء للأشخاص . فكما أن الانسان له أن يختار لابنه ما شاء من الأسماء كذلك المعبر عن الأشكال له أن يختار لها ما شاء من الحروف . فانفتح، من حسن بيانه، قفل قلب الشاب، ووعى ما يقول .

وكانت طريقة ذلك الأستاذ الحكيم هى باب الفتوح عليه، ولم يقم من أول درس إلا على فائدة . وهكذا كانت جميع دروسه، بخلاف غيره من المعلمين، معدومى الطريقة وملتزمى الحالة الواحدة . فختم عليه فى أول سنة جميع الهندسة والحساب، وصار أول فرقته، وبقى فى النحو على الحالة الأولى، لعدم تغير المعلم، ولا طريقة التعليم السيئة .

وكان رأفت بك يضرب به المثل ، ويجعل نجابته على يديه برهانا على سوء تعلم المعلمين ؛ وأن سوء التعليم هو السبب فى تأخر التلامذة .

وفى تلك السنة ، وهى سنة ١٢٥٥ ، فرزوا منهم تلامذة لمدرسة المهندسخانة ببولاق ، فاختاروا عليا فيمن اختاروه . فأقام بها خمس سنين ، وتلقن جميع دروسها ، وكان فيها دائمـا أول فرقته وقلفتها . فتلق بها الجزء الأول من الجبر ، والجبر العالى ، وعلم الميكانيكا ، وعلم الدينـاميكا ، وتركيب الآلات على أسـتاذ يقال له طائل افندى ؛ وحساب التفاضل ، وعلم الفلك على محمود باشا الفلكى ؛ وعلم الإدروليك على دقله افندى ؛ وعلم الطوبوغرافيا ، والتروزية على ابراهيم رمضان افندى ؛ وعلم الكيمياء والطبيعة ، والمعادن ، والجيولوچيا ، وحساب الآلات على أحمد فايد بك ؛ والهندسة الوصفية ، وقطع الأحجار ، وقطع الأخشاب ، والظل والنظر ، بعضه على ابراهيم رمضان افندى وبعضه على سلامة باشا ؛ وتلقى عليه أيضا خاصة الكسموغرافيا .

ولعدم وجود كتب مطبوعة فى هذه الفنون وغيرها ، إذ ذاك ، كان التلامـذة يكتبون الدروس عن المعلمين فى كراريس ، كل على قدر اجتهاده فى استيفاء ما يلقيه المعلمون . وكان المعلمون يومئذ يبذلون غاية مجهودهم فى التعليم . فكان ينـدر أن يستوفى تلميذ فى كراسه جميع ما يلقى اليه ، خصوصا الأشكال والرسوم . ولذلك كان الأمر اذا تقادم أو خرجت التلامذة من المدارس يعسر عليهم استحضار ما تعلموه ، فكان يضيع منهم كثيره .

وفى آخر مدّة المهندسخانة كانوا يطبعون بمطبعة الحجر بعض كتب ؛ فاستعان بهـا التلامذة وحصل منها نفع . ثم تكاثر طبع الكتب شيئا فشيئا ، لا سيما فى عهـد

(اسماعيل) وما بعده . فصارت تطبع الفنون بأشكالها ورسومها ؛ فسهل بذلك تناولها واستحضار ما فيها .

ثم فى سنة ١٢٦٠ عزم العزيز على إرسال أنجاله الى فرنسا ليتعلموا بها ، وصدر أمره بانتخاب جماعة من نجباء المدارس المتقدّمين ليكونوا معهم . وحضر سليمان باشا الفرنساوى الى المهندسخانة : فانتخب عدّة من تلامذتها ، فكان علىّ فيهم .

وكان ناظرها يومئذ لمبير بك . فأراد أن يبقيه فى المهندسخانة ، ليكون معلما بها . ولكن عليـا عرض على سليمان باشا أنه يريد السفر مع المسافرين . وجعل الناظر يحتال عليه وأحال عليه الخوجات ليثبطوه عن السفر ، وقالوا له : «إن بقيت هاهنا تأخذ الرتبــة حالا ، وتترتب لك المـاهية . وان سافرت تبقى تلميذا ، وتفوتك تلك المزية» .

ورأى علىّ أن سفره مع الأنجال مما يزيده شرفا ورفعة واكتسابا للمعارف ؛ فصمم على السفر ، مع أنه يعلم أن أهله فقراء ، ويعود عليهم النفع من المـاهية ، وهم منتظرون لذلك ؛ لكنه رأى الكثير الآجل خيرا من القليل العاجل .

فسافر الى تلك البلاد مع من تقدّم لنـا ذكر أسمائهم آنفا مـن الأمراء وأولاد الأعيان ؛ وجعل مرتبه كل شهر ٢٥٠ قرشا كرفقته . فجعل نصفها لأهله ، يصرف لهم من مصر كل شهر — وكانت هذه سنته معهم منذ دخل المدارس — فأقاموا جميعا فى باريس سنتين فى بيت واحد مختص بهم ؛ ورتب لهم المعلمون لجميع الدروس والضباط ، والناظر من الجهادية الفرنساوية : لأن رسالتهم كانت عسكرية ، وكانوا يتعلمون التعليمات العسكرية كل يوم .

وكانت معلومات أفراد الرسالة مختلفة . فبعضهم له إلمـام بالتعليمات العسكرية فقط ، مثل الذين أخذوا من الطوبجيـة والسوارى والبيادة ؛ والبعض لهم إلمـام بالعلوم الرياضـية ولا يعرفون اللغة الفرنساوية ، كالمأخوذين من المهندسخانة ؛ والبعض له معرفة باللغة الفرنساوية ، وكان بعض هؤلاء معلمين فيها بمدارس مصر .

فاقتضى رأى الناظر أن يجعل المتقدّمين فى الرياضة ، واللغة الفرنساوية ، فرقة واحدة ، وأمر المعلمين أن يلقوا الدروس للجميع باللغة الفرنساوية ، لا فرق بين من يفهم تلك اللغة ومن لا يفهمها . ففعلوا ، وأحالوا غير العارفين بهـا على العارفين ، ليتعلموا منهم بعد إعطاء الدروس — وكان علىّ ممن لا يعرفونها — فأخذ العارفون بها يبخلون على غير العارفين بالتعليم ، لينفردوا بالتقدّم . فمكث غير العارفين ، مدّة ، لا يفهمون شيئا من الدروس ، حتى خافوا التأخير ، وتكررت منهم الشكوى لتغيير تلك الطريقة ، وتعليمهم بكلام يفهمونه .

فلم يصـغ لشكواهم ؛ فتوقفوا عن حضور الدروس أياما . فحبسوهم ، وكتبوا فى حقهم للعزيز ؛ فصدر أمره بالتنبيه عليهم بالامتثال ؛ ومن يخالف يرســل الى مصر محدّدا .

فخافوا عاقبة ذلك ؛ وبذل علىّ جهده ، وأعمل فكره فى طريقة يحصل له منها النتيجة ومعرفة اللغة الفرنساوية . فسأل عن كتب الأطفال . فنبأوه عن كتاب ؛ فاشتراه ، واشتغل بحفظه ، وشمر عن ساعد الجدّ فى الحفظ والمطالعة ؛ ولزم السهاد ، وحرّم الرقاد ، لا ينام من الليل إلا قليله ، حتى أصبح ذلك ديدنه . فحفظ الكتاب بمعناه عن ظهر قلبه ، ثم حفظ جزءا عظيما من كتاب التاريخ بمعناه أيضا . وحفظ أسمـاء الأشكال الهندسية والاصطلاحات — كل ذلك فى الثلاثة الأشهر الأول .

وكانت العادة ان الامتحانات فى رأس كل ثلاثة شهور ؛ ومع ذلك كان يلتفت للدروس التى تعطيها "الخوجات" . فأثمر الحفظ معه ثمرة كبيرة ، وصار أول الرسالة كلها ، بالتبادل مع حماد بك ، وعلى ابراهيم باشا .

ولما حضر الى مدينة باريس الأمير (ابراهيم) ، سر عسكر الديار المصرية ، حضر امتحانهم ، هو ، وسر عسكر الديار الفرنساوية ، مع ابن الملك لويس فيليب ، وأعيان فرنسا ، وجملة من مشاهير النساء الكبار . فأثنى الجميع عليهم الثناء الجميل ؛ وفرقت المكافآت عليهم الثلاثة . فناول الأمير (ابراهيم) الشاب عليا مكافأة بيده — وهى المكافأة الثانية — وكانت نسخة من كتاب جغرافيا مالطبرون الفرنساوى ، بأطلسها . ودعوا للأكل معه .

وبعد سنتين ، تعين الثلاثة الأول من الفرقة ، وهم صاحب الترجمة ، وحماد بك ، وعلى ابراهيم باشا الى مدرسة الطوبجية والهندسة الحربية ، بناحية متس ؛ وأعطوا رتبة الملازم الثانى .

فأقاموا بها سنتين أيضا . وتعلموا فيها فنّ الاستحكامات الخفيفة ، والاستحكامات الثقيلة ؛ والعمارات المائية ، والهوائية ، عسكرية ومدنية ؛ والألغام ، وفنّ الحرب ، وما يلحق به ، مع اعادة عامة لكل ما سبق تعليمهم إياه ، بتلخيص من المعلمين ، فى عبارات وجيزة جامعة . ثم تفرّقوا الى الآلايات . فكان علىّ فى الآلاى الثالث من المهندسين الحربيين . وأقام فيه أقل من سنة .

وكان الأمير (ابراهيم) الهمام يودّ إقامتهم فى العسكرية ، حتى يستوفوا فوائدها ، ثم يسيحوا فى الديار الأوروبيـة ، ليشاهدوا الاعمال ، ويطبقوا العلم على العمل ، مع كشف حقائق أحوال تلك البلاد وأوضاعها وعاداتها .

ولكنه توفى ؛ وتولى (عباس) فى سنة ١٨٦٦ ؛ فأمر بعودة الرسالة الى مصر . وكان على علىّ دين لبعض الافرنج، نحو الستمائة فرنك؛ وكانت الأوامر المقررة أن لا يسافر أحد إلا بعد وفاء دينه؛ وأن من يأتى الى مصر مدينا يوضع فى الليمان .

فوقع فى أمر خطير، و بقى متحيرا ؛ وطلب من رفقته أن يسلفوه . فقالوا : « ما عندنا ما نسلفك إياه » ، وعلىّ يعلم تيسر بعضهم واقتدارهم . فقعد فى محل إقامته يفكر فيما يصنع ، واذا بصاحب له من الافرنج دخل عليه يدعوه للأكل عنده ، حيث إنه مسافر . فوجد حاله غير ما يعهد . فسأله . فأخبره . فقال : « لا تحزن . قل ياسيد يا بدوى ، يا من تجيب الأسير، خلصنى مما أنا فيه ! » . فقال له : «ليس الوقت وقت هزل ! » . فقال : «هذا أمر هين لا يهمك ! » . ثم ذهب؛ فغاب قليلا ، ورجع اليه بكيس رماه أمامه؛ فاذا فيه قدر الدين مرتين ، وقال له : « بعد استقرارك بمصر ، وتيسر أمرك ترسل الىّ وفاءه ! » . ولم يأخذ منه سندا بوصول المبلغ . وقال : «أنا أكتفى بالقول منك» ، وقد كان . فان عليا أرسل اليه المال على يد قنصل فرنسا بعد مدّة .

ولما جاء الى مصر ، مكث هو ورفاقه جملة أيام لا يدرون ما يفعل بهم . ثم عين صاحب الترجمة خوجة بمدرسة طره ؛ ولم يكن عنده فى فرقته ، بعد فرز تلامذة المدارس ، وتشكيل مدرسة المفروزة ، سوى تلميذ واحد متقدّم فى السنّ . ومع ذلك اشتغل بما نيط به باخلاص .

وفى تلك المدّة ، تأهل بكريمة معلمه فى الرسم ، بمدرسة أبى زعبل — وكان أبوها قد مات ، وصارت الى حالة فقر . فتزوّج بها لما كان لوالدها عليه من حق التربية والمعروف .

ثم اصطحبه سليمان باشا فى مأمورية استكشاف البحيرة والسواحل . فلما كانوا بدمياط ، انفصل علىّ عنه فى جهة من المأمورية ؛ وبعـد أن أدّاها ، ذهب الى برنبال — وكان أهله قد عادوا اليها — فوجد أن أباه سافر الى مصر لزيارته ؛ ولم يجد فى المنزل إلا والدته وبعض إخوته .

وكان دخوله عليهم ليلا . فطرق الباب؛ فقيل : « من أنت ؟ » فقال : «ابنكم على مبارك ! » وكانت مدّة مفارقته لأمه ١٤ سنة ، لم تره فيها ، ولا سمعت صوته . فقامت مدهوشة الى ما وراء الباب وجعلت تنظر وتحدّ النظر — وكان ابنها بقيافة العسكرية الفرنساوية لابسا سـيفا وكسوة تشريف — وكررت السؤال حتى علمت صدقه . ففتحت الباب وعانقته ، ووقعت مغشيا عليها . ثم أفاقت ، وجعلت تبكى وتضحك وتزغرد . وجاء أهل البيت والأقارب والجـيران ، وامتلأ المنزل ناسا ؛ وبقوا كذلك الى الصباح . فأقام عندهم يومين .

ثم عاد الى دمياط ، وأورد نتيجة استكشافه على سليمان باشا ؛ فوقعت عنده موقع الاستحسان ؛ وأخبره أنه استحصل على أمر من (عباس) بالحاقه بمعية جاليس بك .

فقبل علىّ يده ؛ وسافر الى الاسكندرية من مصر بعياله وأخ وأخت له صغيرين أخذهما معه ليربيهما . فلما وصل تركهم فى المركب ، وذهب الى جاليس بك ؛ وبينما فنجان القهوة بيده ، اذا بمكتوب وارد ، بالاشارة من (عباس) ، يطلبه حالا فى وابور متهيئ للقيام . فداخله ما لا مزيد عليه من الخوف ، لمـا كان يعلم ممـا كان يقع لمن يلوذ بالعائلة الخديوية من الايذاء ، وكان له اجتماعات بالأمير (اسماعيل) وغيره منهم . فهوّن عليه سليمان باشا — وكان قد سبقه الى الاسكندرية — وسكن قلبه على عياله بأن وعده بارسالهم الى مصر . فسافر بدون أن يراهم ، وهو بين راغب وراهب .

ولما مثل بين يدى (عباس) قال له : «ان أحمد رأفت باشا — أخا (اسماعيل)، ورفيق صاحب الترجمة فى التلمذة — قد أثنى عليك . فقد جعلتك فى معيتى . وقد أمرت بامتحان مهندسى الأرياف ومعلمى المدارس ؛ لأن الكثير منهم ليسوا على شئ، وجعلتك من أرباب الامتحان . فلا تتكلم إلا بالصدق، ولو على نفسك . فلئن كذبت فى شئ، سلبت نعمتك، وأعدتك فلاحا ! » .

ثم حلفه، هو وغيره، على ذلك . فحلف . فأنعم عليه برتبة صاغقولاغاسى، وأعطاه نيشان الرتبة، وكان عبارة عن نصف هلال من الفضة ونجمة من الذهب، فيها ثلاثة أحجار من الماس . فاشتغل بما نيط به على وجه أتم . ثم عهدت اليه أعمال أخرى، أهمها هندسية مائية . فقام بها خير قيام . فألحق بموچيل بك — وكان مشتغلا فى تتميم القناطر الخيرية — فساعده خير مساعدة .

ثم أحال (عباس) عليه النظر فى ترتيب للمدارس الملكية، والرصدخانة، وضعه لمبير بك ولم يستحسنه هو . فعمل صاحب الترجمة، لجميع المدارس، ترتيبا جعل أساسه احتياجات القطر لا غير. فأعجب (عباس) به . وبعد أن أقره مجلس معقود من جميع رؤساء الدواوين ، أحال نظارة المدارس على بطلنا ؛ وأعطاه رتبة أميرالاى ونيشانها مكافأة له . وصارت له عنده منزلة رفيعة .

وكان، فى مدّة نظارته، يباشر تأليف كتب المدارس بنفسه مع بعض المعلمين؛ وجعل بها مطبعة حروف ومطبعة حجر، مع التفاته الى مأكل التلامذة ومشربهم وملبسهم وتعليمهم وغير ذلك بنفسه . فامتنعت عن التلامذة مضار عمومية ومفاسد كثيرة، وانقطع الشتم والسفه ؛ وكاد يمتنع الضرب والسجن . ولم يكتف بذلك .

بل رتب على نفســه دروسا كان يلقيها على التلامذة ، كالطبيعة والعمارة . وألف ، فى العمارة ، كتابا بقى متبعا فى التعليم مدّة .

ولمــا تولى (ســعيد) ، تعين صاحب الترجمة للسفر مع العساكر لمحاربة الروس فى ســنة ١٢٧٠ ؛ فخرج جميع التلامذة ، كبيرهم وصغيرهم ، ووقفوا بساحل النيل أمام السفينة التى نزل فيها للسفر الى الاسكندرية ، وجعلوا يبكون وينتحبون ، حتى أبكوه .

ثم سافر بمعية أحمد المناكلى باشا ، ولبث غائبا سنتين ونصفا ، قاسى فيهما مشاق الأسفار ، وما يلحق المجاهدين من الارجاف والاضطرابات ، والحرمان من المألوفات ؛ ورأى بلادا وعوائد كان يجهلها ، واكتسب فيهما معرفة اللغة التركية — لأنه أقام بالأســتانة العلية أربعة أشهر اشــتغل فيها بتعلم تلك اللغــة — وأقام عشرة شهور فى بلاد القريم ، وثمانيــة شهور فى مدينة كموشخانة ببلاد الأناضول — وهى مدينة عامرة على رأس جبل ، مشهورة بمعدن الفضة الذى فيها — وكان منوطا به تسهيل سوق العساكر فى مدينة ترابزون الى مدينة أرضروم . فقاسى شدائد مهمة ، وأهوالا مدلهمة ، بسبب البرد ، والثلج الكثير ، ووعورة المسالك . ولكنه قام بمهمته خير قيام ؛ وشهد له بذلك قاضى البلد وأمراؤها وأعيانها .

وكان قد تزوّج قــبل سفره هــذا ، وبعد موت زوجته الأولى ، بقريبة لأحمد طوبسقال باشا وكانت ذات مال وعقار ، ويتيمة غرة ، لا تحسن التصرف ، ولا تميز الدرهم من الدينار ؛ وكانت أمها تزوجت برجل يعرف براغب افندى ، وماتت عنده . فتزوّج بامرأة أخرى تسيطرت على البنت كل التسيطر .

فلما دخل بها على مبارك بك، خافت المرأة أن يطمع فى أموالها ؛ فأساءت معاملته وتوسطت بجلي الجلشني افنـدى الى والدة (عباس) . فرمى فيه عنـد حسن المناسترلى باشا؛ وأغرى به أغوات السراى؛ وأتعبه تعبا عائليا وماليا لامزيد عليـه، لم يفرغ منه إلا بتركه تلك الزوجة ، والجوارى التابعات لها ، مع أنه انمـا اشتراهنّ بمـاله .

فلما عاد من ذلك السفر الطويل ، رفت من وظيفته ، وسـكن فى بيت حقير بالأجرة مع أخ له كان تركه فى المدارس عنـد السفر، مع ابن أخ آخر ليتربيا فيها . فطردا منها بعد سفره . ولم يعطف عليهما أحد ممن كان يساعدهم فى مدّة نظارته ؛ ولم يشفق عليهما إلا سليمان باشا الفرنساوى . فانه أدخلهما فى مكتب كان أنشأه بمصر العتيقة .

فكانت حالة صاحب الترجمة، بعد سبع سنين مضت من عوده من بلاد أوروبا، كحاله عند عوده منها ؛ وذهب مارآه من الأموال والمناصب والوظائف، وجميع ماكسبت يداه، كأنه حلم .

فرغب عن خدمة الحكومـة ، وعزم على الرجوع الى بلده ، والإقامة بالريف ، والاشتغال بالزرع، والتعيش من جانبه .

وبينما هو يتجهز للسفر الى البلد، صدر الأمر بأن جميع الضباط المرفوتين يحضرون بالقلعة للفرز . فحضروا . وكان المنوط بالفرز أدهم باشا، وكان يعرف عليا .

فأدخله ضمن المختارين للخدمة. فتعطل عن السفر، وبعد قليل تعين معاونا بديوان الجهادية ؛ وأحيل عليـه النظر فى القضايا المتأخرة ، المتعلقة بالورش والجبخانات

وغيرها . ثم ألحق بمستودعى الداخلية ، وكان يحال عليه بعض القضايا . ثم دعى الى وكالة مجلس التجار . فأقام فيه شهرين . وكان سلفه فيه أرمنيا . فأغضبه تعيين علىّ فى هذه الوظيفة ورمى فى علىّ عند (سعيد) بما رمى ، حتى جعل (سعيدا) يغضب على علىّ ويبعده عن تلك الوظيفة .

فأقام فى بيته نحو ثلاثة أشهر ، ثم تعين مفتش هندسة نصف الوجه القبلى . فأقام فيه نحو شهرين ، دعاه بعدهما (سعيد باشا) لعمل رسم لاستحكامات أبى حماد .

ولما تم الرسم ، ذهب اليه ليعرضه عليه ، فلم يتمكن من مقابلته ، لا فى طرا ولا فى قصر النيل ، ولا بعد أن عاد من الاسكندرية ، بالرغم من أنه لزم معيته ، مدّة ثلاثة أشهر وهو بلا ماهية ولا شغل ، مع كثرة التنقلات من بلد الى آخر ، حتى كان ذات يوم فى الجيزة ، فوقع نظر الأمير عليه ، فناداه وكلمه ، وسأله عما صنع فى الرسم . فقدّمه له . فنظر فيه قليلا ، ثم قال : « أبقه حتى نجد وقتا لإمعان النظر فيه ! » ثم لم يلتفت اليه بعد ذلك .

ولكنه ربط لعلىّ ماهية ، وأبقاه فى معيته زمنا بلا شغل ، الى أن كانت المعية يوما بمريوط ، فطلب علىّ الى أدهم باشا تعيينه معلما للضباط ، وصف الضباط الذين كان قد صدر له الأمر بترتيب معلمين لتعليمهم القراءة والكتابة والحساب . فعينه . فكان يكتب لهم حروف الهجاء بيده . ولعدم ثبات تلامذته فى مكان واحد ، كان يذهب اليهم فى خيامهم ، وتارة يكون التعليم بتخطيط الحروف على الأرض ، وتارة بالفحم على بلاط المحلات . واستعمل لهم ، فى تعليم مهمات القواعد الهندسية اللازمة للعساكر ، الحبل والعصا ، لا غير .

وكان فى أوقات الفراغ يشغل الزمن بالمطالعة ، ويكتب تعليقات يستحسنها فى ورقات جمعها بعد ذلك ، فصارت كتابا مفيدا فى فنون شتى مما يحتاج اليه المهندسون .

ثم لما رام (سعيد باشا) التوجه الى بلاد أوروبا ، أمر برفت غالب من كان فى معيته ؛ فكان علىّ من جملة المرفوتين .

وكان قبل ذلك تزوج ، واشترى بيتا بدرب الجماميز ، وشرع فى بنائه وتعميره . فكثر عليه المصرف ولحقه الدين ، حتى ضاق ذرعه ، وتشوّش طبعه .

وكان يومئذ قد صدر الأمر ببيع بعض أشياء من ممتلكات الحكومة ، زائدة عن الحاجة من عقارات وغيرها . وكان المأمور بذلك اسماعيل باشا الفريق . فاستصحب عليا معه الى محلات المبيع .

فلما حضر المزادات ، ورأى الأشياء تباع بأبخس الأثمان ، على نفاستها ، وغلو ثمنها الأصلى ، وانها ، علاوة على ذلك ، لا تباع بالنقد الحال ، بل تؤجل الأثمان ، بالآجال البعيدة ، وبعضها بأوراق الماهيات ، ونحو ذلك من أنواع التسهيل على المشترى ، مالت نفسه للشراء والدخول فى التجارة ؛ ففعل .

وعامل التجار ، وعرفهم وعرفوه ، وكثر منه الشراء والبيع . فربح واستعان بذلك على المصرف وأداء بعض الحقوق . فازدادت عنده دواعى التجارة ، وصارت هذه مطمح نظره . وقصر عليها فكرته ، خصوصا بسبب ما تقرر عنده من اضطراب الأحوال وتقلبات الأمور التى كادت أن تذهب منه ثمرات المعارف والأسفار .

فقام بخاطره أن يعقد شركة مع بعض المهندسين المتقاعدين ، مثله ، على أن يبنوا بيوتا للبيع والتجارة . فلم يوافقه أحد .

فلمـا همّ بذلك ، طرق (سعيدا) طارق المنون ؛ وخلفه (اسماعيل) . فتـذكر عليا رفيقه فى التلمذة ، وبعد العودة الى الديار ؛ فألحقه بمعيته زمنا ، ثم عينه لنظارة القناطر الخيرية التى كانت موضع اهتمامه الفائق . فأصلح ما كان قد اختل من أمورها .

ولما حفر رياح المنوفية ، أحيل عليه عمل قناطره ومبانيه ؛ فأجراها على ما هى عليه الآن .

وفى سنة ١٢٨٢ اختاره (اسماعيل) للنيابة عن الحكومة المصرية فى المجلس الذى تشكل لتقدير الأراضى التى كانت حق شركة ترعة السويس ، على مقتضى القرار المحكوم به من قبل الامبراطور نابوليون . فأتم المسألة على أحسن حال ؛ وأحسن اليه بعد إتمامها برتبة المتمايز ؛ وأعطى النيشان المجيدى من الدرجة الثالثة ؛ وبعث اليه من قبل الدولة الفرنساوية بنيشان (أوفيسييه دى لاچيون دونور) .

وفى شهر جمادى الآخرة من سنة ١٢٨٤ أحيلت اليه وكالة ديوان المدارس تحت رياسة شريف باشا ، مع بقاء نظارة القناطر الخيرية . وبعد قليل انتدبه (اسماعيل) للسفر الى باريس فى مسألة تخص المالية . فكانت مدة غيابه ذهابا وإيابا واقامة خمسة وأربعين يوما ، استفاد فيها فوائد علمية جمة . وبعد قليل من عودته ، أحسن اليه فى سنة ١٢٨٥ برتبة ميرميران ؛ وأحيلت الى عهدته إدارة السكك الحديدية المصرية ، وادارة ديوان المدارس ، وادارة ديوان الأشغال العمومية ؛ وفى شهر شوّال من تلك السنة انضم الى ذلك نظارة عموم الأوقاف مع بقائه على نظارة القناطر الخيرية ، والتحاقه برجال المعية .

فشمر عن ساعد جدّه في مباشرة تلك المصالح؛ ولسبب اتساع ديوان السكة الحديدية، وكثرة أشغاله، كان يذهب اليه من بعد الظهر الى الغروب، للنظر فيما يتعلق به؛ وجعل من الصبح الى الظهر لباقي المصالح.

وكان قد تحصل على الاذن بنقل المدارس من العباسية الى القاهرة، الى سراى الأمير مصطفى فاضل، بدرب الجماميز، رفقا بالتلامذة وأهلهم، لما كان يلحقهم في الذهاب الى العباسية من المشاق والمصرف الزائد. فأجرى في السراى تصليحات لازمة للمصالح، وجعل السلاملك للديوان؛ ووضع كل مدرسة في جهة؛ وجعل بها أيضا ديوان الأوقاف وديوان الأشغال. فسهل عليه القيام بها.

وكانت كثرة أشغاله لا تشغله عن الالتفات الى ما يتعلق بأحوال التلامذة والمعلمين. فكان كل يوم يدخل عليهم بكرة وعشيا، عند غدوه من البيت ورواحه؛ وأعمل فكره فيما يحصل به نشر المعارف وحسن التربية؛ فحرّر اللائحة التى ذكرناها في حينه؛ وأنشأ المدارس المركزية والمدارس الابتدائية المثلى، المتقدّم بيانها؛ وأجرى الاصلاحات اللازمة في المكاتب القديمة، فغير بعض مبانيها وأوضاعها الأصلية، ورتب لها النظار والمعلمين وأدوات التعليم ونحو ذلك؛ وجعل المصاريف اللازمة للمدارس والمكاتب جارية على وجه يستوجب انتظامها، مع خفة المصرف على الديوان.

ثم لأجل تسهيل التعليم على المعلمين والمتعلمين، وصون ما تعلموه من الذهاب، جعل بالمدارس مطبعة حروف ومطبعة حجر لطبع كل ما يلزم من الكتب وأمشق الخط والرسم وغير ذلك.

واعتنى بأمر تخريج المعلمين الأكفاء. فأنشأ مدرسة دار العلوم؛ ورتب كيفية تدريب نجباء التلامذة الذين أتموا دروس المدارس العالية على التعليم؛ وأنشأ دار الكتب

الجامعة، ومحلا للا لات الطبيعية وغيرها من آلات العلوم الرياضية اللازمة للمدارس . فتمكن التلامذة، بمعاينتها والتمرّن عليها، من اجتلاء المعقول فى صورة المحسوس .

والتفت لجميع الأوقاف من التكايا والمساجد وغيرها، لا سيما ما كان منها بالأقاليم، بالاصلاح والتجديد . فحفظها وصانها . وأبطل عادة التعمير على طرف الديوان، وجعله يعطى بالمقاولة للمقاولين، بعد النظر فيه من مأمورى الأثمان، وباشمهندس الديوان، وعمل الرسم اللازم، وتقدير النفقة الواجبة؛ ثم قسم أراضى الوقف الواسعة الخربة، كالتى كانت فى جهة السيدة زينب وخلافها، على الراغبين يبنون فيها منازل وحوانيت بحكر سنوى يقرّر عليهم، ويدفعون مقدار عشر سنين مقدّما بصفة تبرع . فكان ذلك سببا لعمارة أحياء كثيرة تجلب ريعا للوقف، استعين به على التنظيم الجارى فى المدن لتوسعة الشوارع والحارات وتقويمها .

ومما يجدر بالالتفات اليه أن عموم التحسينات والعمارات والانشاءات العمرانية التى أجريت فى القطر فى عهد (اسماعيل) إنما أجريت وعلى مبارك باشا ناظر على ديوان الأشغال العمومية . فكان، والحالة هذه، مشغولا بالمصالح الأميرية وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهارا، حتى لم ير وقتا يلتفت فيه لأحواله الخاصــة به، ولا يدخل بيته إلا ليلا؛ بل وكان يفكر فى الليل فيما يفعل بالنهار، لا سيما بعد أن تمت أعمال ترعة السويس، وصمم الخديو على عمل مهرجان يدعو اليه ملوك أوروبا وسلاطينها .

فكان مع النظر فى أحوال الدواوين المسلمة إدارتها الى عهدته، مشغول الفكر، دائم النظر فى مصالح أولئك المدعوّين، الى أن انقضى جميع ذلك على أحسن حال .

فانهالت عليه النياشين والأوسمة تترى، من كل دولة على السواء .

وقد بقيت تلك المصالح تحت يده الى رمضان سنة ١٢٨٨ ؛ ثم انفصل عن ديوان السكة ؛ ثم عن المدارس والأشغال بعد أيام قلائل ؛ ثم عن الأوقاف بعد مضى قليل من شوال من تلك السنة ، بدسيسة من اسماعيل صدّيق باشا ، لخلاف وقع بينهما على إدارة السكة الحديد .

ولكنه لم يقم فى بيته إلا نحو شهرين . ثم جعل ناظرا على ديوان المكاتب الأهلية ، وأمر بتنظيمه . وفى سنة ١٢٨٩ أحيل عليه نظر الأوقاف ثانيا ؛ وبعد قليل أحيل عليه نظر ديوان الأشغال ؛ ولم يمض إلا يسير حتى تحوّلت نظارة هذه الدواوين الى الأمير حسين كامل . فبقى على باشا بمعيته بصفة مستشار . وفى سنة ١٢٩٠ انفصل ديوان الأشغال بنفسه ، تحت رياسة الأمير المذكور ، وجعل على باشا وكيله . وفى شعبان من السنة عينها جعل عضوا فى المجلس المخصوص ؛ ولكنه انفصل عنه بعد قليل بسبب وشايات صدّيق وأضرابه .

فأقام فى بيته ، وماهيته جارية ، الى أن جعل فى سنة ١٢٩١ رئيس أشغال الهندسة بديوان الأشغال ، بعد أن ألحق هذا الديوان بديوان الجهادية تحت نظارة الأمير حسين كامل . وفى سنة ١٢٩٢ جعل مستشارا للأمير توفيق ، فى ديوان الأشغال عينه ، بعد إلحاقه بوزارة الداخلية ، فمستشارا فى الديوان عينه ، مستقلا ، للأمير ابراهيم بن أحمد .

ولما تألفت الوزارة النوبارية الأولى عيّن فيها على باشا على ديوانى الأوقاف والمعارف ، فصرف وسعه فى توسيع دائرة التعليم : فشرع فى بناء مدارس جديدة ، كمدرستى طنطا والمنصورة ؛ وفى تكثير عدد المكاتب ، وترتيب المدرّسين ، وما يلزم للتعليم من أدوات وكتب .

واعتنى كذلك بأمر الأوقاف ، اعتناء حكيما ، وبقى فى المنصب الى أن سقطت الوزارة النوبارية .

فلما شكل رياض باشا وزارته الأولى جعل ديوان الأشغال العمومية ديوانا مستقلا وعهد به الى على مبارك باشا . فقسم أعماله ثلاثة أقسام : التحريرات والمحاسـبة ، وعمل التصميمات لما يلزم تجديده من الأعمال ، ويتبعه فرقة مهندسين لعمل الرسومات ، والموازين وأعمال القاهرة ومدن القطر . وذلك غير الملحقات مثل قلم الزراعة ، وقلم المصلح ، ومصلحة الانجرارية ، وقلم القضاء .

وقسم مصلحة الهندسـة خمسة أقسام ، لكل قسم مفتش ؛ وجعل جميع أعمال الهندسـة تحت إدارة وكيل الديوان ؛ وقسم الأعمال على عدة سنين ؛ وأجراها بهمة فائقة ؛ وشرع فى بناء سلخانة القاهرة ، واسبتالية القصر العينى ومدرسـة الطب . واتفق مع شركة مياه القاهرة على توصيل المياه الى حلوان . ونظمت الحمامات التى بها ، وجعل لها طبيب ومأمور . وزيد فى القاهرة عدد فوانيس الغاز الخ الخ ، مما لا داعى لذ كره هنا ، لأنه عمل فى غير عهد (اسماعيل) .

وبقى على مبارك باشا ناظرا على الأوقاف فى وزارة شريف باشا سـنة ١٨٨٣ ، ولكنه تخلى عن المنصب فى وزارة نوبار الثانية . وعاد فعين ناظرا للمعارف فى وزارة رياض باشا الثانية فى يوليه سنة ١٨٨٨ . ففتحت فى مدته المدارس الأهلية الحاضرة فى المدن والأقاليم الخ .

وفى سنة ١٣١١ وسنة ١٨٩٣ — وكان قد تخلى عن منصبه بعد سقوط الوزارة — سافر الى بلده ، لتفقد حال زراعتـه واصلاحها ، وكانت قد بارت لانشغاله عنها

فى المصالح العامة ، فأدركه هناك مرض فى المثانة كان سببا فى عودته الى مصر فعولج فلم ينجع الدواء .

وأدركه الأجل بمصر فى منزله بالحلمية فى ١٤ نوفمبر سنة ١٨٩٣ ، فأمرت الحكومة بالاحتفال بجنازته أعظم احتفال ، وأقفلت عموم المدارس حدادا على أبيها . ثم جمع خريجو دار العلوم فيما بينهم ورسموا له صورة بالزيت على القماش ، وصنعوها فى مدرستهم باحتفال عظيم ، وفتحت لجنة فى العاصمة اكتتابا عموميا لاقامة أثر تاريخى له . وقد أطلقت وزارة الأشغال اسمه على أحد الشوارع الفسيحة فى القاهرة بجهة الحلميه الجديدة .

أما صفاته وأخلاقه ، فقد تبينتها ، أيها القارئ اللبيب ، من خلال سطور ترجمته .

مصطفى رياض باشا

وأما رياض باشا[1] — وقد قال المقتطف عنه إنه ابن ناظر الضربخانة المصرية ؛ وذهب آخرون الى أنه يهودى أزميرى من أسرة معروفة يقال لها أسرة الوزان — فقد ولد فى سنة ١٢٥٠ هجرية ودخل فى خدمة الحكومة المصرية بوظيفة مبيض فى مجلس العموم بديوان المالية فى ١١ صفر سنة ١٢٦٤ ، بماهية قدرها ١٤٥ قرشا صحيحا . ولاحت عليه مخائل النجابة وملامح الاستعداد ؛ فارتفعت ماهيته بعد ستة شهور الى ١٩٣ قرشا صحيحا و١٣ بارة . وكانت هذه الزيادة فى نظير تكليفه بعمل آخر وهو قيد الخلاصات .

---

(١) مأخوذ عن المقتطف الصادر فى شهر أغسطس ١٩١١ والخطبة التأبينية التى ألقاها صاحب السعادة أحمد زكى باشا فى السنة عينها فى احتفال الأربعين ، وعن "خديويون وباشاوات" لموبرلى بل ، وعن المقارنة بين رياض ونوبار فى " انجلترا بمصر" للورد ملنر ، وعن الفصل الثالث والأربعين من "مصر الحديثة" للورد كرومر .

ثم ألغى ذلك المجلس فى ١٠ ربيع الأوّل سـنة ١٢٦٥ ؛ ولكن رياض توصل بعد شهرين ونصف للدخول فى المعية السنية للتبييض والقيد بماهيته عينها .
وفى سنة ١٢٦٦ انتظم فى سلك عساكر الموسيقى برتبة ملازم . فقام بهذه الخدمة الجديدة خير قيام، جعله أهلا لنيل رتبة اليوزباشى بعد شهرين اثنين . ثم ارتقى الى رتبة الصاغقولاغاسى ؛ ثم الى رتبة البكباشى فى بحر سنتين . كل ذلك فى خدمة الموسيقى العسكرية .

فلما كانت سنة ١٢٦٨، انتظم فى سلك رجال المعية السنية برتبة القائمقام، بصفة ياور بمعية (عباس الأول) . وهنالك ارتقى فى ٥ صفر سنة ١٢٦٩ الى رتبة الميرالاى، ووظيفة مهردار لوالى مصر المشار اليه .

ثم وجد (عباس) فيه من دلائل الحزم ما يخوّله ادارة الأهالى . فأسند اليه مديرية الجيزة وأطفيح، وليس له من العمر إلا عشرون سـنة قمرية — وقد حمل هـذا بعض حساده وأعدائه على نسبة تقدّمه السريع وحظوته فى عينى (عباس) الى تدنيه لأمور يلحق العار بمرتكبيها .

وبعد سنتين، انتقل مأمورا لادارة الفيوم ومديرية بنى سويف ؛ ثم مديرا لقنا بماهية قدرها خمسون جنيها فى الشهر؛ وعاد بعد ذلك الى العاصمة، حيث أسندت اليه وكالة المرور والسكة، بمصلحة السكة الحديد . ثم تحرّك منها سـنة ١٢٧٤ بصفة مأمور لادارة نصف أوّل روضة البحرين — وهى اليوم عبارة عن مديريتى المنوفية والغربية — والنصف الأوّل المذكور كان فى اصطلاح ذلك الوقت عبارة عما نسميه الآن بمديرية المنوفية .

ثم جعل وكيلا لهذه المديرية، وبلغت ماهيته خمسة وسبعين جنيها . فبقى فى هذه الوظيفة لغاية ٤ جمادى الثانية سنة ١٢٧٧ ؛ وحينئذ قلب له الدهر ظهر المجن . فقد صدرت فى ذلك اليوم ارادة سنية فصلته عن الخدمة، ورمته بالإهمال .

ولكن مدّة الغضب لم تطل عليه، فقد حظى بالرضى ثانية بعد أشهر قليلة، وعينه (سعيد) "لخدمة الكتّابة" فى معيته، بإذن تاريخه أول ذى القعدة سنة ١٢٧٧ وفى سنة ١٢٧٩ أنعم عليه برتبة الميرميران، وجعل ماهيته مائة جنيه مصرى فى الشهر . وكان لا يزال دون الثلاثين .

فلما كانت سنة ١٢٨١، صدر الأمر العالى بتعيينه عضوا فى مجلس الأحكام — وكان يماثل ما نسميه الآن بمحكمة النقض والابرام — ثم أحيلت الى عهدته نظارة "أمور خاصة خديوى" ؛ وانتقل الى وظيفة مهردار ؛ حتى كان ١١ شوال سنة ١٢٨٤، فغضب عليه (اسماعيل)، وأصدر للمالية ارادة سنية مختصرة باللغة التركية، هذه ترجمتها : « بحسب الايجاب قد صار رفت رياض مهردارنا سابقا من معيتنا . فلأجل ايجاب اجراء ذلك بالمالية لزم الإشعار » .

غير أن (اسماعيل) نفسه ما لبث إلا وأعاد نعمته اليه، وأسند له فى معيته وظيفة كانت تسمى "خزينة دار" سنة ١٢٨٦ ولكن ماهيته نزلت الى ستين جنيها .

وفى سنة ١٢٨٧ نال رتبة "الروم ايلى بكلربكى" وزادت ماهيته الى خمسة وسبعين جنيها — وهو مرتب الرتبة المذكورة — وأرسله (اسماعيل)، فى مهمة سياسية تتعلق بالاصلاح القضائى، الى مقرّ السلطنة العثمانية فى الأستانة .

فلما عاد منها، صدر الأمر العالى بتعيينه مستشارا لرياسة المجلس المخصوص — وهو الذى خلفه بجلس النظار فى النظام الحديث للحكومة المصرية — وصار مرتبه

مائة وخمسة وعشرين جنيها ؛ ومن هــذه الوظيفة ارتقى الى وظيفة مدير المدارس والأوقاف ســنة ١٢٩٠ ؛ وانضمت اليه وظيفة مستشار الداخلية ، ورياسة المجلس الحسبي أيضا فى السنة التالية ؛ ثم صار ناظرا للخارجية ، فالزراعة ، فالحقانية (وأضيفت من ذلك العهد على ماهيته مصاريف الضيافات والجمعيات ، وقدرها مائة وخمسة وعشرون جنيها فى الشهر ، فبلغ مجموع ما يتناوله مائتين وخمسين جنيها فى الشهر) ، فالمدارس ، فالتجارة ، والزراعة . وكانت هــذه الدواوين تابعة للمعية مباشرة : فان ادارة الحكومة فى مصر كانت فى ذلك العهد منوطه بالخديو رأسا ، وانما يعاونه جماعة من أرباب المناصب العاليــة يضعهم هو على رءوس الدواوين ، ومرجع كل واحد منهم اليــه مباشرة ، وبصفة فردية ، أى بغير اجتماع وبلا تضامن . وعنــد حلول الخطوب ، كان الخديو يستشير هيئة تتألف من أولئك الرؤساء ، ورؤساء بعض المصالح الكبيرة ، ومن بعض أعضاء آخرين ، يكونون بمثابة وزراء بلا مساند ؛ وتدعى تلك الهيئة "المجلس الخصوصي" .

وقد كان أعضاء هذا المجلس فى سنة ١٨٧٦ الرجال الآتية أسماؤهم :

اسماعيل صديق ناظر المــالية ؛ مصطفى رياض ناظر الحقانية والخارجية ؛ اسماعيل أيوب ناظر التجارة والزراعة ؛ محمد ثابت رئيس مجلس الأحكام ؛ عبــد الله عزت رئيس شورى النوّاب وسردار عسكرية ؛ أحمد رشــيد رئيس مجلس حسبي مصر ؛ عمر لطفى محافظ مصر ؛ حسن راسم محافظ الاسكندرية ؛ محمد توفيق (ولى العهد) ناظر الداخلية ؛ حسين كامل (السلطان) ناظر الجهادية والبحرية ؛ على ابراهيم ناظر الأشغال ؛ منصور يحيي يكن ناظر المعارف والأوقاف ؛ على مبارك مستشار الأشغال ؛ وچاهين كنج ، وعبداللطيف ، وجعفر صادق ، والسيد أبو بكر راتب أعضاء بلا مسند .

ولما تألفت الوزارة النوبارية المسئولة سنة ١٨٧٨، عهد بوزارة الداخلية اليه؛ ثم أراد (اسماعيل) فى أوائل سنة ١٨٧٩ أن ينقله الى الخارجية، ولكن الحكومتين الفرنساوية والانجليزية قاومتاه، وأبى رياض عينه موافقته على النقل . وكان قد اشتهر بثبات عزمه وبشجاعته الأدبية فى منصب نائب رئيس لجنة التحقيق المعينة فى سنه ١٨٧٨ لتنظر فى أمر المالية المصرية .

ولما سقطت الوزارة النوبارية سافر رياض باشا الى أوروبا، وأقام فيها حتى تولى الخديو (محمد توفيق). فاستدعاه وطلب منه تشكيل وزارة جديدة عقب استقالة الوزارة الشريفية (٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩) . فكانت تلك أوّل مرة تقلد فيها رياض رياسة الوزارة؛ ولبث على دستها الى أن جرفته الثورة العرابية .

وتقلد وزارة الداخلية فى الوزارة الشريفية الثانية؛ ولكنه لم يقم فيها إلا شهرين؛ لأنه كان يرى وجوب معاقبة العصاة، معاقبة شديدة، بلا شفقة ولا رحمة؛ ولم يطاوع على رأيه .

وبقى معتزلا أشغال الحكومة الى أن فوّض اليه الخديو (توفيق) تأليف الوزارة سنة ١٨٨٨؛ فلبى الطلب وتقلد، علاوة على رياسة مجلس النظار، زمام وزارة الداخلية . ولكن تمسكه الشديد برأيه اضطره الى الاستعفاء بعد مرور سنتين . فاعتزل الأعمال ثانية فى مايو سنة ١٨٩١

ثم إستدعاه (عباس الثانى) لتأليف وزارة بعد صرف وزارة فخرى باشا . فألفها وبقى على رياستها وفى منصة الداخلية الى أن كانت حادثة الحدود الشهيرة — وهى التي انتقد فيها (عباس) نظام الجيش المصرى انتقادا رأى كتشنر باشا، السردار

إذ ذاك ، نفسه مضطرا معه الى الاستعفاء من منصبه . فأبى اللورد كرومر أن يوافقه على رأيه ؛ وألزم الخديو ، بواسطة رياض ، بنشر ثناء على الجيش وسرداره فى "الوقائع الرسمية" اعتبر بمثابة اعتذار عن الانتقاد الذى كان بدا منه .

فاستقال رياض ، وما فتئ ملازما العزلة السياسية ، حتى كانت حفلة وضع الحجر الأول لمدرسة محمد على الصناعية سنة ١٩٠٦ بالاسكندرية . فألقى رياض فيها خطبة — بصفته رئيس شرف جمعية العروة الوثقى — امتدح فيها اللورد كرومر فى حضرة الخديو (عباس الثانى) .

فنفر الخديو منه ؛ وحملت الجرائد المحلية على الوزير الشيخ حملة شعواء .

ولكن منزلة رياض من النفوس لم تنحط ؛ واضطر الخديو نفسه الى الاشارة على عاقدى المؤتمر الاسلامى المصرى سنة ١٩١١ بانتخاب رياض باشا رئيسا له . فأدار اجتماعاته وجلساته بحكمة وروية ؛ ولكن المتاعب التى سببها له أودت بصحته — وقد كانت ضعيفة — فمات فى ١٨ يونيه سنة ١٩١١ وهو فى التاسعة والسبعين ، هلاليا ، والسابعة والسبعين ، شمسيا ، من عمره .

وقد كان قصير القامة ، نحيف الجسم ، تدل ملامحه ولهجته فى كلامه على أنه من أصل تركى ، لا من أصل مصرى ، ولو أنه تلقى مبادئ العربية والتركية فى بيت والده ، ثم فى مدرسة المفروزة . وكان مظهره مظهر يهودى شرقى ؛ محنى الكتفين ، ويكاد ابتسامه يكون اضطراريا .

وقد وصف رياض باشا كثيرون من الذين جعلوه موضوع كتاباتهم لا سيما موبرلى بل فى مؤلفه المدعو "خديويون وباشاوات لرجل يعرفهم معرفة جيدة" ؛ ولكنا نرى

أن خير وصف للرجل هو ما جاد به قلم اللورد ألفريد ملنر فى المقارنة التى أقامها بين نوبار و بينه، فى كتابه المعنون "انجلترا بمصر"، قال :

«انى لن أتوسع فى المباينات الساطعة البادية على طباع وطبائع هذين النديين الأبديين : فانها مافتئت منذ عشرين عاما موضوع وصف الكتاب الذين تكلموا عن السياسة المصرية . ولكنى لن أسمح أيضا لنفسى بالسكون الى الاعتقاد بأن لدى القراء من الالمام بالشؤون المصرية الحديثة ، وبما يختص بالشخصين الأكبر أهمية فى تاريخها المعاصر، مايكفيهم ليعرفوا أن نوبار أرمنى ؛ وأما رياض ، سواء أكان أم لم يكن من أصل يهودى ، فمسلم وأعرق الأتراك فى تركية خلقه وتربيته وميوله . أن الأول حرّ الفكر ومتكيفه بمقتضيات العصر ؛ وأما الثانى فمحافظ من أشدّ المحافظين على التقاليد القديمة . أن نوبار رجل ذو تربية غربية عالية، ومتملك ناصية اللغة الفرنساوية تمام التملك ؛ وأما رياض فشرقى محض، وقد تعلم الفرنساوية فى سن يتعذر معها عليه إمكان تكلمه بها بسهولة . أن بعضهم قد يشك فى شجاعة نوبار ؛ وأما شجاعة رياض فلا يشك أحد فيها . أن نوبار تتدفق عنه الأفكار العصرية على تنوعها وسموها ؛ وأما رياض فخزين الأفكار عنده محصور ، ومن نوع بات مزمنا متأخرا . أن نوبار ميال الى التعميم ولكنه قد يتعب ، ويضل اذا ما نزل الى دقائق الحكم ؛ وأما رياض فمتفوق فى معرفة الدقائق ، ويدرى على رءوس أصابعه ظواهر الادارة المصرية وخفاياها . أن نوبار نكتى ؛ تارة خفيف الروح وطورا لماز ؛ وأما رياض فلم ينفتق ذهنه مرة واحدة لنكتة أو لطيفة ؛ ولو أنه لا ينقصه فى لغته العربية شئ من الفصاحة الشرقية ، المنفوخة الأوداج ، التى تأخذ بمجامع قلوب مواطنيه . أن نوبار ، متى جرّ الى مضمار العمل الخيرى والبر الانسانى ،

لا ينظر الى النقود ولا يبالى بها ؛ وأما رياض فمقتصد حازم صارم ، لا يتأثر مطلقا بأى مؤثر عاطفى أوشعور انسانى : لا لأنه معدوم الشفقة بعامة الناس ، ولكن لأن الشفقة لديه تشبه ما كان يشعر به منها خير أصحاب الاقطاعات فى الأزمنة الوسطى نحو تابعيهم .

فالتباين بين الاثنين يفوق ، إذا ، ما اعتيد منه بين الأشخاص المختلفين ؛ وانك لتراه باديا فى مظهر الرجلين الطبيعى ، بدوه فى أخلاقهما وروحيهما : فنوبار جميل الطلعة والبزة ، حلو الشمائل ، عسلى اللسان ؛ وأما رياض فصغير ومخرنبق ، غضوب ، كسار ، وصوته ، لدى أقل تهيج ، يميل الى الصرير ؛ وهو ، فيما عدا بيته ، حيث يكون لطفه كاملا ، يتطرّف فى الغلظة الى حدّ السماجة ، ليس فقط فى معاملته لمرءوسيه ، بل فى معاملته لمساوييه فى الرتبة والمكانة ، ولو أنه شديد الميل الى مطالبة الكل باحترام شخصه احتراما لا يرى ذاته مستعدّا لمقابلة الغير بمثله .

ولكن اذا كان هذان الرجلان متباينين تمام المباينة من جهة طباعهما ، فان وجوه الشبه فى مجرى حياتيهما كثيرة وغريبة . كل منهما يكره الآخر ؛ ولكن التاريخ العادل يعترف ويذكر بأن كلا منهما ، فى سبيله ، خدم بلاده خدمات جليـلة : فكلاهما احتمل متاعب جمة فى أيام (اسماعيل) ، بسبب وقوفه موقفا غير متفق مع رغائب ولى النعم ؛ وكلاهما اجتهد ، ولو سدى ، فى إيقاف تيار الاستدانة الذاهب بالبـلاد الى الهـاوية . ولئن افتخر نوبار بمـا شاده للعدالة من قواعد ، فان رياضا يفتخر بمـا أبداه من شجاعة أدبية فى وقوفه فى وجه (اسماعيل) ، وتعضيده لرجال لجنـة التحقيق ، فى النزاع الذى دخلوا فيه ، لانقاذ المـالية المصرية . وقد بدا من كليهما ،

بعد الاحتلال الانجليزى ، وجوه تشابه تستوقف النظر : فكل منهما صدق على جهود انجلترا الاصلاحية ، واشترك مع الانجليز الى حدّ ما فى أعمالهم ، ولكن كلا منهما امتعض أيضا لما كانت توجبه الرقابة البريطانية من قيود على الأهواء الاستبدادية ، وانتهى الى رفض مساعدتها . ولقد كان أشهر من نار على علم أن رياضا ، قبل توزره ، كان يشكو مرّ الشكوى من عدم تداخل الانجليز فى الأمور تداخلا كافيا ليكفل تقويم معوجها ، وأنه لم يمض على استلامه زمام الحكم مدّة مديدة إلا وطفق يتذمر من أنهم يتداخلون أكثر مما يطاق .

هذا فيما يختص بأوجه الشبه . وأما أوجه عدم التشابه فلا بدّ من الاعتراف بأن رياضا قد لا يلتمس له العذر الذى يلتمس لنوبار على دخوله فى عراك مع الرقابة البريطانية . فان أحوال مصر ، حينما استلم نوبار دفة الادارة ، كانت فى فوضى نظام قلما يستطيع الانسان وصفها ، واستمر الانجليز مدّة يزيدونها تعقيدا بكيفية تضجر الرجل وتململه . ولقد اصطدمت ادارته ، دوما ، وفى كل شئ ، بامساك وزارة المالية ، واضطر الى تحمل مسئولية كل ما كان كريها فى سياسة كان هو أوّل الناقمين عليها من صميم فؤاده . نعم ان الحالة فى سنوات وزارته الأخيرة كانت قد تحسنت تحسنا بينا ، ولكن التقدّم — ولو أنه كان لا بدّ من الشعور بالاجراءات الصارمة اضطرارا ، التى كان من شأنها ضمانة حدوثه واستمراره — لم يكن قد ظهر بعد بكيفية عامة ترتاح اليها النفوس . وأما رياض فانه استلم أزمة الأحكام فى أحسن الأوقات وأطيبها تفاؤلا ، لا فى زمن أزمة وإحن ، بل فى ساعة تجدّد وإحياء . واستمر الجوّ صافيا زاهيا طوال مدّة ادارته : فكان من سعادة حظه أنه رأى الجيش المصرى ،

المحقر جدّا فى المـاضى ، يفوز على الدراويش ؛ وعبء الدين العمومى يخفف ؛ ومصر تحرّر تحريرا تاما والى الأبد من السخرة والعونة ؛ والضرائب العقارية تخفض الى أكثر من ثلاثين فى المـائة ، فى أشدّ الأقاليم فقرا ؛ وزيادة الايرادات على المصروفات تنمو سنة فسنة ، بالرغم من ذلك التخفيض ؛ ورأى كل هذا ينسب اليه ؛ ويرتفع عبير الثناء حول شخصه عليه .

فلو كان ذا طبع غير طبعه ، لكان جمع قلوب المصريين على حبـه ، أكثر من كل وزير سواه ؛ ولاستطاع البقاء على دفة الحكم بين تصفيق الجميع ، وهو متمتع بحرية عمل تكاد تكون تامة . ولكنه ما أقام على منصة الأحكام سنتين إلا وقد نفرت منه قلوب كل ذى حيثية فى القطر . ومع أن ادارته نجحت نجاحا غير منقطع ، فانه أصبح مكروها من الجمهور أكثر ممـا كره نوبار فى حياته ؛ وذلك لأن رياضا كان ذا كفاءة غريبة فى إثارة عداء الناس له حالمـا يتربع فى دست الوزارة . وانه لشئ عجيب فى الحقيقة أن يكون هذا الرجل على مثـل هذه القلة فى جدارته لاستلام زمام الحكم : فهو ما دام بعيدا عن كرسى الادارة وملازما الحياة الفردية الخاصة يرى عدد مريديه يزداد يوميا فى البلد؛ وذلك لأنه بصفته مسلما تقيا، يجمع على حبه كل ذوى النفوذ الدينى فى القطر ؛ وبصفته مزارعا وفلاحا عريقا فى شؤون الفلاحة ، وواقفا تمام الوقوف على حياة الشعب واحتياجاته وأفكاره يعرف كيف يهتم بمصالح مشايخ البـلاد ، وكيف يكتسب حبهم . ولكنه حالمـا يتربع فى الدست يصبح كالقنفذ ، كله شوك ؛ وعصبيا الى حدّ عدم استطاعة الصبر على ما فى الادارة من موجب للضجر والملل ؛ فلا يلبث أن يندفع مع تيار تحرّك وتقلب ، كتحرّك وتقلب

المصاب بحمى ؛ فينجرح شعوره لكل حيف ، ويصبح يرى فى النصائح ، حتى متى قدّمت له بغاية التأدّب والاحترام ، ضروبا من الاهانات والانتقاص» [١] .

على أننا نرى أن نضع ، إزاء ما جاء فى آخر وصف اللورد ملنر هذا لرياض ، ما قاله عنه صاحبا المقتطف ، بعد أن ذاق الرجل كأس المنون ؛ قالا :

« وقد تيسر لنا أن ندرس أخلاقه وصفاته وطباعه عن قرب ؛ وأن نمحص ما يقوله أنصاره فى مدح أعماله ، وخصومه فى ذمها ؛ ونعلم مقدار ما فى أقوال الفريقين من الصواب والخطأ .

فلا ريب عندنا أن الفقيد كان رجلا رفيع الآداب ، صادق الوطنية ، شديد الغيرة على مصر ، والرغبة فى إبلاغ أهلها أعلى غاية فى كل أمر حميد . ولا ريب أنه كان حسن المقاصد ، يحب الخير للناس ، ويحب خيار الناس ، وينفر من شرارهم نفورا ظاهرا لا يخفيه عنهم . وكان لشدّة غيرته على قومه يحسب نفسه مسئولا عن كل مصرى : فيدافع عنه دفاع الأب عن ابنه ، ويوبخه أيضا ، ويعنفه بكلام مؤلم اذا رأى منه ما لا يعجبه ؛ فلذلك كان بعض الذين يوبخهم من كبار الموظفين يخطئون الباعث الحقيقى له على ذلك ، فيستاؤون منه ؛ وربما حقدوا عليه ورموه بالكبر وحب الاستبداد ؛ وباتوا من خصومه والمتكلمين فى حقه .

ثم إنه كان ، اذا رأى السيئة ، يطلب ازالتها أو اصلاحها بأقرب الطرق التى يدله عليها ذكاؤه الفطرى والادارة التى ألفها واعتادها فى زمانه . فاذا وجد أمامه حوائل وعوائق نظامية ، عيل صبره عليها ، وأراد التخلص منها ، بما اتصف به من شدّة

---

(١) أنظر : "انجلترا فى القطر المصرى" للورد ملنر من ص ١٥٥ الى ١٥٩

العزيمة وقوة الارادة . وهــذا ما أوقع الخلاف بينه وبين رجال القانون فى الحقانية والمحاكم ، وجعل كثيرين من هؤلاء يرمونه بحب الاستبداد بالأمور وكراهتــه للنظامات الدستورية . وهذا ما أوقع الخلاف بينه و بين بعض الأورو بيين الموظفين فى الحكومة وخارجها ، وجعلهم يرون رأى رجال القانون فى أفعاله[1] » .

ولخص اللورد كرومر رأيه فى رياض باشا فى خطبته الوداعية ســنة ١٩٠٧ ، حيث قال بعد ذكره نو بار باشا :

« وأذكر أيضا اسم رجل آخر من أرباب السياسة ، وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا ، ألا إنه صديقى القــديم المؤتمن صاحب الدولة رياض باشا . اننا أيها السادة فى زمان لا يحتاج فيــه الشاب المصرى الذى يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر ، ولكن ما هو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان . كان (لاسماعيل) باشا ، رحمــه الله ، طرق عنيفة فى معاملة الذين لا يطأطئون الرءوس أمامه ، ولا يعنون لهيبته ؛ ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ثلاثين سنة واعترض بكل جرأة على سوء الادارة ، وأقام الحجة على فساد الأحكام ، الذى كان متغلبا على مصر فى تلك الأيام ، وعلق الجرس بعنق الهر ، فأعجبت بشجاعته هذه حينئذ . وكثيرا ما وقع بينى و بين صديقى و رصيفى القديم خلاف بعد ذلك ، ولكنى لم أكف قط عن النظر اليه بعين المحبة التى تستحقها صفاته العبقرية[2] » .

قال صاحبا المقتطف : « وحقيق بلورد كرومر أن يقول هــذا القول عن رياض باشا ، لأن رياض باشا كان يثق به ثقة لا يخامرها ريب . قال اللورد كرومر

(١) أنظر : "المقتطف" الصادر فى أغسطس سنة ١٩١١ ص١١٢

(٢) أنظر : "المقتطف" عينه ص١٠٧

فى كتابه "مصر الحديثة" ان شركة انجليزية تألفت لتشترى سكك الحديد من الحكومة المصرية فى وزارة رياض باشا الأولى . ولما عرض الأمر على النظار ، التفتوا الى لورد كرومر — وكان مراقبا من قبل انجلترا — ليروا ما هو رأيه فيه . فقال لهم : «ان الأمر فى يدكم أنتم . فاذا كنتم ترفضون البيع ، فأنا أوافقكم على الرفض ؛ واذا كنتم تقبلون به ، فأنا أبذل جهدى حتى لا تغبنوا فى الثمن» . فقرّ قرارهم على رفض البيع . وبعد أيام طلب منه أن يفض خلافا بين الحكومة المصرية والخواجات جرنفلد الذين أنشأوا مرفأ الاسكندرية ؛ وكان لا بد من أن يوقع رياض باشا شروط الحل التى وضعها لورد كرومر فأخذها ومضى بها اليه وهو لا يصدّق أنه يستطيع أن يوقعها فى ذلك اليوم إذ لا بد من النظر فيها . أما رياض باشا ، فقال له : «هل أنت موافق على هذه الشروط ومقتنع بعدالتها ؟» فقال : «نعم» . فأخذها منه ، ووقعها من غير أن يقرأها لشدّة ثقته به [1] .

ولما ألف لورد كرومر كتابه "مصر الحديثة" تكلم على رياض باشا باسهاب فقال : ان حياته السياسية يمكن أن تقسم الى أربع مدد مختلفة : (الأولى) كناظر وأحد أعضاء لجنة التحقيق فى عهد (اسماعيل باشا) ؛ و (الثانية) كرئيس للنظار فى عهد (توفيق باشا) ، مدّة المراقبة الانجليزية الفرنساوية ؛ و (الثالثة) كرئيس للنظار فى عهد (توفيق باشا) أيضا ، زمن الاحتلال ؛ و (الرابعة) كرئيس للنظار فى عهد (عباس الثانى) .

ففى المدّة الأولى ، ظهر بأعظم مظهر للعالم : فقد سخط مما حل بوطنه من الخراب الذى جره عليه حكم (اسماعيل باشا) ؛ ووقف نصيرا للاصلاح وقفة من لا يهاب أحدا فى سبيل الاصلاح ، أيام كان المصرى لا يجترئ أن يجاهر برأيه ما لم يعرض

(١) أنظر : "المقتطف" الصادر فى أغسطس سنة ١٩١١ ص ١٠٧ و ١٠٨ .

حياته للخطر وماله للضياع . ومهما كان الخطأ الذى يمكن أن يكون رياض باشا قد ارتكبه فى تقلبه فى الوظائف بعد ذلك ، فلا يبرح من الأذهان أنه أظهر حينئذ شجاعة عظيمة حقيقية ونظرا بعيدا فى العواقب .

وفى أوائل المدّة الثانيـة ، أى مدّة المراقبة الثنائية ، ظهر أيضا كما ظهر فى المدّة الأولى ؛ ورأى فائدة الذين كانوا يشتغلون معه من الأوروبيين ؛ لأنهم وقفوا بينه وبين أرباب الديون الذين كانوا كالدئاب الجائعـة . وكان يعلم من نفسه أنه غير قادر على تخليص الحالة المـالية من التشويش الذى كان فيها من غير مساعدة الأوروبيين . وفى أواخر تلك المدّة عرضت مشكلة لم يقو على حلها . ولم يكن قد انتبه الى أهميتها ، وهي الثورة العرابية . بجرفه سيلها الجارف .

وفى المدّة الثالثة ، خلف نوبار باشا رئيسا للنظار . وفى أوائل هذه المدّة جرت الأمور مجرى حسنا ؛ وهو يمتاز على نوبار باشا بحسن الادارة ، وبمعرفته الأمور الزراعية وأحوال المزارعين . والموظفون المصريون يهابونه هيبة شديدة ؛ ويسهل على المسلمين الخضوع للمسلم المتمسك بدينه . لكنه كان شديد التمسك برأيه ؛ فعسر عليه أن يدير دفة السياسة فى زمن الاحتلال واضطرّ الى الاستعفاء .

ولم يتكلم لورد كرومر عن المدّة الرابعة لأن كتابه لا يتناولها ؛ ثم ودّ لو يكثر فى مصر الوطنيون المتصفون بأسمى المناقب مثل رياض باشا[١] .

نقول : ومن يقرأ أقوال لورد كرومر يفتكر حالا فى مثلين عربيين وهما : "انما يحمد السوق من ربح" ؛ و "كل يغنى على ليلاه" .

(١) أنظر : "المقتطف" المتقدم ص ١٠٨

وقد افتتح زكى باشا ، سكرتير مجلس النظار فى ذلك الحين ، خطبته التأبينية لرياض باشا فى الحفلة التى أحياها ولدا الفقيد لمرور أربعين يوما على وفاته وختمها بالكلام الآتى :

«رجل كرياض — والرجال قليل — فى بلد كمصر، عهده بالحرية قريب؛

رجل كرياض، يفاخر به النيل — ويحق له الفخر — فى هذا العصر الجديد؛

رجل كرياض، نبغ فى عهد (اسماعيل) ، وامتاز فى ذلك الدور بالشكيمة والأثر الحميد؛

رجل كرياض ، خدم هذا الجيل الى أن دخل القبر، وهو قدوة الشبان والشيب؛

رجل مثل رياض، وأرجو أن يكون رياض مثالا لكل رجل؛

لا يكفينا أن نرى قومه وأهله يقيمون له حفلة تتلوها الأخرى، وتعززها الثالثة. بل ينبغى لهذه الأمة الناهضة أن يتضافر أفرادها على تخليد ذكراه ، ليكون موته له ولها حياة» .

على أن الأمة لم تنهض، ولا تضافر أفرادها على تخليد ذكراه .

وأما اسماعيل صديق باشا، فان القارئ سيتعرّف به معرفة تامة فى الجزء التالى .

الباب الخامس

العقبات التي اعترضت سبل نفاذ الخطة

إجمال

ومما زاد فى أهمية تمكن (اسماعيل) من تنفيذ معظم الخطة التى رسمها لنفسه أنه لم يجد السبيل الى ذلك سهلا . فعلاوة على الصعوبات السابق لنا بيانها، التى قامت تحول دونه ودون بلوغه مراميه — وكان لا بدّ فى طبيعة الأحوال البشرية من قيامها : فكان من الممكن إذًا توقعها، واتخاذ العدّة مقدّما للتغلب عليها — فقد اعترضت سبيله عقبات لم تكن فى الحسبان، فاجأه الدهر بها، فبلا مروءته وفضله، واضطرّه الى تحويل همته الشماء، دهرا، للتغلب عليها وازالتها، ثم لملافاة أضرارها .

تلك العقبات على نوعين : عقبات طبيعية ، وعقبات أوجبتها تبعية مصر للدولة العثمانية .

أما العقبات الطبيعية ، فكوارث أناخت بكلكلها الثقيل على البلاد ، بالتتابع والتوالى .

وأما التى أوجبتها تبعية مصر للدولة العثمانية ، فالحملات العسكرية المرسلة اضطرارا آونة الى بلاد العرب ، وآونة الى كريت ، وأخرى الى شبه جزيرة البلقان ، لتقاتل هنالك لا فى مصلحة مصر، ولكن فى مصلحة تلك الدولة العثمانية .

وإنا لمبينون ذلك فى الفصلين التاليين .

الفصـــل الأوّل(١)

الكوارث الطبيعية

حاربني يا نائبات الليالى * عن يمينى ؛ وتارة عن شمالى

١ — حريق الحمزاوى

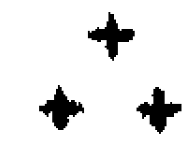
حريق الحمزاوى

فى احدى ليالى صيف سنة ١٨٦٣ شبت نار عنيفة بالحمزاوى — والحمزاوى ، كما هو معروف ، مجموعة مخازن تشتمل على أهم المستودعات لأنفس البضائع وأثمنها ، لا سيما المنسوجات والأبسطة والطنافس بمصر القاهرة — و بالرغم من الهمة والنشاط المبذولين من رجال الحفظ العام ؛ بالرغم من التطوع ، باخلاص ، المقدّم من أهالى الجيرة وسكان الجهات الأخرى الذين هبوا للمساعدة على إطفاء النيران ، فان هذه لم تخمد إلا قبيل الفجر ، بعـد تعب شديد وجهد جهيد ؛ وذلك لعدم وجود رجال مطافئ متخصصين كما هى الحال الآن ، ولأن مياه النيل لم تكن قد جلبت بعد الى القاهرة . فبلغت الخسائر جملة ملايين من الفرنكات — وكان لمليون الفرنكات فى ذلك العهد قيمة تعادل نيفا وعشرة أمثاله الآن .

فمدّ (اسماعيل) يد المساعدة من صندوقه الخاص الى أكثر المنكوبين بؤسا ؛ ثم استدعى التجار الذين أضرّ بهم ذلك الحريق وأقرضهم عدّة ملايين بدون فوائد ؛

(١) أهم مصادر هذا الفصل : "مصر القديمة والحديثة" لاودسكلكى ، و"مصر تحت حكم اسماعيل" لسانتى ، و"الكافى" لميخائيل بك شاروبيم ، و"الكولرا فى مصر" لكولوتشى بك ، و"محاضر جلسات مجلس ادارة الانتندنس سانيتير للقطر المصرى" لكولوتشى بك أيضا ، و"التوفيقات الالهامية" لمختار باشا المصرى ، و"رسائل الليدى جوردون دف ومصر" لرونيه .

وأمهلهم عشر سنوات لردّها . فنجى بذلك من الخراب والافلاس التجار الغربيين أنفسهم الذين كانوا أهم دائنى التجار الوطنيين المحروقة بضائعهم . وقلد الكل منــة استحق عليها ، بجدارة ، الثناء والشكر العامين (١) .



وباء المــاشية والخيــل

٢ — وباء المــاشية والخيل

وكان قدانتشر فى النمسا وإيطاليا فى السنة عينها وباء اجتاح المواشى بكيفية مروعة فانتقلت عدواه الى مصر بعوامل التبادلات التجارية . وبالرغم من كل الاحتياطات التى أمر (اسماعيل) باتخاذها بكل دقة واعتناء لمقاومة تلك العدوى ومنع تفشيها ، انتشر الداء الوبيل ، كأنه الطاعون الأسود الفظيع ، الذى أهلك الانسان والحيوان والطير فى أيام السلطان حسن ، صاحب المسجد الأفخم فى القاهرة ، وعمّ جميع البلاد شرقا وغربا ، ولم يترك بلدا إلا وحل فيه ، ولا قرية إلا ودخلها . واستمر يفتك بمواشى القطر ، ويشتدّ شدّة بالغة ، نيفا وسنة ، حتى بلغ عدد ضحاياه عدّة مئات من الألوف ، وكاد يفنى جميع البقر . فقل اللبن والسمن ، ثم انقطعا ، وبلغت الحاجة اليهما أقصاها ، وأكل الناس الدهن والزيت .

فبذل (اسماعيل) جهده لوضع حدّ لتلك المصيبة ، وتخفيف ويلات نتائجها . فبعث واستحضر من البــلاد المجاورة ، لا سيما من الأناضول ، كميات عظيمة من السمن ، وفرّقه على الفقراء مجــانا : فكانوا ، وهم فى ضجيج وجلبة يصمان الآذان ، يتزاحمون على "الوكائل" ومخازن التوزيع التى خصصت لتفريقه بالأخطاط بالرغم من أنه لم يكن ممــا ترتاح اليه نفوس معتادى السمن المصرى ، وأن جانبا منــه كان

(١) أنظر : "مصر القديمة والحديثة" لأودسكلكى ص ٩ ، و "مصر تحت حكم اسماعيل" لسانتى ص ١٨

رديء الرائحة، نتنها ؛ ولا يزال كثيرون من الطاعنين فى السن يذكرون أمامنا كراهة رائحته باعتبار أنه مستخرج من لبن الماعز . واستمرت الحال هكذا أياما عديدة[١] .

واستحضر كذلك من البلاد الأجنبية عددا كثيرا من المواشى ، وباعها للفلاحين بأوفق الأثمان لهم . واذ لم يكف العدد المجلوب لسد العجز المسبب عن الوباء ، جلب جانبا كبيرا من الآلات البخارية ، لتنوب قواها العاملة عن قوة الثيران وحيوانات الفلاحة الأخرى التى ذهب الوباء بأعمارها . ولوكان هناك سكة حديدية تصل ما بين مصر والسودان ، لأمكن المجىء بالمواشى من هذا القطر بسهولة ، ولما وقعت وطأة ذلك الطاعون البقرى على البلاد المصرية بالشدة التى عهدت ،وكلفت (اسماعيل) نيفا وثلاثة ملايين من الجنيهات[٢] !

ثم مضت الأيام وانقضت حملة الحبشة الأخيرة . فتلاها وباء أصاب الخيل وحيوانات النقل كالجمال والحمير والبغال ، ربما انتقل اليها من الحبشة عينها أو أصابها عن طريق العدوى من زميلاتها التى اشتركت فى تلك الحملة المشئومة ولم تمت فيها ؛ ولكنها أصيبت بذلك الداء بسبب المشقات المروعة التى احتملتها ؛ وعادت وهو كامن فيها الى القطر[٣] .

* * *

الكوليرا

٣ — الكوليرا

وبينما كان نوبار ، بعد أن عهدت اليه وزارة الأشغال العمومية والزراعة المنشأة حديثا فى أوائل سنة ١٨٦٥ ، يهتم اهتماما فائقا بتصليح السكك الحديدية وإعادة

(١) أنظر : "الكافى" لميخائيل بك شاروبيم ص ١٤٠ ج ٤

(٢) أنظر : "مصر" لمالورتى ص ١٤١ رقم ١٥ فى بيان المنصرف .

(٣) أنظر : "مصر المسلمة والحبشة المسيحية" لداى ص ٤٨١

النظام الى أعمالها ، وفى إتمام جزء ترعة المـاء العذب (الاسماعيلية)، الواقع بين مصر والوادى ، تسكيتا لإلحاحات المسيو دى لسبس على الحكومة المصرية بعملها طبقا لمـا حكم به الامبراطور نابوليون الثالث ؛ وكان (اسماعيل) يمدّه بكل ما فى وسعه ، ويعمل فى الوقت عينه على انماء ثروته الخصوصية مذ أصبحت ، بمفعول تحـديد مرتبه السنوى ، منفصلة عن الخزينة المصرية — فيبذل مفتشو مزروعاته ، لا سيما اسماعيل صديق ومحمد عكوش[1] ، من المجهود وتفتق الذهن والتفنن فى حمل الفلاحين على بيع أطيانهم ما جعل خمس أطيان القطر الجيدة ملكا له ، اذا بنبأ وجفت له القلوب طيره البرق الى أنحاء العالم بأسره ووقع من مصر، على الأخص، موقع السوء الذى تتطير له الأرواح . ألا وهو نبأ ظهور الكوليرا فى مكة المكرمة .

وانما تطيرت الأرواح لأن الكوليرا، الوباء الفظيع المهلك، كانـ قد زار مصر فى المـاضى زيارات متعدّدة : زارها فى يوليه سنة ١٨٣١ ، وفى يونيه سنة ١٨٤٨ ، وفى يوليه سنة ١٨٥٠ وفى يونيه سنة ١٨٥٥ ؛ وترك فيها عقب كل زيارة من الآثار المخيفة والدمار ما كان جديرا بأن يجعل المخيلات ترتعد، والقلوب تخور لذكره .

ففى سنة ١٨٣١ — ولم يكن يعرف قبلها ، وقد دار فيها المعمور كله ، وفتك به فتكا ذريعا ، وافترس ضمن ضحاياه كازمير پيريبه ، كبير وزراء لويس فيليب، ملك الفرنساويين ؛ ووصف أوچين سى فى "اليهودى التائه"، روايته الكبرى ، مقدار اتساع بطش ذلك الداء الرهيب وصفا مرعبا — فان (محمد على) — وقد أقلقتـه

(١) والد حضرة صديق الفاضـل محمود عكوش بك سكرتير لجنة حفظ الآثار العربية بوزارة الأوقاف وسـلالة صالح أغا أق قوش زعيم الألبـانيين الذين قضوا على المـاليك فى مجزرة القلعة الشهيرة سنة ١٨١١ ؛ وانى أغتنم هذه المناسبة لأقدم له جزيل شكرى على البيانات والرسومات والمستندات التى أمدّنى بها وكانت من خير ما ساعدنى على تحرى أمور شتى وتدوينها .

شدّة وطأة الوباء، وأخافته بالأخص على تجهيزاته وتعبيئاته الحربية — أقبل يبحث فى طرق لمقاومته وابادته .

فأشار عليه المسيو ميمو، قنصل فرنسا العام، بانشاء إدارة صحية تنظر فى ذلك، وتقوم بشؤونه . فكلف (محمد على) بالمهمة جمهورا من الأطباء الأجانب . فقاموا بها، وكوّنوا الادارة المطلوبة فى سنة ١٨٣١ عينها ودعوها "الانتندانس سانيتير"؛ فألحقت بالادارة المحليـة، وجعلت تحت رياستها؛ وعهد الى هـذه الإدارة تنفيذ قراراتها .

وكان رئيس "الانتندانس" يعرض على الأمير أسماء الأطباء والعمال المطلوب تعيينهم فيها؛ فتصدر الارادة السنية بتعيينهم؛ ويناط بكل منهم عمل يرفع تقاريره عنه الى رئيسه، مباشرة؛ وهذا يخبر بما يرى من كان أعلى منه؛ وهكذا بالتدريج الرسمى، حتى تبلغ المكاتبات الرئيس الأسمى .

وأقبل القناصل يعضدون تلك الهيئة الصحية : بجعل كل منهم مندوبا لديها، يحضر اجتماعات مجلسها، نائبا عن جنسيته، و يتداول مع أعضاء ذلك المجلس فى الاجراءات الواجب اتخاذها . على أن القرارات كانت بأغلبية الأصوات .

وامتازت الحكومة الفرنساوية، رغبة منها فى المحافظة على سلامة سواحلها التى على البحر الأبيض المتوسط من أن تتطرق اليها الأوبئة، بايفاد أطباء خصوصيين من لدنها الى الأسكلة الشرقية، لا سيما بمصر، ليراقبوا فيها الأحوال الصحية ويخابروا وزير التجارة الفرنساوية رأسا بكل ما يرونه ذا أهمية من الطوارئ . فلم يعد يسوغ لأى مركب، مهما كانت جنسيتها، أن ترد ثغرا فرنساويا إلا اذا كان لديها إذن صحى من الطبيب الفرنساوى المقيم فى الثغر الشرقى الذى بارحته .

هؤلاء الأطبـاء الفرنساويون كانوا بمصر ، يحضرون جلسات مجلس ادارة "الانتندانس" ومداولاته ، ولهم حق التصويت فيها .

فلم يمض على انشاء تلك الادارة الصحية عهد قصير حتى ظهرت نتائج جهودها فأنشئت "العازاريتات" (وهى التى يقال لها بالطليانية "لازارتى" (Lazzaretti) فقلبها الأهلون الى "مازاريطا") فى الاسكندرية ودمياط والعريش والسويس .
وأكبرها كلها عازاريتة الاسكندرية : فانها ، علاوة على استكمالها جميع ما يلزم للغرض الذى أنشئت من أجله ، كانت تسع من ألف ومائتين الى ألف وخمسمائة شخص ؛ ونيطت ادارة كل منهـا بطبيب ومساعدين ؛ وأفرد فى كل عازاريتة محل للبضائع الواردة من البلاد الموبوءة ، لتطهيرها فيه قبل التصريح لها بدخول القطر .

وعينت مدد مختلفة لحجز السفن القادمة من الأقطار المشبوهة ، فى عرض البحر ، تحت المراقبة ، حتى يثبت خلوها من إصابات وعدوى . فجعلت خمسة أيام للسفن السليمة ، مع عدم إجبارها على تنزيل ركابها وبضائعها فى العازاريتة ؛ وأما المراكب غير السليمة فقرّر حجزها عشرة أيام ، مع إجبارها على تنزيل ركابها وبضائعها ، إلا ما كان غير صالح منها للتنزيل ، لأجل تطهير الكل .

وعملت الحكومات التى تلت حكومة (محمد على) على تحسين الأحوال الصحية فى القطر : فأعدمت ، باشارة "الانتندانس" وتنفيذا لقراراتها ، أهم الأسباب التى كانت الأوبئـة تنشأ عنهـا : فأبطلت الجبانات التى كانت داخل القرى والمدن ، بجانب المساكن ، بل داخل المساكن عينها ، أحيانا ؛ ونقلت الى مسافات بعيدة عنها ؛ وروقبت أمور الدفن مراقبة دقيقة ، منعا لعدم تعميق اللحود والقبور تعميقا كافيا ، وعدم قفلها قفلا محكما ؛ ومنع انشاء المحلات المقلقة والضارّة بالصحة بالقرب

من المساكن ؛ وردمت البرك التى كانت موجودة بكثرة فى المدن والقرى ؛ وسوّيت بالأرض تلال أقذار كان الانسان يجدها لدى كل خطوة فى القطر ، ونقلت بعيدا عن المأهول ؛ وحتم الاعتناء بأمور النظافة اعتناء تاما ، فى المدن والريف ، على قدر المستطاع ؛ وروقبت نقاوة المأكولات ؛ وأقيم أطباء مجانيون فى الأحياء المختلفة ؛ وأنشئت مستشفيات فى المدن الكبرى ؛ وجعل اللقاح الجدرى إجباريا ، وخصص الأطباء لإجرائه مجانا[1] .

على أن هذا جميعه لم يتم إلا بالتدريج ، ولم يجر معظمه إلا فى عهد (اسماعيل) وبفضل همته . فكان أكثر الوقايات الصحية المألوفة الآن لدينا لا يزال ، والحالة هذه ، مجهولا فى سنة ١٨٦٥ ؛ وكانت الأوبئة ، اذا ما تفشت ، فتكت بالأعمار فتكا ذريعا ، وصعب على القائمين بالشؤون الصحية تلافى أمرها واستئصال شأفتها .

غير أن الصحة العمومية فى القطر كانت ، حتى آخر مايو من تلك السنة سنة ١٨٦٥ ؛ جيدة جدّا . ونسبة الوفيات فى ٢٦ مايو عينه كانت ١/٤ ٢٦ فى الألف ؛ وزيادة المواليد على الوفيات ٣/٤ ٣٦ فى الألف ؛ وبلغت هذه الزيادة فى عشر سنوات ٤٣٩٦٦٤[2]

ومن جهة أخرى فان مقاتلة الطاعون البقرى كانت قد أفضت الى القضاء على ذلك الوباء ، لدرجة أنهم أبطلوا فى ٢٤ مايو الكشف على المواشى الواردة الى القطر . فما قيل من أن أهل مصر والاسكندرية كانوا يشربون مياها خضراء تذوب فيها أكوام مواد حيوانية ميتة كذب بحت ؛ وكذب كذلك ما زعمته جريدة افرنجية

---

(١) أنظر : "الكوليرا بالقطر المصرى" لكولوتشى بك ص ٨

(٢) أنظر : الكتاب عينه ص ٩

بالاسكندرية من أن جثث التماسيح الميتة كانت تغطى شواطئ النيــل التى كانت تحرسها فى السابق — كأن التماسيح كان أبدا شأنها حراسة ضفاف النيل !

فما طار ، إذا ، نبأ ظهور الكوليرا بمكة إلا وأصدر (اسماعيل) أمره : فأرسلت الادارة الصحية مندوبين اليها ، للوقوف على حقيقة الحال هناك ، وموافاة رجال الحكومة المصرية بالأخبار .

ولكن المرض كان قد تلاشى من المدينة الحرام بمغادرة الحجيج لها . فتعقب المندوبان الحجاج وما افترقوا عن ملاحظتهم لحظة . ولكن نقاوة هواء البحــر كانت سببا فى أنه لم تظهر على ظهور البواخر اصابات مطلقا . فأدّى ذلك الى عدم حجــز الحجاج فى محجر السويس ، والتصريح لهم بالذهاب الى الاسكندرية ، ليسافروا منها الى بلادهم . فجهزت الادارة قطارات خاصة سريعة ، نقلتهم الى الاسكندرية ، بدون أن يختلطوا بالأهالى ، وأنزلتهم فى محجر المكس تحت المراقبة .

ولكنه حدث ، لسوء الحظ ، أن بعض الشياليين فى مصلحة سكة الحديد ، من قاطنى حىّ كوم الشقافة بالاسكندرية ، اختلطوا بهم لقضاء حاجاتهم . فما كان يوم ١١ يونيه سنة ١٨٦٥ — وهو يوم مشئوم ، لأنه فى مثله من سنة ١٨٨٢ وقعت بالاسكندرية عينها المذبحة التى أكسبت الثورة العرابية المدنية صبغة الحركة الدينية التعصبية ، فأدّت الى تداخل الدول الغربية ، لا سيما انجلترا ، فى الشؤون الادارية المصرية ، تداخلا لم يعد فى الامكان ازالته بالتى هى أحسن ؛ وأفقدت العالم الغربى القليل الذى كان لديه من ثقة فى مقدرتنا على التجرّد ، فى ارادة شئون بلادنا ، من مؤثرات القرون الدينية علينا ، تأثيرا يخرجنا عن المضمار الذى تجرى المدنيــة الحديثة شوطها فيه — ما كان يوم ١١ يونيه سنة ١٨٦٥ إلا وظهرت الاصابة الوبائية الأولى

بناحية كوم الشقافه؛ وتلتها فى الحى عينه أربع إصابات فى ١٢ يونيه؛ واثنتا عشرة إصابة فى ١٣ يونيه؛ وأربع وثلاثون إصابة فى ١٤ يونيه؛ وثمان وثلاثون إصابة في ١٥ يونيه .

فهلعت قلوب الاسكندريين، واستولى عليهم الرعب . فزاد ذلك الطين بلة؛ وبعد أن كان عدد الاصابات قد انحط فى ١٦ يونيه الى ٣٤، عاد فوثب مرة واحدة، وظهرت ثلاث وخمسون اصابة فى ١٧ يونيه، منتشرة فى عموم أنحاء المدينة؛ وبدت على الأخص فى بيوتها وشوارعها وأحيائها القذرة .

وكان الدكتور كولوتشي بك رئيس "الانتندانس سانيتير" قد أخطر هذه الادارة بظهور الوباء، منذ يوم ١٢ يونيه . فهبت واتخذت الاحتياطات اللازمة، وعرضت نفاذها على الحكومة المحليـة؛ فقامت به خير قيام؛ وأخطر كولوتشي بك القناصل بالقرارات المتخذة، وطلب منهم المساعدة . فأبدوها بكل ارتياح ونشاط . فنظفت المدينـة بسرعة، ورشت الشوارع بغزارة، بل غسلت عدّة مرات فى اليوم؛ وأتلفت كل المأكولات التى اعتبرت غير صحية؛ وشدّدت المراقبة على المواد الغذائية عموما؛ وأنشئت ستة مكاتب اسعاف اشتغل العمال فيها ليلا ونهارا، بالمناوبة، وبدون انقطاع . ولم يأل أطباء الحكومة والأطباء الأجانب المتطوعون معهم ورجال "الانتندانس" جهدا فى القيام بواجباتهم، حتى استحق جميعهم ثناء الصحافة والعموم عليهم .

غير أنه تعذر فى بادئ الأمر إنقاذ المصابين من الموت — لأن الاصابات كانت صاعقية — ولا أمكن حصر الوباء، بالرغم من كل الاحتياطات التى اتخذت، ولو أن

عدد المصابين فى البيوت والشوارع والأحياء التى استعملت فيها الوسائل الصحية، بحكمة واستمرار، كان قليلا بالنسبة لغيرها .

فبعد أن كان الكوليرا، لغاية ١٧ يونيه ، قاصرا على الاسكندرية ،لا يفارقها ،سرى فى ذلك اليوم ؛ فأصيب به فى أبى قير بحرى ، وفى طنطا امرأة ، قدما الى البلدين من الاسكندرية ؛ وظهرت أعراضه فى مصر على ستة أشخاص : منهم خمســة قادمون من السويس، وواحد من الاسكندرية .

ثم تفشى بسرعة غريبــة بمصر السفلى والوسطى؛ وانتقل أخيرا الى بعض أنحاء الصعيد؛ ولوحظ أنه أصاب، على الأخص، البلدان والبيوت الواطئة . فبينما أفقد من قريتين متجاورتين مبنيتين على أرض تستوى مع المحمودية عشر سكانهما، فانه لم يصب إلا واحدا فقط من أهالى بلدة أبى طاحون الستمائة . وكان أعصب أيامه يوم ٣ يوليه بالاسكندرية ، وبلغت الوفيات فيــه ٢٢٨ ؛ ويوم ٥ يوليه بمصر، وبلغت الوفيات فيه ٤٦٨؛ ويوم ٢٩ يونيه برشيد، وبلغت الوفيات فيــه ٢٧٩ ؛ ويوم ٥ يوليه بدمياط ، وبلغت الوفيات فيه ١٧٢؛ ويوم ٧ يوليه بالمنصورة، وبلغت الوفيات فيه ٣٥؛ ويوم ٢٤ يونيه بطنطا ، وبلغت الوفيات فيه ٩٦؛ ويوم ٢٧ يونيه بالزقازيق، وبلغت الوفيات فيه ١٠٥

وأما متوسط الوفيات يوميا به فقد كان ٥٧ ٢/٥ فى الألف بالاسكندرية؛ و٦٥ ٢/٣ فى الألف بمصر؛ و ٥/ ٥٤ فى الألف برشيد ؛ و٤٥ ٢/٣ فى الألف بدمياط ؛ ولكن متوسطها فى مدّة اشتداده كان من ٦٥ الى ٧٠ وفاة يوميا . ومدّة الزيادة هذه استمرت من ١٧ الى ١٨ يوما فى الاسكندرية وغيرها . ثم وقف المرض على الفتك بعدد محدود ، أى من ٣٥ الى ٤٠٪ من المصابين ، مابين عشرة أيام وأحد عشر يوما ؛

وأخذ بعد ذلك يخف وطأة، من عشرين الى خمسة وعشرين يوما؛ فلم يعد يموت من المصابين سوى من ١٥ الى ٢٠ فى المائة ؛ وكثيرا ما كان المصاب يشفى من تلقاء نفسه، وذلك فى عموم القطر تقريبا .

على أن جهود الادارة الصحية لم تفتر لحظة عما كانت عليه فى أول يوم، بل زادت على ما كانت مع ازدياد المرض؛ ففرضت على مراكب البريد ذاتها حجرا صحيا مدّته خمسة أيام، بما فيها يوم السفر؛ وأخضعت كل من فيها لزيارة طبية يومية . هذا اذا كانت سليمة؛ وأما اذا كانت مراكب حدثت عليها اصابات فى مدّة السفر فالحجر كان ثمانية أيام عقب يوم الوصول؛ واذا حدثت على ظهرها اصابة جديدة فى هذه المدّة ضربت عليها ثمانية أيام أخرى . كذلك لم يكن يسمح لأى مركب، بخارية كانت أم شراعية، أن تدانى الموانى والثغور إلا بعد قضاء مدّة الحجر المفروضة . وأما البضائع التى كان لا بد من انزالها وتصريفها فى الحال، لئلا تتلف ، فكانوا ينزلونها فى ما عونات ويطهرونها تطهيرا شاملا، ثم يسمحون لها بالدخول الى القطر .

ومع ذلك فان فريقا من الرأى العام وجد أن الادارة لم تقم بكل واجبها؛ فحمل عليها فى بعض الجرائد حملات منكرة، أدّت الى زيادة الهلع والخوف اللذين كانا قد عما العاصمتين المصريتين وبعض مدن الريف الكبرى، منذ أن انتشر خبر الاصابات الأولى؛ وأوجبت نزوح الكثيرين من أهل البلاد الى الخارج، حتى لقد قدر أن عدد الذين هجروا القطر ما بين ١٢ يونيه و ١٥ يوليه بلغ نيفا وخمسة وثلاثين ألفا : أى أنه قد سافر كل من استطاع الى السفر سبيلا .

وكان (اسماعيل) قد عزم على السفر الى أوروبا فى ذلك العام ، قبل أن تظهر أخبار مطلقا عن الوباء . فلما ظهرت، تشدّد كل التشدّد فى انفاذ الوسائل الصحية

وتعميمها، لكيلا يقضى عليه تنفيذ عزمه بترك الحالة الصحية فى القطر مضطربة، سائدا عليها الخوف . ولكنه لما وثق من أن أوامره نفذت كلها، وأنه لم يعد على مسئوليته غبار، فوض الى شريف باشا قائمقامية القطر فى مدّة غيابه، والى نوبار باشا أمر الاهتمام الكلى بمقاومة الوباء والقضاء عليه؛ وأقلع فى صباح اليوم الرابع عشر من شهر يونيه من الاسكندرية على ظهر يخته "المحروسة"؛ وبعد أن قضى مدّة يتجوّل بين جزر البحر الأبيض المتوسط، ويتنزه فى عرضه، مستنشقا نسيمه العليل، نزل بمرسيليا، وتوجه منها الى فيشى للتطبب بمياهها .

فاتخذت الألسنة النمامة سفره فى تلك الظروف ذريعة للطعن عليه؛ واتهمته فى بعض الجرائد الفرنجية فى القطر المصرى وخارجه بأنه انما سافر لشدّة خوفه من العدوى، وشدّة حرصه على حياته الثمينة! مع أن تلك الألسنة كانت تعلم حق العلم أنه لم يكن بالجبان، ولا اشتهر عنه الخوف من الخطر؛ ولو أنه لم يلجأ فى اثبات شجاعته الى ما عمله (محمد سعيد باشا) سلفه، ليقيم الدليل عليها .

نادرة (لسعيد)

فانه يروى عن ذلك الوالى، الغريب الأطوار، أنه أمر ذات يوم بتكديس بارود جاف على جانبى طريق ضيقة، مسافة طويلة؛ ثم أوقد شبكه، وألزم حاشيته وشانئى شجاعته باشعال شبكاتهم أيضا؛ وسار بهم، متنزها على تلك الطريق، وهو يدخن وهم يدخنون؛ وقد أنذر بالعقاب الشديد كل من وجد شبكه مطفأ عند البلوغ الى نهاية الطريق . وما زال ينقل خطواته عليها ببطء كلى حتى بلغ آخرها . وكانت شرارة واحدة، تطير عن أحد الشبكات وتسقط على ذلك البارود المتكدس، كافية لتنسف تلك الطريق بمن عليها نسفا[1] .

(١) أنظر : "مصر الحديثة" للورد كرومر، ص ٢٨ ج ١ .

على أن لا (سعيد) ولا (اسماعيل) كانا فى حاجة الى إقامة الأدلة على شجاعتهما . فان المثل السائر يقول "هذا الشبل من ذاك الأسد" وأيضا "ابن الوزّ عوّام" ؛ فكيف يكون ابن (محمد على) وابن (ابراهيم)، بطلى أبطال الشرق الحديث، جبانين؟

وأما السوقة والعامة فانهم شرعوا يرون فى تعاقب المصائب ، الطبيعية على مصر، بعد زيارة السلطان عبد العزيز لها ، دليلا على ما كانوا يعلنونه من توقعهم إياها ؛ ارتكانا على أراجيف المرجفين من ضرابى الرمل ، وقرائى المقدور على صفحات النجوم وصفحات الورق ؛ فكثرت ، والحالة هذه ، المخاوف ؛ وهلعت الأفئدة ؛ وأصبح المعتقدون فى آرائهم السخيفة هذه ، كلما مس البلاد ضر أو اشتدّت عليها شدّة ، يقولون لمن شاء أن يسمعهم : «أرأيتم كيف يتحقق كلامنا و يصدق حدسنا؟ »[1] .

و بعد أن أقام الوباء ستين يوما ، أخذ ابتداء من ١٣ أغسطس يتناقص شيئا فشيئا حتى إذا كانت أوائل سبتمبر تلاشى وزال ، كعادته فى المرّات الأخرى التى حل فيها على القطر ضيفا ثقيلا . فكان جملة من مات به من المسلمين ٥٦٧٦ شخصا ؛ ومن الأقباط ٢٦٣ ؛ ومن الفرنج ١٦٥ ؛ وذلك غير ٦١٠٤ أشخاص توفوا إبان فتكه بأسباب أخرى . فيكون مجموع وفيات القطر فى أثناء اقامته ١٢٤٢٩ شخصا .

ولم يفتر أستاذ الكيمياء بمدرسة الطب، طول مدّة الوباء، يجرى اختبارات طقسية يوميا، ليقف على مقدار تأثير درجة الحرارة الجوّية على كثرة انتشاره أو قلته . فثبت لديه أن القيظ الشديد يساعد على زيادة فتك مكروبه فقد لوحظ أن أشدّ الأيام هولا كانا يومى ٣ و ٥ يوليه ، وقد بلغت درجة الحرارة فيهما أعلاها ، وازدادت سخونة

(١) أنظر: "الكافى" ج ٤ ص ١٤٠

الهواء ، بمـا هب عليه من ريح سموم ، الى حدّ غير معهود — وأما برودة الطقس وانحطاط درجة الحرارة فمما يوجب انحطاط همة ذلك المكروب و يساعد على زواله[1] .

وأكبر دليل على قيام الادارة الصحية والحكومة المحلية بواجباتهما ، القيام الحق ، هو كثرة و رود السائحين والزائرين الغربيين الى القطر فى هذا العام ، عام سنة ١٨٦٥ ، فقد بلغ عددهم ٥٠٣١٧ سائحا ؛ ولم يكن يبلغ نصف ذلك فى السنوات السابقة . فلو أن الانتقادات والمخاوف كانت فى محلها ، لأحجم جمهور هؤلاء عن المجيء الى بلادنا .

* * *

طغيان النيل وعجزه والغلاء والمجاعات

٤ — طغيان النيل وعجزه وما نجم عن ذلك من غلاء ومجاعات

وكأن هذه البلايا لم تكن كافية لإحراج الصدور واستنفاد الأموال : فان فيضانات النيل فى كل سنى ملك (اسماعيل) تقريبا ، خرجت عن طور المألوف ؛ وأخذت ، تارة تزيد على المطلوب زيادة فاحشة ؛ وطورا ، تقل عنه قلة محرقة .

ففى سنة ١٨٦٣ مثلا ، بلغ ارتفاع النيل خمسة وعشرين ذراعا وثمانية قراريط . فهدّد القطر برمته بدمار عاجل محقق . ولولا أن (اسماعيل) — كأنما أوتى علم الغيب — كان قد سبق واتخذ الحيطة لذلك ، منـذ تبوّئه العرش ، بمـا أصدره من الأوامر المشـدّدة على المديرين بالاسراع فى إنهاء الأشـغال اللازمة لحفظ الجسور ، حفظا فعالا بحيث تكون على أتم ما يرام وقت الفيضان — وكثيرا ما كانت تهمـل تلك الأشغال فى السابق ، فتصاب الزراعة والقرى بمضارّ جسيمة حتى فى السنوات ذات الفيضان العادى — لحلت بالبلاد والعباد مصيبة تتضاءل أمام جسامتها كل مصيبة

(١) أنظر : "الكوليرا فى القطر المصرى" نكولوتشى بك .

طبيعية أخرى . ولكن الاجراءات التي كان قد أمر بعملها قاومت ضغط النيل الى أن بلغت زيادته الارتفاع العادى وفاقته قليلا . غير أن الزيادة استمرت مطردة اطرادا غريبا . فرأى (اسماعيل) وجوب إجراء أشغال تقوية أخرى فى الجسور . وحضر عملها بنفسه، لئلا يهمل أحد شغلا نيط به . فحفظت البلاد بذلك من الغرق[1] .

ولكى يثبت الأمير الاطمئنان فى قلوب رعيته ، لم يحجم عن الذهاب بنفسه لافتتاح خط سكة حديد طلخا — وهو خط يحاذى جانب عظيم منه النيل — غير أنه حدث ، بعد وصوله الى طلخا بقليل ، أن الحاجز الأكبر انهار، وتدفقت مياه النهر منه بغزارة، وهددت الجيرة كلها . فأمر (اسماعيل) حالا باتخاذ الاحتياطات، وإجراء التصليحات والترميمات اللازمة . فلم تمض ثلاثة أيام إلا والحاجز قد أعيد الى حالة من المتانة خير من الأولى .

ثم اتفق بعد يومين أن جسرا آخر عند كفر الزيات انهار أيضا : فغرقت مياه النيل البلد وجملة نواح مجاورة، وجرفت خط السكة الحديدية أو كادت . ولكن بفضل عناية الأمير لم يمت أحد من الناس ولم تهلك ماشية مطلقا . وذلك لأن (اسماعيل) كلف الجند ورجال حاشيته، بما فيهم أصحاب الرتب والألقاب، بالعمل على رتق الخرق وسد الثغرة ، وقدم للمحتاجين كل أنواع الاسعافات التى استدعتها حالتهم من خيام ومأكولات وملابس[2] .

وكانت نتيجة ذلك الفيضان الجارف القضاء على جانب عظيم من المغل : فارتفعت أسعار الحنطة والذرة ارتفاعا فاحشا، طار بسببه غلاء شديد، أوجب ارتفاع عموم

(١) أنظر : "مصر القديمة والحديثة" لأودسكلكى ص ٢٤ وما يليها .

(٢) أنظر : "مصر القديمة والحديثة" لأودسكلكى .

أسعار حاجات المعيشة ارتفاعا مخيفا . ثم انقطع وارد القمح بالمرة، واشتد الطلب : فلم يجـد الفقراء له أثرا لا فى سواحل بولاق ولا فى مصر القديمة ، ولا فى جميع رقع الغلال الأخرى . فضجوا وعجوا، وكثر طواف النساء فى الأسواق يحملن المقاطف، لعلهنّ يجدن من يبيعهنّ قمحا أو دقيقا .

فلما علم (اسماعيل) بما عليه الناس من الضر، هاله الأمر وأزعجه ؛ ورسم بجلب القمح والدقيق من البلاد الخارجيـة ؛ فأتى بشئ كثـير منهما ، وفرّق على الوكائل وجهات الرقع ؛ ورتب للبيع وقتان فى الصباح والمساء ؛ ونودى فى الناس بذلك . ففرحوا وتزاحموا على أبواب محال صرفه تزاحم الجياع . واستمروا على هـذه الحال شهرين وبضعة أيام، حتى تواردت الغلال من الأقاليم القبلية، وملأت مخازن التجار وأشوان الدولة، وعمّ الوارد منها الأقاليم البحرية[1] .

على أن النيل عاد الى الطغيان سنة ١٨٦٦ : فبلغ ارتفاعه نيفا وخمسة وعشرين ذراعا وأربعة عشر قيراطا . فعادت ويلات سنة ١٨٦٣، وزادت شدّة . وكان ذلك هو العام الذى فاز (اسماعيل) فيه بحصر إرث العرش المصرى فى الابن البكرى فالابن البكرى من ذرّيتـه ؛ فأبى أن يشوب كدرعام أفراحه . لذلك بذل قصارى جهده فى منع كل غرق وخراب عن البلاد وساكنيها ؛ وما فتئ ، كالمرة الأولى ، متنقلا فى جهات القطر، لا سيما فى الصعيد، مراقبا بنفسه شؤون المحافظة على الجسور، حتى تمكن من درء شر جسيم .

وأما فى سنة ١٨٦٨ فقد شح النيل فى فيضانه، ولم يبلغ أقصى ارتفاع مياهه سوى تسـعة عشر ذراعا وثلاثة عشر قيراطا . فنجم عن ذلك أن ثمن أراضى الوجه القبلى

(١) أنظر : "الكافى" ج ٤ ص ١٤٠

بقى شراقى ؛ وأنه وقع غلاء شديد فى البلاد ، دل عليه ارتفاع أسعار النقود : فان الجنيه الانجليزى — وقد كان فى سنة ١٨٦٦ يساوى ١٧٦ قرشا من العملة الدارجة ؛ وفى سنة ١٨٦٧ ، ١٨٥ قرشا ، أصبح فى سنة ١٨٦٨ يساوى ١٩٢ قرشا ؛ والجنيه المصرى — وقد كان فى السنتين السابقتين يساوى ١٨٤ و ١٨٩ قرشا ، أصبح يساوى ١٩٧ ؛ وأما البنتو (القطعة ذات العشرين فرنكا) فأصبح يساوى ١٥٢ قرشا ، بعد أن كان فى السنتين عينهما يساوى ١٤٢ و ١٤٧ ؛ كذلك أصبح الجنيه المجيدى يساوى ١٧٢ قرشا ، بعد أن كان يساوى فى سنة ١٨٦٧ ، ١٦٦ قرشا ؛ وفى سنة ١٨٦٦ ١٦١ قرشا[1] . وبينما الناس ينتظرون أن يعوّض عليهم الفيضان التالى المضار التى لحقت بهم من جراء قلة الفيضان السابق ، اذا بمياه النيل قد ارتفعت فى سنة ١٨٦٩ ارتفاعا فاحشا ، وبلغ علوّها نيفا وستة وعشرين ذراعا وقيراطا . فغرقت السواحل ؛ وتلف كل الزرع الذى عليها ؛ وانهارت الجسور ؛ وهدّد القطر جميعه بالغرق . وكان (اسماعيل) قد اتفق مع المسيو فردينان دى لسبس على أن يكون فتح ترعة السويس للملاحة والتجارة العالميتين فى نوفمبر من ذلك العام ؛ فرأى أن أقل تهاون يبدو من حكومته فى أمر مقاومة مهاجمة ذلك الفيضان المريع يؤدّى حتما الى إفساد مجرى الحفلات الفخمة العتيدة ؛ ورأى أنه يجدر بهمته إذا أن تهب لمقاتلة همة المياه ، والتغلب عليها . فأصدر الأوامر المشدّده الى جميع المديرين ومأمورى المراكز بعدم مفارقة الجسور ، لا نهارا ولا ليلا ، والعمل باستمرار على تقويتها وتعليتها ، وسرعة تصليح ماينهار منها ، وملافاة المضار الناجمة عن الانهيار . واغتنم فرصة سياحته على النيل مع الامبراطورة أوجينى ، فى أوائل أكتوبر ، لمراقبة تنفيذ أوامره بنفسه ،

(١) أنظر : "التوقيعات الالهامية" لمحمد مختار باشا المصرى ص ٦٤٣

حتى تسنى له انقاذ البلاد من تلك المصيبة المدلهمة؛ ولو أنه لم يستطع تخليصها من براثن الغلاء ، الذى تلا حتما ذلك الفيصان الطاغى ، ورفع سعر النقود فأصبح الجنيه المصرى يساوى ٢٠٣ قروش ، والانجليزى ١٩٩ قرشا ، والبنتو ١٥٨ قرشا ، والمجيدى ١٧٩ قرشا ، والمجر ٩٥ قرشا بعـد أن كان يساوى ٩١ قرشا و ٨٩ قرشا فى السنتين السابقتين[1] .

على أن كثرة توافد الزائرين فى هذا العام — وقد بلغ عددهم ٧٧٧٦٧ — وكثرة ما أنفقوه أو أنفق عليهـم جعلتا ذلك الغلاء فى مصلحة منمى المواد الأولى وموردها وفى مصلحة التجار والصناع على العموم . فعوضتاهم خسائرهم و زيادة . ولكن الفقراء — وهم ، بكل أسف ، الأغلبية — لم يستفيدوا إلا قليلا من الملايين المقنطرة التى صرفت فى هـذه السنة واحتفالاتها . فلم يخفف بؤسهم ، ولا فاقتهم لطفت . وهم الذين كانت تقع عين الأجنبى عليهـم فى الغالب ؛ فيحكم بانتشار البؤس وينسبه الى مظالم الحكام ومغارمهم ؛ أو الى تعسف الحكومة بالرعايا ؛ مع أن الحكومة ، فى هذه السنة عينها ، وضعت تعريفة عمومية للنقود منعا لتلاعب ذوى المطامع بها .

ومع أن فيضان سنة ١٨٧٠ كان أقل علوا من سابقه ، إلا أنه كان طاغيا أيضا — فان ارتفاع مياهه بلغ نيفا وأربعة وعشرين ذراعا وسبعة عشر قيراطا . فأتلف كل الذرة المزروعة على السواحل النيلية ، وأنذر ، لا سيما فى جهات الصعيد ، أطيان الفقراء من مزارعيها بالطغيان عليها وتخريبها . فما كان من (اسماعيل) إلا أنه أمر بكسر جسور النيل أمام أطيانه الخاصـة لتحويل مياهها اليها وصرفها عن أطيان أولئك البائسين ؛ ولم يبال ، فى سبيل منفعتهم ، بالضرر الذى أصابه .

(١) أنظر : "التوفيقات الالهامية" البادى ذكرها ص ٦٤٣

ومما زاد الطين بلة فى فيضان تلك السنة أن الأمطار انهمرت انهمارا غير معهود فى عموم بلاد مصر السفلى ومصر الوسطى؛ فهدمت ما هدمت، وجرفت ما جرفت، واستمرّ نزولها بمصر القاهرة وحدها نيفا وتسعة أيام متواليات، واستمرّت، فى ذات يوم منها، تنهمل تسع ساعات وست دقائق بلا انقطاع .

على أن كثرة ورود السائحين فى هذا العام أيضا، بناء على المحببات والمرغبات التى بذلها لهم (اسماعيل) ، سواء أكان باقامته المراقص والملاهى التمثيلية بالقاهرة والاسكندرية، أم بالتسهيلات الكثيرة التى أوجدها لتمكينهم من زيارة عجائب القطر، حتى بلغ عددهم نيفا و ٦٤٣٢٨؛ وكثرة ما بذلوه من مال عن يد سخية، عوضتا البلاد، الى حدّ ما، من المضارّ المتتابعة التى أصابتها . ثم عاد النيل فزاد زيادة مخيفة أيضا فى سنة ١٨٧٢؛ وبلغ ارتفاع مياهه نيفا وأربعة وعشرين ذراعا فزاد فى بؤس صغار الفلاحين والفقراء من الناس . ولكن عدد الزائرين الأجانب وبلغ — ٦٧٧٧٢ — جاء مخففا لشئ من ذلك المصاب . كأن الله ابتلى عباده من جهة ، ولطف بهم من جهة أخرى[1] .

غير أن السيل بلغ الزبى، حقيقة، فى سنة ١٨٧٤ : فان الفيضان ما فتئ فى ذلك العام يرتفع ، يرتفع ، يرتفع ، حتى بلغ نيفا وستة وعشرين ذراعا واثنى عشر قيراطا . فتدفقت المياه من كل صوب ، وتبطحت ، وأدركت ذات الأماكن المرتفعة ؛ وأصابت القطر كله بمضارّ جمة ، نشأ عنها عسر شديد ، وغلاء فاحش ، اضطرّا الخديو إلى العدول عن السفر الى الخارج ، والاقامة فى الاسكندرية لمراقبة خدمة الجسور وصيانتها وترميمها ، من جهة؛ ولمنع نزوح الأموال المصرية الى خارج القطر،

(١) أنظر : "التوفيقات الالهامية" ص ٦٤٥ لمحمد مختار باشا المصرى .

من جهة أخرى، بابقاء ثروة البلاد فيها . ومما زاد، تلك السنة، فى البؤس العام هو أن وزارة المـالية قررت استيفاء العوائد على سائر الأملاك بمصر والثغور والبنادر والجفالك، باعتبار السنة الهلالية، بدلا من السنة الشمسية القبطية[1] .

واستمر النيل على الطغيان فى العامين التاليين، ولو أن شدته فيهما لم تضارع شدته فى عام ١٨٧٤ ؛ ففى سـنة ١٨٧٥ أناف ارتفاع مياهه على أربعة وعشرين ذراعا وأربعة قراريط ؛ وفى سنة ١٨٧٦ على أربعة وعشرين ذراعا وخمسة عشر قيراطا . فزاد الطين بلة ، وحلقات البؤس تعقدا . أضف الى ذلك تعسف وزير المـالية فى تحصيل الأموال مقدما ، بدون مبالاة بالمضار المهلكة ، اللاحقة بالفلاحين من وراء إتلاف تلك الفيضانات الثلاثة الطاغية المتوالية جانبا عظيما من مزروعاتهم ومحصولاتهم .

وبينما النفوس، المبتهجة بنكبة اسماعيل صديق ، والمترقبة بعـدها فرجا ، تنتظر بفارغ صبر أن يعوض الله خيرا ما أصابت به تلك الفيضانات البلاد من ضر، ويمن على القطر بنيل محسن، اذا بفيضان سنة ١٨٧٧ أشح ما رآه عهد (اسماعيل) قاطبة، لعدم بلوغ مياهه سوى سبعة عشر ذراعا وثلاثة قراريط؛ واذا به لا يكفى لرى جانب يسير من الأطيان. فضج المزارعون والأهالى؛ وانخلعت قلوبهم وقلب كل ذى مصلحة فى القطر معها ؛ وتوقع الجميع مجاعة لا نظير لهـا فى العام التالى . ولم تخيب الأقدار السيئة توقعهم . فان نتيجة شح المياه، بعد طغيانها ثلاث سنوات متواليات، طغيانا مدمرا، وإتلافها جانبا عظيما من المزروعات، كانت فى الواقع مجاعة شديدة، انتشرت فى صميم الربوع المصرية وأكلت لحوم البؤساء من الفلاحين وأرباب الحرف، لا بل

(١) أنظر : " التوفيقات الإلهامية " ص ٦٤٦

ذات عظامهم، لا سيما فى الصعيد. وكأن ذلك لم يكن كافيا لإهلاك الحرث والنسل، علاوة على الزرع والضرع، فان الذين خلفوا اسماعيل صديق على دفة المالية من الغربيين قاموا يسلكون مسالكه للأسباب التى سنبينها فيا بعد، وابتزوا من فلاحى القطر الأموال مقدّما . فطارت صرخة التألم فى البلاد قاطبة، ودوت فى مسامع الغربيين أنفسهم، وهم فى عقر دورهم ببلادهم .

فتقرّر إرسال مفتشين من الانجليز لاستطلاع حقيقة الحال. فوجدا أن نيفا وعشرة آلاف شخص هلكوا من الجوع فى مديريات جرجا وقنا واسنا، وأن الباقين على قيد الحياة، يتغذون بأعشاب برّية، وحثالة قصب السكر، وما ماثلها من التافه، وأخبرا أن أكبر أسباب البلية انما هو ابتزاز الأموال من الفلاحين، مقدّما، وفى أوقات غير ملائمة ولامناسبة، واستعمال القسوة فى جبايتها الى حدّ تجريدهم من مخزوناتهم الطعامية وحبوبهم ونقودهم وكل وسيلة تعيش أخرى . ناهيك بفتك طاعون الحمير بمواشيهم وجمالهم (١) .

فهبت حكومة (اسماعيل) وأرسلت الى أولئك البؤساء كمية من الخبز يقتاتون بها. ولكن الفناء ما انفك يعمل عمله، لا سيما فى الأطفال والشيوخ، حتى لم يعد يبقى منهم فى بعض القرى والنواحى إلا القليلون .

فهل من المدهش، بعد توالى هذه النكبات والكوارث الطبيعية على القطر فى مدّة (اسماعيل)، أن يظهر الريف، لا سيما فى الوجه القبلى، فى مظهر البؤس الذى وصفته الليدى دف جوردون فى رسائلها، والذى أدّى الى تخييم كآبة على وجوه الفلاحين،

(١) أنظر: التقرير المرفوع من السير الكسندر بيرد الى وزير المالية المصرية فى سنة ١٨٧٨؛ وانظر: "مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون ص ٢٤٨

كالتى رآها بعضهم[1] مخيمة عليها منذ سنة ١٨٦٦ ؟ هل من المدهش، والناس فى الشرق مافتئوا ميالين الى الاستبشار بملوكهم، أو التطير منهم ، حسبما يرونه ، فى أيامهم، من بواعث على الرخاء والهناء ، أو من موجبات للخراب والشقاء؟ هل من المدهش أن الكثيرين، من الذين عاشوا فى تلك الأيام، لم يستطيعوا ذكرها إلا بشر، وباظهار نقمتهم عليها، وهم — لابتعادهم عن الأشعة المنبعثة عن ولى النعم — لم يتمكنوا من التأثر بنعم هذه الأشعة ، وانما تأثروا فقط بتلك الكوارث الطبيعية المتعاقبة المتتابعة ؟ أو ليس من المدهش بالعكس ان (اسماعيل) ، بالرغم من كل موجبات الأكدار هذه، استطاع أن يضع فى سنى ملكه البهجة والسطوع اللذين وصفناهما فى فصل سابق ؛ وأن يجعل تلك السنين عبارة عن سلسلة أفراح ومواسم انتفاع عام لا انقطاع لها ؟ وأن لا يتنكب، على الأخص، عن العمل على تنفيذ الخطة السامية التى وضعها لنفسه، على كثرة ما تستدعيه من نفقات، وبالرغم أيضا من العقبات التى أوجبتها، على غير انتظار، تبعية مصر للدولة العثمانية ؟

أما وقد تكلمنا عن الكوارث الطبيعية، فلنتكلم الآن عن هذه العقبات ولو بايجاز.

---

(١) أنظر : "كتاب مصر" للسيو رونيه ص ١٦٢ طبعة باريس سنة ١٨٧٧

الفصـــل الثـانى (١)

الحملات المصرية المرسلة مساعدة لتركيا

وأبثثت عمرا بعض ما فى حوائجى * وجرّعتـه من مرّ ما أتجرّع

١ — حمـــلة العسير

حملة العسير

ما ارتقى (اسماعيل) العرش إلا وناداه منادٍ من الأستانة أن « أرسل قوة الى بلاد العرب لمساعدة القوات العثمانية المقاتلة هناك على إخماد الثورة المنتشرة فيها ! » .

وبلاد العرب، منذ أن امتدّ ظل سلطة الدولة العثمانية عليها فى أيام سليمان القانونى الفخيم حتى الحرب العالمية الأخيرة، مافتئت تثور على حكم بنى عثمان، بين حين وحين، وتكلفهم عناء شديدا فى اعادتها الى مظال السكينة والخضوع .

فأرسل (اسماعيل) ست أورط كاملة العدد والعدّة الى درجة غير معهودة ولا متوقعة من مصر فى ذلك الوقت؛ وجعل أجور رجالها وضباطها ضعف ما كانت عليـه؛ واعتنى بصرفها لهم فى أوقاتها المعينة؛ وتشدّد فى عدم التقتير عليهم فى المآكل، مع الالتفات الى جودتها؛ وفى وجوب الانتباه التام الى الوقايات الصحية (٢) .

فكفى مجرّد ظهور تلك الجنود بهيئتها المنظمة، وعدّتهـا الهائلة بالعسير، لحمل الثائرين على الانابة الى الرشد والخضوع الى الدولة .

---

(١) أهم مصادر هذا الفصل: "مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون، و "منتخبات الجوائب" لأحمد فارس الشدياق .

(٢) أنظر: "مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون ص ٣٥، و "منتخبات الجوائب" لاحمد فارس الشدياق ج ٥ ص ٧٨

فأرسل السلطان عبد العزيز، فى شعبان سنة ١٢٨٢، خطا همايونيا الى (اسماعيل) يشكره فيه، هذا نصه كما عثرنا عليه فى منتخبات الجوائب ج ٥ ص ٧٨ : « ان الإقدام والمساعى المصروفة منكم، لبقاء توجهنا اليكم، واستمرار حسن ظننا القديم فيكم، انما هو لحميتكم واستقامتكم الذاتيـة التى أنتم متصفون بها، ومجبولون عليها؛ وذلك هو المستحسن لدينا دائما . وهذه المرّة قد أكد اعتمادنا عليكم ووثوقنا بكم بزيادة ما وقع منكم من الهمة والغيرة بخصوص اندفاع مسألة عشيرة العسير المهمة، من دون حرب . جعلنا جناب الحق، فى سائر الأحوال، مظهرا لتوفيقاته الآلهية آمين» .

* * *

٢ — الحملة الى كريت

الحملة الى كريت

وفى ســنة ١٨٦٦ شبت ثورة عامة فى كريت — وكريت أيضا ما فتئت، منذ أن أخضعتها جنود محمد الرابع فى سنة ١٦٦٠، قائمة على الدولة العثمانية، تثور المرّة بعد الأخرى، لتتخلص من نيرها الأجنبى الثقيل — فلما أعيت الباب العالى الوسائل، تذكر أن جنود (محمد على)، فى الحلقة الثالثة من القرن، كانت قد تمكنت، دون الجنود العثمانية، من اخضاع ثوار تلك الجزيرة، مقابل تقليد أمير مصر زمام ولايتها. فأرسل يطلب من (اسماعيل) الاقتداء بجده العظيم، وانجاد الدولة بفرقة من جنوده البواسل .

وكان (اسماعيل) قد أقبــل يخابر السلطان فى أمر تغيير مجرى الوراثة المصرية؛ فعز عليه أن يرفض الاجابة، خوفا من تغيير الخواطر بالأستانة عليه؛ مع أن الفرمانات لم تكن لتلزمه على المساعدة، فى مثل تلك الأحوال، ولا كان لمصر مصلحة فى تضحية أولادها، وبذل أموالها فى سبيل الدفاع عن تركيا بدون فائدة .

فجهز، اذا، نيفا وخمسة آلاف جندى تامى العـدد تجهيزا عظيما ؛ وعقد لواءهم لشاهين باشا — وكان من رجال الحرب المشهود لهم — وأرسلهم لانجاد الجنود العثمانيـة التى كان الثوار قد ضيقوا عليها المسالك والمنافذ ، لا سيما بعـد أن خابت مساعى مصطفى باشا الكردلى المرسل اليهم فى أوّل أمرهم من لدن الدولة ليجاملهم، حقنا للدماء . ومصطفى باشا هذا هو الذى عهد اليه (محمد على) العظيم فى سنة ١٨٢٢ أمر إطفاء الثورة فى تلك الجزيرة عينها؛ ثم عاد بعد احدى عشرة سنة وانتدبه مرة أخرى للغرض عينه، وجعل عساكر مصركلها هناك تحت امرته . فأعاد السكينة الى نصابها، وبقى واليا على الجزيرة من قبل العاهل المصرى لغاية سنة ١٨٤١ وهى السنة التى عادت الدولة العلية فيها الى تولى أمر كريت بنفسها، عقب الفرمانات المشهورة .

فما نزل الجنود المصريون الى سواحل الجزيرة الثائرة إلا وجعلوا ثوارها يشعرون بشدّة وطأتهم عليهم ، ويدركون الفرق ما بين أولاد النيـل البواسـل ، حينما تكون كتائبهم وجحافلهم منظمة ، تامة المهمات، وبين شراذم الباشـبوزق المجموعة بدون نظام من كل فج عميق . فساقوا طوائف الثائرين أمامهم، وتوغلوا فى داخلية الجزيرة، حتى تمكنوا من فصل بعض فرق الأعداء عن خميسهم المهم ، وأوقعوا بهذا الجيش عينه، بالقرب من أرقاذى، وضربوه ضربة تزلزلت لها أركان كريت بأسرها، وخيل معها للملأ أن الثورة قد قضى عليها .

فأرسل (اسماعيل) الى جنوده البواسل تهانئه الخالصة محرّرة بقلم عبدالله بك فكرى (الذى أنعم عليه فيما بعد برتبة الميرميران، وعرف باسم "عبد الله باشا فكرى"، صاحب كتاب "الفوائد الفكرية") — وكان حينذاك ناظر قلمى التحريرات والعرضحالات . وانا لا نرى بأسا من إيرادها هنا، للدلالة على ما كان لفوز المصريين من رنة طرب

واعجاب فى القطر؛ وعلى الفرق بين انشاء المراسلات فى مصر، وانشائها فى الأستانة :
«الى من باشروا وقعة أرقاذى من الضباط الجهادية ، وأفراد العساكر المصرية ،
سلام من الله وتسليم ، ورضوان كريم ، يهدى لأوّلكم وآخركم ويسدى لمأموركم وآمركم .
لا زلتم محفوفين من الله بنصره ، محفوظين بأمره ، غالبين على عدوّكم بقهره ، متقلبين
فى نعمته و بره ؛ ولا انفكت عزائمكم فى كروب الحروب عزائم ، وصوارمكم فى قطوب
الخطوب بواسم ، وأعلامكم للنجح و لتمكين علائم ، وأيامكم للفتح المبين مواسم ، ورياح
القهر والدمار على عدوّكم سمائم ، ونسمات النصر والفخار فى رواحكم وغدوكم نواسم !
وبعد فما زلت أتشوّق من أخبار شجاعتكم ما يسر الخواطر ، وأتشوف من آثار براعتكم
ما يقرّ النواظر ، واثقا بعزمكم وحزمكم فى المضايق ، مبتهجا بما أبديتموه من حسن السوابق ،
حتى ورد "خابور الشرقية" من طرف حضرة الباشا ناظر الجهادية بيوميات الوقائع
العسكرية ، مشتملة على وقعة أرقاذى وتفصيلاتها ، وما كان من رسوخ أقدامكم
وثباتها ، واقدامكم فى جهاتها ، واقتحامكم مضايق حصونها واستحكاماتها ، وتسخير
مستعصياتها ، وتدمير أشقياء العصاة وكماتها ، حتى زلزلت صياصيها ، وذللت نواصيها ،
ودنا لكم قاصيها ، ودان عاصيها . فهكذا تكون رجال الجهاد ، وابطال الجدال والجلاد ،
وهكذا تفتتح الحصون ، ويبرز سر النصر المصون ؛ وفى ذلك فليتنافس المتنافسون . فقد
أسفر لكم ، بحمد الله ، وجه التهانى ، وأثمر فيكم ، بعون الله ، غرس الأمانى ؛ وأيدتم
ما ثبت للعساكر المصرية ، من حسن الشهرة فى الأمور العسكرية . فحصل لى من الأنس
والسرور بهذه البشاره ، ما لا تقدر الألسن أن تصف مقداره ، ولا يتسع له مجال
الاشاره ؛ وتأيد فيكم حسن أنظارى وظهرت ثمرات أفكارى ؛ وتحققت أنكم بعد
الآن ، بعون الله الكريم ، لا تزلون عن هذا الطريق القويم ، ولا تزالون فى تأييد مالكم

من المجد القديم . وقد شاع حديث نصرتكم بين الأهل والديار، وسارت الركبان بمحاسن هذه الأخبار، كما نقلته صحائف الوقائع الى جميع الأقطار . فانشرحت صدور أهلكم واخوانكم ، وفرحت بكم جميع أهل بلدانكم ، وابتسمت ثغور أوطانكم ، وافتخرت بأحاديث شجعانكم ، وارتاحت أرواح الشهداء من أقرانكم . والمأمول في ألطاف الله العلية ، وبركات السلطنة السنية ، ثم في حميتكم الملية ، وغيرتكم الوطنية ، أن يزول حال الاختلال عن قريب ، وينتهي أمر القتال والحرب ويطيع الجميع ، ويسهل كل صعب منيع ، وتعودوا لوطننا العزيز ، ظافرين بالنصر والتعزيز . وقد قرب حصول الأمل ، ونجاح العمل ، ومضى الأكثر وبقي الأقل ؛ والحرب للرجل العسكري ، والبطل الجرى ؛ سوق عظيم ، وموسم كريم ، تشترى فيه غوالي المعالي ، بأعالي العوالي ، وتنال فيه منازل الأكارم ، في ظلال السيوف الصوارم ، ويدرك الفخر الصادق ، بمرامي المدافع والبنادق . وقد علمتم أن الشجاعة تبلغ الآمال ، ولا تقصر الآجال ؛ كما أن الجبن يورث العار ، ولا يؤخر الأعمار ؛ وانما هي آجال محدودة ، وأنفاس معدودة ، ولا تقبل التغيير ، ولا التقديم ولا التأخير . والشجاعة صبر ساعة ، ثم ينكشف الغبار ، وتسفر الأخبار ويتناقل حديث الشجعان ، ويخلد في تواريخ الزمان . فدوموا على إبداء الاجتهاد ، وقوموا بأداء حقوق الجهاد ، واثبتوا على الشجاعة والإقدام ، وثبات القلوب والأقدام ؛ وأنجزوا ، بمعونة الله ، تمام هذا المرام ، وكما جودتم براعة المطلع فأحسنوا براعة الختام ! » .

غير أن الدهر لم يحقق هـذه الأماني ، ولا تم ما التهبت بتصور وقوعه المخيلات والأحلام . فان الثوار ، كأن كل واحد منهم أنتيؤس القـديم[1] ، ما كادت تطرحهم

(١) «أنتيؤس» في ميثولوجيـة اليونان كان تيتانا جبارا ابن الأرض اذا ما صارعه أحد وألقاه أرضا استمد من الأرض أمه قوة جديدة فقتله «هركلس» بأن رفعه عن الأرض ، وضغط عليه بين ذراعيه القويتين ، ضغطا مستمرا .

الشجاعة المصرية أرضا إلا ونهضوا مستمدّين من روح وطنيتهم قوّة جديدة وبأسا أجدّ، وعادوا الى القتال والجلاد، عودا أشدّ مما كان .

وبما أنهم إنما كانوا يقاتلون ابتغاء الحرية الثمينة ، ورغبة فى تخليص بلادهم من نير أجنبي لم يكن ثقيلا فحسب، بل كان ظالما ، ومدمرا مخربا؛ وأما المصريون فانما كانوا يقاتلون للفخر والشرف ليس إلا؛ وبما أنه لا بد لمن قاتل فى سبيل الحرية والوطن أن ينتصر فى نهاية أمره على المقاتل لمحض الفخار أو لتوطيد دعائم الظلم ، فان الكريتيين ما لبثوا أن اغتصبوا الفوز من أيدى جنودنا ، وقهروهم ، ودحروهم ، وما فتئوا يزحزحونهم عن المعقل تلو المعقل ، والموقع تلو الموقع حتى أجلوهم الى الساحل ، وهدّدوهم بطرحهم بحرا .

ولم يكن (اسماعيل) ، فى صميم قلبه ، راضيا عن موت بنيه المصريين ، فى تلك الجزيرة ، إكراما لعيون الأتراك ؛ لا سيما وأنه كان يكره — وهو الساعى الى الاستقلال عن تركيا ، والعامل على تحقيق ذلك المسعى ، بما فى وسعه من الجهود — أن يكون آلة للبطش بقوم يسعون سعيه ، ويعملون عمله . ولما كان من جهة أخرى قد قضى لبانته من الأستانة ، ونال فرمان تغيير مجارى الوراثة ، وفرمان منحه لقب خديو السلطانى ، فانه أصدر أوامره الى شاهين باشا بالعود بالحملة المصرية الى ديارها ؛ ولم يبال بمطالب عالى باشا ، الراغب فى بقاء أولئك الجنود فى الجزيرة ، ريثما يرسل اليهم مددا عثمانيا يمكنهم ويتمكن معهم من إعادة الكرة على الثوار وإخماد أنفاسهم . ولا غنى بالعداء الذى أثاره رفضه تلك المطالب فى صدر مبديها .

على أن ثورة كريت دامت بضع سنوات . وشعر (اسماعيل) فيما بعد ، لا سيما عقب انخذال فرنسا فى حرب السبعين أمام ألمانيا ، بوجوب العود الى مجاملة

تركية : فأرجع جزءا من تلك الحملة الى كريت إرضاء لعالى باشا عينه، ليحمله على تجنب معاكسة مشروع الاصلاح القضائى، وعلى التساهل فى منحه الامتيازات الملكية الجديدة التى أقبل يطلبها .

وقد قرأت فى كتاب الانجليز والفرنساويين بمصر للمسيو اشيل بيوفيس، طبعة باريس سنة ١٩١٠، أن محمود سامى البارودى باشا — وكان (اسماعيل) قد زوّجه من إحدى غادات قصوره الألطف جمالا — خنق فى سنة ١٨٧٢ زوجته ورجلا من أرباب الموسيقى لأن هذا الآلاتى كان مغرما بالزوجة، فاستولت حمى الغيرة على البارودى فخنق الزوجة وخنق محبها معها؛ فأثار بذلك غضب (اسماعيل) عليه وأراد نفى المجرم الى السودان، أى الى القطر الذى لم يكن أحد يعود منه؛ ولكن أصدقاء البارودى توسطوا له؛ فاكتفى (اسماعيل) بارساله الى كريت، حيث كانت الكتائب المصرية تقاتل الثوار، وأوصى بأن لا يعفى من المأموريات الخطرة؛ ولكن محمودا، بالرغم من ذلك، عاد سليما من تلك الحملة . ثم تمكن من استعادة رضى مولاه، والتزوّج باحدى غانيات البيت اليكنى الرفيع العماد . فهل كانت كريت، فى فكر (اسماعيل)، منذ لم يعد فى الامكان التخلى عن مساعدة السلطان عليها، قد أصبحت "فازوغلى" ثانية ؟

* * *

٣ — الحملة الى البلقان

الحملة الى البلقان

ما فتئت شعوب البلقان، منذ أن ظهرت روسيا على تركيا، بعد بطرس الأكبر، متحركة، ثائرة على الحكم العثمانى : (أولا) لاختلاف الدين؛ و(ثانيا) لاختلاف العقلية بينها وبين حاكميها؛ و(ثالثا) رغبة منها فى الاستقلال . وما فتئت روسيا تساعد كل حركة وثورة فيها، تارة فى السر وبدسائس خفية، وطورا جهارا وبحرب عوان .

فلما كانت سنة ١٨٧٥ ، دفعت بالصرب والجبل الأسود الى مقاتلة دولة بنى عثمان لأسباب لا محـل لذكرها هنا ، وكانت الدولة العثمانيـة قد رأت من انصياع مصر لمساعدتها فى العسير وكريت مسوغا لمطالبتها بأولادها ، ليقوموا فى ميادين القتال مقام بعض أولاد تركيا أنفسهم ، ويضحوا بأموالهم وأعمارهم فى سبيل خدمتها . فبعثت الى (اسماعيل) تطلب منه المساعدة والإنجاد .

ولكن (اسماعيل) كان منشغلا فى تجهيز الحملة الى الحبشـة للأخذ بثأر أرندروب ورجاله ، وغسل عار الكسرة التى أصيب بها . فاتخذ من ذلك مسوغا ومبررا للاعتذار عن إجابة طلب الباب العالى — ولم يكن يميل فى صميمه الى إجابته ، لا سيما وانه لم يعد له لبانة لديه ، وكان قد سحب جنوده من كريت عقب ان هدأت الثورة فيها . على أن أعداءه والراغبين فى تعكير ماء الصداقة بينه وبين تركيا أخذوا يذيعون أنه انما يدير حملته على الحبشة ، ليتذرع بها الى التنصل من تلبية طلب السلطان .

ولكن روسـيا ما فتئت أن خاضت بنفسها غمار الحرب مع تركيا ، بعـد إخلاد الصرب والجبل الأسـود الى المسالمة والسكينة ؛ وتدفقت جنودها الى الحـدود ، وتعدتها فى سنة ١٨٧٧ ، وكانت ثورتان تركيتان متتابعتان قد ثلتا عرش (عبد العزيز) فعرش (مراد الخامس) ابن أخيه ، وخليفته ، وأجلستا مكانهما (عبد الحميد الثانى ابن عبد المجيد) .

فبعث هذا من فوره الى (اسماعيل) يطلب منه ارسال القوة المصرية التى تقتضيها نصوص الفرمانات الى محاربة العدو الوراثى ، بجانب الجنود العثمانية . ولكن تلك الأيام كانت بدء الأعاصير المـالية على القطر . فاعتذر الخديو عن تلبية الطلب بعجزه عن القيام بمصاريف تعبئة الحملة ، وإقامتها بميادين القتال ، ودخولها الفعلى فى المعمعان .

فأبى الباب العالى قبول عذره، وتشدّد فى طلبه .

فعرض (اسماعيل) ارسال الجنود، على أن تتولى الدولة العثمانية أمر الانفاق عليهم فى التعبئة والسفر والاقامة . فرفض الباب العالى ذلك أيضا، وأمر الخديو أمرا صريحا بتعبئة فيلق مؤلف من اثنى عشر ألف جندى، تامى المعدّات وآلات الحرب، وارساله حالا، على نفقة الخزينة المصرية، الى ميدان القتال. وهدّده، إن لم يصدع بالأمر، بدون أقل تأخير، بارسال مدرّعات عثمانية، تحت قيادة هوبرت باشا، الى المياه المصرية، لإجباره على الطاعة[1] .

فاضطر (اسماعيل) الى استدعاء مجلس النوّاب، واستئذانه بربط ضريبة جديدة على كل فدان، قدرها عشرة قروش صحيحة، تدعى "ضريبة الحرب"، وتنفق على تعبئة الحملة وتسفيرها، واقامتها فى مواطن الطعان . ولما وافق المجلس على ذلك، أعدّت القوّة المطلوبة، ووضعت تحت قيادة الأمير حسن باشا، وأرسلت الى ڤارنا على السفن الخديوية، يحرسها اسطيل عثمانى؛ بعد أن دفعت مرتبات سنة برمتها كانت متأخرة للهندسين الغربيين المتولين زمام تلك السفن، لحملهم على الإقلاع عن اعتصاب لجأوا اليه لنيل دفعها، وهدّدوا به بتعطيل سير الحملة الى مقرها[2] .

ولسنا نرى لوصف تلك الحملة خيرا من ايراد ما كتبه عنها مراسلا جريدتى "الجورنال دى دبياه" و"الربيليك فرنسيز" (جريدة المرافعات وجريدة الجمهورية الفرنساوية)، المرافقان لجيوش تركيا فى تلك الحرب .

قال المراسل الأوّل، مراسل "الجورنال دى دبياه": «ان العساكر المصرية تامة الملبس والهندام والتجهيز. طرابيشهم حمراء وسترهم زرقاء كلون السماء، وبنطلوناتهم

(١) أنظر: "مصر فى عهد اسماعيل" لماك كون ص ٢١٣

(٢) أنظر: الكتاب عينه والصحيفة عينها .

كذلك ، إلا أنهـا ملفوفة من الأسفل داخل "تزالك" بيضاء ؛ وكلهم مسلحون ببنادق رمنجتن ؛ ولا شك فى أن ضباطهم أرقى فى معلوماتهم من الضباط الأتراك ؛ وأما جنودهم فلا سبيل الى قياسهم بجنود الترك . فالطابع الفلاحى ، بأنفه الأفقى عند قمته والمفطوس عند قاعدته ، سائد على مجموعهم ؛ ومعظمهم ذوو قامات مرتفعة ؛ ومع ذلك ، فهم لطاف المعشر ، ضاحكو السنّ ، وسيماء الأطفال على وجوههم ومشيتهم . وهم فى الواقع أحداث فى مقتبل اليفاعة ؛ لم تنبت بعد شواربهم ولحاهم ؛ ولا ينتظر من ضآلة صدورهم أن يكونوا أبطال هيجاء يستطيعون احتمال مصاعب الحروب » .

وقال مراسل "الريبليك فرنسيز" : « وكان قد وصل الى فارنا ، منذ بضعة شهور ، على مراكب حربية فاخرة ، بضعة آلاف عسكرى صغار ، خفيفى الأرواح ، وجوههم كلون الشوكولاتة ؛ ولباسهم أزرق سماوى . وكانوا من لطف البزة ، وحلاوة الشمائل ، وظرف الهندام ، بحيث أن المرء كان يشتهى أن لا يقع مطر لئلا يذيبهم كسكر . وكان يستلفت الأنظار فيهم أن بنادقهم كانت صغيرة وظريفة ، ومدافعهم صغيرة وظريفة ، والمناديل التى يتفون فيها صغيرة وظريفة ؛ وأنهم كانوا تحت إمرة أمير بديع الظرف ، يحيط به أركان حرب كلهم ظرفاء ، حتى إنه كان يخيل للناظر اليهم أنهم خارجون من علب لعب ، مصنوعة فى الغابة السوداء . فيتصوّر بسهولة أن مثل تلك الجنود الحلوة الشمائل لم تكن معدّة لتشاطر العثمانيين مشقات الحروب ، ولا لخوض غمارها ؛ لأن مظهرها لم يكن يصح أن يجعلها لها ؛ إلا إذا صح أن تكون سيدات قيفات ، كيسات ، مجعولة لحراثة الحقول[1] ! » .

---

(١) أنظر : كتاب "الروس والأتراك" حرب الشرق المطبوع بباريس سنة ١٨٧٧ بمطبعة مانسو ج ١ ص ٤٥٢

ولكن الجند المصرى ، بخلاف ما كان يتوقعه ذانك المراسلان ، خاض غمرات الحروب وشاطر العثمانيين سعيرها ولهيبها ، لا سيما فى وقعة (پوپ كوى) .

فقد كان قصد القيادة العثمانية ، من قذفها بجناح الجيش التركى الأيسر الى مهاجمة الروس فى تلك الوقعة ، جعل رجوع هؤلاء من الطريق ، الماضية من (پوپ كوى) الى (بيبلا) عن سبيل (أوپاكا) و (كرپتسى أورنچيك) و (سنان كوى) ، متعذرا ، بل محالا ، ومنعهم بذلك من اللحوق بالفيلق الروسى الثانى .

ولما كان الأمير حسن حائزا "محظوظية" السلطان الكبرى ، علاوة على كونه ابن أمير مصر ، ومن ضباط الجيش الألمانى ، فان محمد على باشا ، قائد عموم القوات العثمانية ، لم يتردد لحظة فى تسليمه قيادة ذلك الجناح . على أنه كان يأمل أن يتخلى الأمير الشاب ، الغير زائد عمره على ثلاثة وعشرين عاما ، عن الإمرة الفعلية ، للقائد المحنك ، الجنرال صالح باشا .

وكان غرض صالح باشا هذا دحر الروس من (پوپ كوى) ، بينما تقوم فرقة الجنرال ثابت باشا ، المعسكرة على الأعالى ، (بين بكيرين ينى كوى) (وقره حسن كوى) ، بتهديد خط الرجعة عليهم من (بيبلا) ، وقذفهم على طريق (ترنوفا) .

ففى الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم السادس من سبتمبر هاجم صالح باشا (پوپ كوى) بعنف ، وسلط بطارياته على القرية ، فتناولت مقذوفاتها صفوف البيادة الروسية ، وفتكت بها فتكا ذريعا . وزحفت البيادة التركية فى الوقت عينه ، تحت حمى المدفعية ، بنظام حسن الى (پوپ كوى) من اليمين ومن الشمال ، فاضطر العدو أن يتقهقر الى وراء القرية ، وأخذ ينسحب من (پوپ كوى) ، كما انسحب

من (قره حسن) . ولولا أن الأمير حسن أوقف القتال فى ذلك الوقت، لأسباب لا نعرفها، لحل بالروس مصاب جلل .

وفى اليوم التالى ٧ سبتمبر، شرع الروس ينسحبون من (پوپ كوى) وضواحيها ويتقهقرون الى (بييلا) . وإذ كان لدى صالح باشا كل ما يلزم لينقض على مؤخرتهم، ويصيبهم بأذى بليغ، أقبل يجهز الهجوم . فأمر الأرط بالاستعداد للزحف، والمدفعية بالاستعداد للضرب . ولكن الأمير حسن ما فتئ متردّدا، يأبى مفارقة مواقع سارنا سوفلار، لاعتباره إياها فى منتهى الجودة؛ وأسفر تردده فى نهاية الأمر عن منعه كل إجراء وهجوم . فتمكن الروس من الانسحاب، بسلام وطمأنينة، الى (بييلا)، بأسلحتهم ومهماتهم . ولكن الجند التركى طفق يتململ، وأخذت السخيمة تغلى فى صدره، كلما حملته بداهته الفطرية على أن يتساءل لماذا يمنعه قواده من الانقضاض على العدو المنهزم[1] .

على أن التاريخ لا يدرى، لغاية هذا اليوم، ماهى الأسباب التى حملت الأمير حسن على سلوك المنهج الذى سلكه؛ لا سيما أن الجنود المصرية، وهو على رأسها، أبلت فيما بعد بلاء حسنا فى سلستريا وغيرها، وما فتئت تقاتل ببسالة الى أن وضعت الحرب أوزارها، فعادت الى أوطانها[2] .

وقد كلفت هذه الحملات المصرية الثلاث المرسلة الى الخارج بناء على دعوة الباب العالى نيفا وثلاثة ملايين من الجنيهات على الخزينة المصرية، فى وقت كانت البلاد فى أشدّ الاحتياج الى تلك النقود .

(١) أنظر : كتاب "الروس والأتراك" حرب الشرق المطبوع بباريس سنة ١٨٧٧ بمطبعة مانسو، ج ١ ص ٤٦٨ وما يليها .

(٢) ربما كان، فيما تقرأه فى كتاب "حياة البلاط بمصر" لبتلر، ص ٢٠٨ و ٢٠٩، شبه إماطة اللثام عن بعض تلك الأسباب .


Bibliotheca Alexandrina
12400054